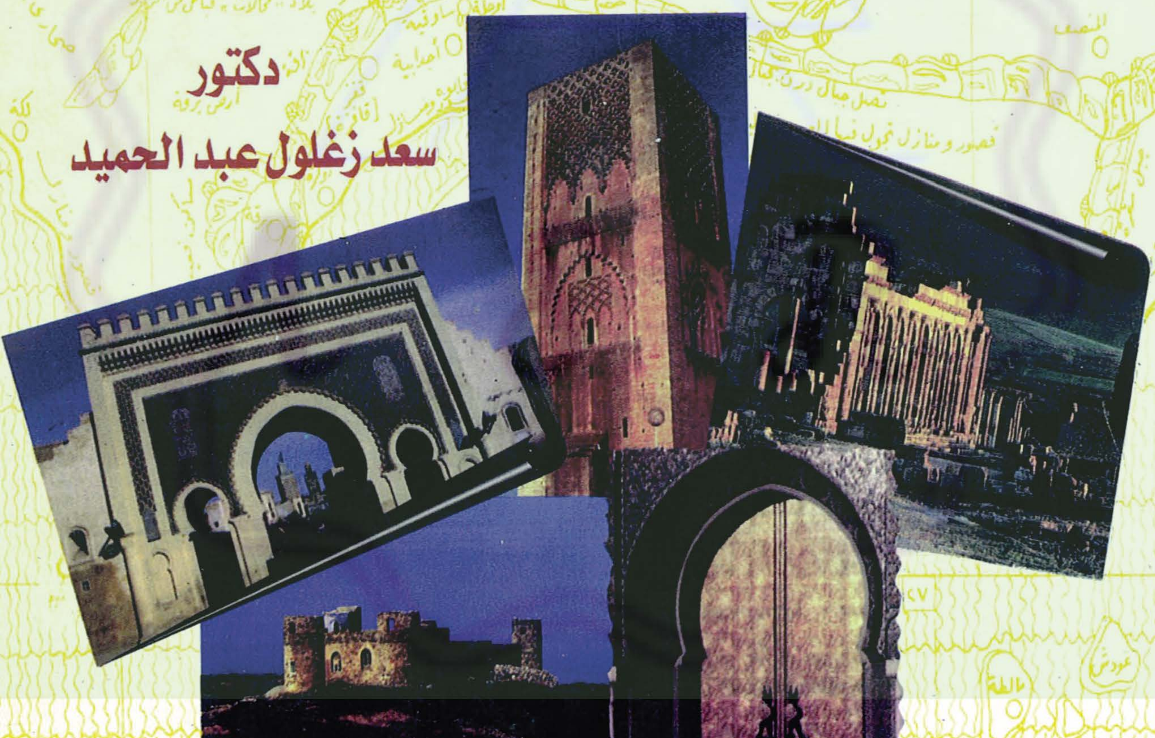
تاريخ المغرب العربي

أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن

٥٥٨-٥٨٠هـ/ ١١٧٢-١١٨٤م

الجزء السابع

دكتور
سعد زغلول عبد الحميد



الناشر منشأة المعارف بالاسكندرية
جلال حزي وشركاه

الناشر : منشأة المعارف ، جلال حزى وشركاه

44شارع سعد زغلول – محطة الرمل – الاسكندرية – ت/ف 4853055/4873303 الإسكندرية
Email : monchaa@maktoob.com

اسم الكتاب : تاريخ المغرب العربي جـ7

اسم المؤلف : د. سعد زغلول عبد الحميد

رقم الايداع : 2005/16624

الترقيم الدولى : 6 - 1341 - 03 - 977

التجهيزات الفنية

كتابة كمبيوتر: مكتب سيف للكمبيوتر

تصميم غلاف : مكتب سلطان للكمبيوتر

طباعة : شركة الجلال للطباعة

تاريخ المغرب العربى

الجزء السابع

المنصور الموحدى

٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م

الدكتور
سعد زغلول عبدالحميد

مقدمة

تعتبر حركة محمد بن تومرت التى انتهت بقيام الإمبراطورية الموحدية من الأحداث الحاسمة بالنسبة لتاريخ الغرب الأفريقي - الأوروبى .

ففى بداية القرن الحادى عشر الميلادى / ٥هـ كان على العناصر العربية فى بلاد المغرب الإسلامية أن تترك مكانها لعناصر محلية أخرى (من البربر) جديرة بإقامة دول فتية قادرة على وضع حدّ للفوضى الداخلية ومواجهة العدو فى الخارج . وهكذا كان على كل من الدولتين : الموحدية والمرابطية أن تتبع الواحدة منها الأخرى - وهما دولتان مغربيتان من دول البربر .

ففى مطلع القرن الثانى عشر / ٦هـ قام من يّدعى محمد بن تومرت كآمر بالمعروف وأخذ على عاتقه عمليه اصلاح دينى فى بلاد المغرب . وبفضل الظروف التى خدمته بشكل رائع ، وبفضل رحلته العلمية وتكوينه العلمى في الشرق ، نجح أن يجمع حوله قبائل مصمودة فى جبال درن (أطلس العليا) ، وكون مذهباً جديداً ، أشبه ما يكون بحزب سياسى دينى ، هو حزب الموحدين (أو مذهب التوحيد) .

وكان هدف هذا الحزب هو الرجوع بالإسلام إلى نقائه الأول ، وقمع الخلافات الدينية ، وتحقيق الوحدة فى عالم اسلامى جديد ، يتصف بالسلامة الصحية وبالقوة التى تمكنه من مواجهة أعداء الخارج من غير المسلمين.

وهكذا نظم ابن تومرت جماعة الموحدين على أساس دينى - سياسى مشترك . فقد احتفظ بالسلطة الروحية الدينية لنفسه واتخذ لقب المهدى أو الإمام المعصوم ، وجعل على رأس السلطة العسكرية - تابعه المخلص عبدالمؤمن بن على المشهور. وانتهى صراعه ضد المرابطين أصحاب السلطة وقتئذ ، بالنجاح . وبعد وفاته (٥٢٤هـ/ ١١٣٠م) استمر عُبدالمؤمن فى قيادة الصراع بمهارة أدت الى الإستيلاء على العاصمة مراكش (٥٤١هـ/ ١١٤٦م). ونجح عبدالمؤمن فى طرد النورمانديين الصقليين من أفريقية ، وبذلك حقق وحدة

كل بلاد المغرب . وعندئذ قام بغزو الأندلس ، واتخذ لقب الخليفة ، وبذلك أقام أسرة ملكية حاكمة ، هى أسرة : " بنو عبدالمؤمن " .

حقيقة أن مؤسسى الدولتين البربريتين (المرابطية والموحدية) قاموا بالدعوة إلى الإصلاح الدينى ، وحققوا تغييرات فى المجالات الدينية والإجتماعية ، ولكن الأكيد هو أن الجهاد وحده ضد الكافر هو الذى حقق لهم المجد والفخار . ففى نظر أهل ذلك العصر كان الجهاد وحده الذى يعمل له الحساب وهكذا يحدد انتصار الزلاقة (Sacralias : ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م) الذى أحرزه يوسف بن تاشفين قمة الذروة فى التاريخ المرابطى ، وكذلك الأمر بالنسبة لمعركة الأرك (Alarcos : ٥٩٠هـ/ ١١٩٥م) التى أحرزها يعقوب المنصور حفيد عبدالمؤمن التى تعتبر أعظم إنجازات الأسرة الموحدية ، كما آذنت هزيمة العقاب (LasNavas de Tolosa : ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م) على عهد الناصر الى ضياع أسبانيا الإسلامية ، من حيث كانت بداية النهاية بالنسبة لدولة بنى عبدالمؤمن الموحدية .

وهكذا يمكن اعتبار العصر الموحدى بشكل عام ، بمثابة آخر عملية تقويم لدولة المسلمين فى مواجهة حرب الإسترداد الأسبانية (Recomquista) ، وعلى الأخص فى عهد المنصور ، الذى يعتبر ذروة العصر الموحدى ، كما هو خطوة البداية نحو إضمحلال تلك الدولة .

ولكل ذلك رأينا أنه ربما كان من المفيد تكريس دراسة خاصة لعصر يعقوب المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن (٥٨٠هـ/ ١١٨٤م – ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م) ومع ذلك فإن دراستنا لن تقتصر على الأعمال السياسية ، ولا على التظاهرات العسكرية ، إذا ستشتمل بشكل عام ، على المظاهر الحضارية فى تلك الفترة ، على قدر ماتسمح به الوثائق المصدرية .

ونحن لا ندعى أننا وجدنا وثائق جديدة فى هذا المجال ، وذلك أن بحثنا يرتكز أساسا إما على مؤلفات الكتاب العرب المعروفين ، وإما على الأعمال

القديمة أو الحديثة للعلماء المتخصصين فى دراسة حضارة الغرب الإسلامى .

ومع ذلك فسنحاول أن نقدم بعض المعلومات الجديدة .

وفى هذا المقام يجب علينا التوجه بالشكر والإحترام إلى الأستاذ/ ليفى بروفنسال له الرحمة – صاحب الأعمال التى لا غنى عنها لدراسة تاريخ الموحدين . ونحن نعترف بالجميل لكل الأساتذة والعلماء أصحاب الأبحاث الصبورة التى تستمر فى تقديم الخدمات التي لا تقدر للدراسين .

المصادر:

قبل أن نعرض للموضوع ، يحسن بنا أن نلقى بنظرة سريعة على المصادر الرئيسية لتاريخ الموحدين ، وخاصة تلك التى تتعلق بعصر المنصور.

وهذه المصادر ليست ثرية ، كما أنها ليست كثيرة . ورغم المكتشفات الحديثة فيجب الأمل فى أن يقدم لنا المستقبل لمعطيات جديدة ، فبدون ذلك ستظل معارفنا فى كثير من المجالات محدودة ، كما ستبقى ناقصة فى عديد من النقاط .

وسنعرض بالترتيب الوثائق الرسمية ، والأعمال التاريخية المصدرية ، ومعجمات السير ، والأعمال الجغرافية ثم الكتب التاريخية الثانوية المحدودة الأهمية ، وننهى العرض بكتب الرحالة.

الوثائق الرسمية:

إذا كان مما لا جدل فيه فى دراسة التاريخ أن يكون للوثائق الرسمية قيمة رئيسية ، فإن الرسائل الـ٣٧ (السبعة والثلاثين) التى نشرت ثم درست بمعرفة أ.ليفى – بروفنسال (الرباط ١٩٤١ ، باريس ١٩٤٢) ، تكون فى مقدمة ما يشار اليه . فأصالتها بصفة خاصة ، لا شك فيها من حيث أن محتواها جميعاً يوجد كما كان فى شكله الأولى دون أية تعليقات من حيث الشكل أو المضمون .

وهى من حيث المحتوى يمكن أن تصنف فى طبقتين أولاهما : تلك التى تعالج المذهب الموحدى / وثانيتهما : تلك التى لها سمة سياسية خالصة .

ونحن نقتصر هنا علي تحليل ٩ (تسع) من الرسائل الصادرة باسم أبى يوسف يعقوب المنصور. والأولى مهمة بخاصة ، فيما يتعلق بتاريخ إعلان ولايته . إنها تحسم هذه المسألة التى كانت قلقه حتى الآن من حيث أنها أتت لتؤيد التاريخ الذى حدده صاحب البيان المغرب (الذى بدأ نشره تحت عنوان Anonimo أو ابن بسام – انظر ثبت المصادر) ابن عذارى ، وهو يومي ١ ، ٢ من شهر جمادى الأولى من سنة ٥٨٠هـ/ ١٠ ، ١١ من أغسطس ١١٨٤م ، بينما يحدده عبدالواحد المراكشى ، المؤلف المعاصر بعد أكثر من شهر من ذلك التاريخ .

والرسالة الثانية مهمة بالنسبة لتنظيم الشرطة والإشراف على الأسواق . والقسم الأخير الخاص بالزكاة مهم بصفة خاصة لدراسة النظم المالية .

والرسائل الأربع التالية تخص العمليات العسكرية التى قام بها بنو غانية والغزّ فى أقصى الشرق من الدولة الموحدية . وهى تعطى الكثير من التفصيلات التى لا توجد فى غيرها ، وتلقى بالضوء على الكثير من المعلومات المختصرة أو المشوهة جزئياً فى غيرها من المراجع .

والرسالتان الأخيرتان تتعلقان بالعمليات العسكرية التى قام بها يعقوب فى الأندلس، وهما تتفقان مع رواية ابن عذارى (Anonimo) والأولى تدحض جزئيا رواية ابن خلدون ، والثانية تتحدث عن حملة عسكرية فى وادى التاجه الأوسط وتضيف تفصيلات دقيقة الى المعلومات التى يقدمها كل من ابن خلدون وصاحب الروض المعطار .

وإلى هذه المجموعة من الرسائل الرسمية ، يجب أن تضاف القطعة الأولى من الوثائق التى لم تنشر فى التاريخ الموحدى (مذكرات البيدق) التى نشرت وترجمت بمعرفة أ . ليفى - بروفنسال (باريس ، ١٩٢٨) . أما القطعة

الثانية فتكون على العكس من ذلك عملاً شخصياً وهى تذكر بالتالى فيما بعد . والرسائل فى القطعة الأولى تتعلق ببداية المجتمع الموحدى . وهذه الرسائل المذهبية المطولة لابن تومرت ولعبد المؤمن تمثل إدانة عنيفة لمذهب التجسيم لدى المرابطين – موجهة للأتباع والمقاومين من الموحدين.

وإلى جانب ذلك نذكر الوثائق الدولية الموحدية المحفوظة فى أرشيفات بيزا وفلورنسا والتى نشرت ودرست بمعرفة أمارى (فلورنسا ، ١٨٦٣) ودى ماس-لاترى (باريس ، ١٨٦٦) ، والتى تصنف فى نفس الدرجة ، وهى مهمة بالنسبة للتاريخ الإقتصادى لذلك العصر.

بعد ذلك يأتى كتاب ابن صاحب الصلاة ، المعنون بـ "المن بالإمامة" (مخطوط إكسفورد ، مارس ٤٣٣ ، ونشر عبدالهادى التازى ، ١٩٦٤)، الذى يحوى كماً ضخماً من الرسائل الرسمية . بعضها صدرت باسم عبدالمؤمن بمناسبة فتح أفريقية وإخضاع المهدية. وبعضها الآخر صدر باسم أبى يعقوب يوسف ، والى إشبيلية ثم أميراً بعد وفاة عبدالمؤمن ، وأخيراً خليفة ، وهى : إجابات لرسائل عبدالمؤمن ، وخطابات دوريه تؤكد العدالة للجميع . هذا ، وأرسلت غيرها بمناسبة هزيمة ابن مردنيش ، باسم أبى حفص عمر بن عبدالمؤمن الوزير فى حياة والده ، وهو شخصية عارمة ، ومنافس خطر ليوسف الذى كان قد اكتفى بلقب الأمير فقط. ورسائل آخرى فى النهاية باسم إخوة آخرين ليوسف ، وهم حكام الولايات الأفريقية والمغربية والأندلسية ، وذلك فى مناسبات متعددة ، مثل : الإنتصارات العسكرية ، والإعتراف بيوسف كأمير للمؤمنين . ودائرة معارف القلقشندى المعنونة بـ "صبح الأعشى" (نشر القاهرة ١٩١٣ – ١٩١٨) تحفظ لنا هى الأخرى بعض الرسائل الموحدية الرسمية أو الرسائل الموجهة للموحدين من الخارج ، وهى وثائق هامة بالنسبة لنظام ديوان الرسائل كما هى مهمة بالنسبة للتاريخ السياسى ، وإن ظلت أصالتها موضع شك.

وبالإضافة إلى الوثائق الرسمية ، ليس لدينا من المصادر إلا مؤلفات أو مصنفات مجموعة : من تاريخية وغير تاريخية ، من : معاصرة أو متأخرة . ونحن نحاول هنا أن نتعرف على محتوياتها ، ومصادر كل منها ، وبيان العلاقات القائمة بين بعض هذه الوثائق والبعض الآخر.

ومن بين هذا الصنف الأخير نبدأ بذكر كتاب محمد بن تومرت "أعز ما يطلب" (الجزائر ، ١٩٠٣) ، وهو عمل أصيل لمنشىء الدولة الموحدية ، وأول منبع لمذهب أهل التوحيد . ففيه يعرض ابن تومرت المبادىء الأولية للعقيدة ، وهى ابتداء الفكرة الروحية والتجريدية للذات الإلهية ، المستوحاة من عقيدة المعتزلة ، والتى ، كما يقول ، لا تتفق مع أية فكرة أخرى تقرب من قريب أو من بعيد من أفكار التجسيم . وهى بعد ذلك مستوحاه من المذهب الشيعى ، مذهب الإمام المعصوم الذى ينبغى الخضوع له خضوعاً تاماً بصفته أميراً للمؤمنين . وهذا المذهب يهاجم بقوة كل الأفكار الدينية وكذلك القائمين على ادارة الجماعة الإسلامية فى الغرب (الإفريقى الأسبانى) فى ذلك العهد ، ويملى فى ضرورة قتالهم دون عفو أو رحمه ، هنا أو هناك ، وبكل الوسائل المتاحة .

وتأليف عبدالواحد المراكشى وهو "المعجب"(نشر دوزى ، ليدن ، ١٨٤٧) جدير بأن يقدم لنا معلومات كافية عن دولة الموحدين الفتية . فالمؤلف كان على صلة بالأحداث وقتئذ ، بطريقة أو بأخرى حيث كان منغمسا عن قرب بجزء منها . فهو من مواليد مراكش سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م ، فى أوائل عهد المنصور ، وكان تأليفه لكتابه سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م ، فى المشرق فى أغلب الإحتمالات .

وتاريخ عبدالواحد المراكشى ينقسم الى فترتين مختلفتين ، لهما قيمة تاريخية غير متساوية . والفترة الأولى خاصة بالأندلس منذ الفتح حتى نشأة الدولة الموحدية ، والثانية فى تاريخ الموحدين صرفاً. وهذه الأخيرة تمثل العمل

الرئيسي للمؤلف ، من حيث أن معلوماته هنا ذات قيمة كبيرة ، فهو على طول الرواية يذكر مصادره، عن شهود العيان ممن يوثق بهم بشكل عام ، أو عن مصادر عالية وجديرة بالإحترام ، مثل : يحيى حفيد عبدالمؤمن . وهو إذ كان في الحقيقة يؤلف كتابه مستقلا تماما عن الأسرة الحاكمة ، بعيداً عن ضغوط رجال الدولة ، فإنه يظهر في رواياته غير منحاز إلى درجة كبيرة.

وفوق ذلك فرغم أن المراكشي كان بعيداً عن كتب تاريخ الموحدين ، فإن معلوماته يمكن أن تعتبر من أكثر المعلومات أصالة ، ولو أنه يظهر في عدد منها أحياناً ، قدر ، من عدم الدقة بسبب ضعف ذاكرته . ففي فاس شاهد بنفسه إحراق كتب الفروع والفلسفة . وكذلك كان حاضراً في مراكش عندما وزع المنصور في إحتفال سنوي الهدايا والنقود على الأطفال الأيتام المتجمعين بالقرب من القصر الملكي . وهو يصف بفن وبكثير من الوضوح والتفصيل المواكب الخلافية ، ويستطرد طويلاً عن الإحتفال بصلاة الجمعة . واليه يرجع الفضل في إمدادنا بمعلومات جديدة ، مثل بدايات ابن رشد ، وأحوال اليهود ، وكيفية العمل في بيمارستان (مستشفى) مراكش.

ومن وجهة النظر الأدبية يقدم لنا كتاب عبدالواحد المراكشي نماذج وفيرة من الأشعار . ويأتي بعد ذلك الجزء الثاني من كتاب "المن بالإمامة" لابن صاحب الصلاة . (مخطوط اكسفورد ونشرة التازي) وهو من المصادر الرئيسية للتاريخ الموحدي . إنه يعالج الفترة من ٥٥٩ إلى ٥٦٩هـ / ١١٦٤-١١٧٤م إلى جانب أعمال عمومية تمت بعد ذلك في إشبيلية وضواحيها ، على عهد يوسف وبداية عهد المنصور.

ويصف دوزي في مقدمته لكتاب المعجب لعبدالواحد المراكشي (ص٩) ، ابن صاحب الصلاة بأنه عميل موحدي ، أكترى للتغني بأمجاد الأسرة المالكة ، وأنه حسبما يري لا يقارن بعبدالواحد صاحب الرواية الواضحة والأمانة غير المتحيزة. والظاهر أن الحقيقة قد تكون غير ذلك . فإن صاحب الصلاة إذ قد

يظهر لنا كمؤرخ عادى ، ولكنه لا يتوانى عن أن يقدم لنا معلومات مطولة ، جديرة بالثقة ، وفضلاً عن العديد من الرسائل الرسمية التى تعطى الروايات التى يقدمها فى مؤلفه الكثير من الأصالة والجدية .حقيقة إنه لا يعلق عادة على الرسائل الرسمية التى يعرضها ، ولا على الأحداث ، كما لا يستخلص النتائج ولا يشير إلى الأهداف المنشودة . ولكن المؤرخ الحديث - الذى يقع على عاتقه كل ذلك - لا يكون إلا سعيداً بهذا الوضع .

وإلى جانب الرسائل الرسمية ، يقدم ابن صاحب الصلاة معلومات فريدة عن عدد من الأحداث التى كان بالنسبة لها ، فى مناسبات متعددة ، شاهد عيان . والمعلومات الخاصة بأعمال التخريب التى قام بها ابن مردنيش وصهره ابن همشك فى الأندلس لها قيمتها من حيث الإسهاب والأصالة . وكذلك الأمر بالنسبة لروايته عن إقامة عبدالمؤمن بجبل طارق سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م ، إلى جانب معلومات أخرى.

وهكذا فهو عندما يتكلم عن الإعدادات التى قام بها عبدالمؤمن فى صراعه ضد نصارى الأندلس ، يعدد ١٢٠ مركبا شاهدها بنفسه على تركيبات البناء الـ ٢٠٠ (مائتين) فى دار صناعة السفن فى ميناء المعمور بمصب وادى سبو بالقرب من سلا . وفى جبل الفتح يحضر بنفسه مع الطلبة للقاء السيدين : أبى حفص وأبى سعيد ، وهما ابنا عبدالمؤمن ، وكان أولهما يشغل منصب الوزير والآخر ولاية قرطبة - وتمّ لقاء المجاملة بشكل احتفالى فى حضورالشعراء.

وكما هى العادة حينئذ ، فإن مؤلف ابن صاحب الصلاة له قيمة أدبية معتبرة فهو فى مناسبات عديدة يعرض قطعاً شعرية مطولة تتغنى بمدائح عبدالمؤمن وأبنائه.

ومما يؤسف له أن الجزء الثالث الذى كان يمكن أن يقدم لنا معلومات جيدة عن عصر المنصور يعتبر فى حكم المفقود. فالمعلومات الثمينة التى يقدمها لنا

عن العمل الإنشائى الذى قام به المنصور فى أشبيلية ، وخاصة ما يتعلق بإنشاء منارة المسجد الجامع الذى يؤكد هذه الفكرة . وحتى الآن وجب علينا الإكتفاء من ابن صاحب الصلاة ببعض المعلومات التى احتفظ لنا بها بيان ابن عذارى Anonimo وكذلك روض القرطاس لابن أبى زرع ، إلى جانب بعض القطع المتناثرة فى كتب التاريخ المتأخرة.

إن القطعة التى نشرت من بيان ابن عذارى تحت اسم "مخطوط مدريد وكوبنهاجن"المجهول" ElAnonimo de Madridy Copenhagen" والذى نشر وترجمه ويثى (Huici) (بلنسيه ١٩١٧) يمثل التاريخ الأكثر شمولاً بالنسبة للتاريخ الموحدي فى الفترة ما بين ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م و ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م فبالمقارنة مع المصادر الأخرى لتاريخ بنى عبدالمؤمن ، يكون له قيمة لا تقدر بثمن نظراً لصحة أخباره ودقة معلوماتية.

ومع ذلك فإن هذا التأريخ ليس كاملاً بشكل تام .فهو ينقصه بداية الموحدين ، فالجزء الباقى يبدأ بيوسف بن عبدالمؤمن بعد أن صار خليفة . وهو يمتد على طول الأحداث الرئيسية على عهده فى الأندلس ، وفى أفريقية والمغرب حتي استشهاده أمام شنترين (Santaren) .

والأمر كذلك بالنسبة لعهد المنصور وكذلك الناصر حتى كارثة العقاب (Las Navas de Talosa) التى تحدد بداية ضعف الدولة الموحدية الفتية .

فقد أصابها الهرم حتى تركت المكان للفوضى الداخلية ، والتراجع والتنازلات الإقليمية فى الأندلس ، ومؤامرت البلاط والصراعات الداخلية فى سبيل الوصول إلى سدّة الحكم ، وهى الأحداث التعسة التى ستغيب فيها البدايات العظيمة للدولة المؤمنية.

وإذا نظرنا فى الفصول التى تتعلق بعهد المنصور نجد أن المؤلف يصف بإسهاب آخر حملات يوسف فى الأندلس ، وهى التى انتهت بوصول يعقوب المنصور الى سدة الحكم. فهو يصف إعدادات الحملة وتنقلات الخليفة على

رأس قواته بنوع من الإطالة فى المعلومات والدقة فى التفصيل بطريقة لا نعهدها فى التواريخ الأخرى المعروفة لنا حتى الآن : فالمسير من فاس يوم الثلاثاء ٤ محرم ٥٨٠هـ/ ١٧ أبريل ١١٨٤م ، والنزول فى سبته ، وركوب البحر يوم الخميس ٥ صفر ، والرسو فى جبل الفتح ... الخ والمؤلف يقتبس هنا كّما جيداً من معلوماته من ابن صاحب الصلاة ، ومن مؤلف آخر اسمه يوسف بن عمر ، وهو شاهد عيان يظن فى صحة روايته . وهو يعرض باستفاضة إلى عودة الخليفة الجديد الى مراكش . ويصف الـ١٣ مركباً التى قادها أمير البحر أبو العباس الصقلى بعد أن كانت قد جهزت فى طريقه من أجل عبور الخليفة وحاشيته ، وكان احتفال الوداع فى إشبيلية ، ثم وصف الطريق حتى مِيناء الركوب ، وهو يذكر البعثة التى أتت لأداء فروض الولاء والطاعة للخليفة .

وبإستثناء بعض الأخطاء البسيطة ، تتمثل مساوىء الكتاب فى الخروم الكثيرة والأخطاء التى ترجع الى النّساخ ، الأمر الذى يجعل القراءة فى تلك المواضع من الصعوبة بمكان .

ومع أن العمل فى مجمله مهم بالنسبة لتاريخ المغرب ، فإن الجزء الأول من البيان المغرب الذى ينسب الى نفس المؤلف ، والذى نشره دوزى(ليدن١٨٤٨-١٨٥١) ، وترجمة فانيان (الجزائر ١٩٠١-١٩٠٤) ويعالج تاريخ المغرب منذ الفتح الإسلامى سنة ١٢٠٥م / ٦٠٢هـ ، فهو ثانوى الأهمية بالنسبة لبداية الموحدين.

وأما كتاب روض القرطاس لابن أبى زرع (نشر طورنبرج ١٨٤٣) فهو من أعمال الجمع والتأليف فى القرن الرابع عشر (١٣٢٦م) ، ويعتبر وثيقة ذات أهمية بالغة لتاريخ المغرب لأكثر من ٥ (خمسة) قرون.

وهو يعرفنا به ٥ (خمسة) أسر ملكية ، توالت على حكم المغرب الأقصى ، وهى : الأدارسة مؤسسو فاس ، وزناته الذين انتزعوا منهم الحكم ، والمرابطون

مؤسسوا مراكش ، وخلفاؤهم الموحدون ، وأخيرا يعرف ببني مرين ، ورثة الموحدين في أملاكهم الغربية.

ويكفي النظر في المؤلف لتقرير أنه استقى معلوماته من وثائق معاصرة أصيلة . وهكذا فهو يقدم لنا جملة من التواريخ الدقيقة جداً في بعض الأحيان ، إذ لا تحمل سنة الحدث ، ويوم وقوعه ، بل الساعة التي وقع فيها أيضا. وإلى جانب هذه التوقيتات الدقيقة ، يعطينا معلومات مبهمة تثير دهشة القارئ (انظر أ.ف. جوتييه ، ماضي أفريقية ، ص ٦٦-٦٧).

وفيما يتعلق بالجزء الخاص بالعصر الموحدي ، يقدم المؤلف هنا ، وفي مواضع أخرى روايات تاريخية ، وقصصاً أسطورية تماماً ، مما اصطنعته الدعاية المناهضة للموحدين بعد سقوط دولتهم.

فالمقتبسات المختلفة التي أخذها من ابن صاحب الصلاة ليست محققة فقط بل أنها متناقضة أحياناً. فالمؤلف في غمرة اهتمامه بألا يترك أي معلومة ما ، يحدد مثلاً التواريخ المختلفة لوفاة محمد بن تومرت حسبما حددتها المصادر المتنوعة.

و إذا إكتفينا هنا بالمعلومات التاريخية فقط لذاتها ، فنحن لن نتوقف عند عدم انتظامها ، أو تناقضاتها ولا عند افتقادها لروح النقد من جانب المؤلف. وذلك أن الإختيار الجدي لتلك الكمية الهائلة من المادة المعلوماتية يعتبر حقاً من عمل المؤرخ.

ومن وجهة نظرنا فإبن أبي زرع يعرفنا بما فيه الكفاية (وهو ما لم يفعله المؤلفون الآخرون) عن المنشآت التي بناها عبدالمؤمن ، وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب . وعندما يتعلق الأمر بالعمليات العسكرية التي قام بها هؤلاء الحكام فإن معلوماته تزداد حينئذ دقة . فحصار شنترين بمعرفة يوسف ، وانتصار يعقوب في الأرك (الأركوس) ، وكارثة العقاب على عهد الناصر ، كل هذه الأحداث وصفت تفصيلاً ، وبفن كبير ، وأكثر من ذلك فإن وصفها تم بكثير

من المهارة ، كما بدقة شاهد العيان . وهذا الأمر يثير الظن بأن مؤلفنا اغترف عن هذه النقاط معلومات من مصادر صحيحة الأصالة مما لم يصل الينا منها نظير.

والجزء الثانى من "الوثائق التى لم تنشر عن تاريخ الموحدين :للبيذق"، والتى كتبت فى مطلع القرن الثالث عشر والتى نشرها الأستاذ بروفنسال فلها أهمية عظيمة من حيث التعريف بتنظيم جماعة الموحدين الناشئة تحت اشراف ابن تومرت، وتطورها على عهد عبدالمؤمن وخلفائه الأوائل . ويكون فهمنا أكثر لأهمية قيمة هذه الوثيقة بالنسبة للتاريخ الإجتماعى إذا أخذنا بعين الإعتبار إن المؤلفين عادة ما يهتمون بالتاريخ السياسى وحده . وأهم التفصيلات هى ذات العلاقة بأسرة محمد بن تومرت ، وأصدقائه فى مصر ، وبحاشيته ، وبمجلس العشرة ، ومجلس الخمسين . والأكثر أهمية من ذلك هى قائمة المعلومات الخاصة بقبائل الموحدين ، النواة العسكرية القوية "لحزب التوحيد" . والقائمة تحوى أجزاء كل قبيلة ومختلف عناصرها التركيبية . ودرجة الأقدمية فى تكوين "حزب التوحيد" تمثل العنصر الأساسى فى نظام التسلسل . ويعدد المؤلّف أصناف عبيد المخزن من التابعين ثم يعالج التنظيم الداخلى للقبيلة. ويصف لنا المؤلّف عملية "التمييز" للموحدين، وهى نوع من التطهير الذى يتم فى قلب الحزب لتصفية العناصر المشكوك فى أمرها . ورغم أهمية المعلومات عن هذا الأمر إلا أنها ينقصها الوضوح . والغريب فى الأمر أن مشرقيا هو ابن الأثير ، هو الذى فهم أكثر من غيره هذه العملية وشرحها بأكثر الطرق وضوحاً.

والقطعة الثالثة من البيدق ليست مهمة بالنسبة لنا إلا فيما يتعلق بالتاريخ السياسى لأوائل الموحدين من عهد ابن تومرت الى أيام يوسف.

واختصاراً . فإن القطعة الثانية ، الوحيدة من نوعها ، وهى ذات الأهمية الكبرى بالنسبة لنا .

أما عن الحوليات التاريخية للمؤرخ المشرقى ابن الأثير (نشرة طورنبرج، ١٨٦٢-١٨٧٦)، فهى مصدر جدير بالثقة لعدد من النقاط من التاريخ الموحدى، ويبدأ المؤلف عمله المسمى بالكامل فى سنة ١١٩٧م/ ٥٩٤هـ على عهد الثالث من الحكام المؤمنين ، فى الوقت الذى كان انتصار الأرك (الأركوس) الشهيد يدّوى فى كل عالم الإسلام ، وحيث كانت ذكريات عبدالمؤمن وابن تومرت باقية لم تنس بعد. ولا يمكن اتهام عمل ابن الأثير فى هذا المقام إلا بأنه كان يكتب فى الموصل بالعراق بعيداً عن مراكش حيث كانت تنسج خيوط التاريخ الموحدى ، فى المغرب الأقصى. وعلى العكس من ذلك فإنه إذا لم يكن المؤلف قد ذهب بنفسه الى المغرب، فلا شك أنه التقى فى المشرق بكثير من المغاربة الذى شدتهم الى هناك رحلة الحج. وفوق ذلك فمن المحتمل إنه نظر عن هذا الطريق ، فى مؤرخات أصيلة، فربما يكون قد عرف تاريخ ابن صاحب الصلاة. هذا ، كما أن أصالة مصادره ربما تأكدت عندما تقارن معلوماته بما فى الرسائل الرسمية من أخبار خاصة بخلفاء عبدالمؤمن ، أو بتعيين أبنائه حكاما للولايات.

وفيما يتعلق بالمنصور ليس لدينا معلومات إلا عن معركة الأرك. وعن هذا الموضوع يظهر المؤرخ راغباً فى اعطاء معلومات دقيقة ، رغم ما يحيط بأصالتها من شك كثير أو قليل.

ومعظم هذه الروايات يقدمها النويرى (المتوفى ١٣٣٢م/ ٧٣٣هـ) فى دائرة معارفه المسماة "نهاية الأرب فى فنون العرب" .

ورغم وقته المتأخر (آخر القرن الـ١٤م/ ٨هـ) فإن تاريخ ابن خلدون الضخم، المعروف بالعبر (نشرة القاهرة ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧م) ، مهم بالنسبة للعهد الموحدى. ونحن نترك جانبا مركز المؤلف الاجتماعى ، من حيث كونه رجل دولة ، عالما بالسياسة، وصاحب عبقرية وذكاء مرموق . واستقلالية فى الرأى ، ومنهج علمى (فى النقد ، والتحليل، والإختبار الدقيق للمصادر):

فسابقونا تحدثوا عن كل ذلك . وفيما يتعلق بتاريخ الموحدين الذى يهمنا ، نكتفى ببيان أهميته.

إذا أخذنا بعين الإعتبار أن المؤلف مغربى لم يفكر أولاً إلاّ فى دراسة تاريخ بلاده، فيمكن أن نقيّم بشكل أفضل تاريخ الجزء الخاص بالبربر بالمقارنة مع الأقسام التى خصصها للتاريخ العالمى.

وأهم ما يميز تاريخ المغرب لابن خلدون هو أنه يعتبر القبيلة – عربية أو بربرية – بمثابة الوحدة السياسية بالإمتياز. وهكذا ، فإن تاريخ الإمبراطوريات العظمى التى قامت فى أفريقيا الشمالية ، يعتبر حقيقة تاريخ اتحادات لقبائل مختلفة ، وفى داخله تتمتع كل قبيلة بحياتها السياسية الخاصة ، ولكن تاريخ الأسرة الحاكِمة – بمعنى القبيلة الحاكمة – يكون فى مقدمة مسرح الأحداث . وهكذا يتكلم ابن خلدون بتفصيل فى أكثر من موضع عن الأمبراطورية الموحدية ، وذلك عندما يستعرض تاريخ قبائل المصامدة أو تاريخ حلفائها ، من : هرغة ، وكومية ، وبنو الرند . وصنهاجة الطبقة الثالثة (الجيل) ، وبنو جامع . وهو يعرض التاريخ الموحدى أيضا عندما يدرس تاريخ القبائل العربية التى قامت فيه بدورها ، مثل : بنى هلال وبنى سليم بتفريعاتهم المختلفة . ويعرض ابن خلدون تاريخ كل جماعة عرقية ، ويتبع أثرها عبر القرون منذ البدايات الأولى ، مبينا دور كل منها فى البلاد التى نزلتها ، وتحت كل نظم الحكم التى عرفتها.

وفى النهاية يخصص المؤلف فصولاً خاصة لتاريخ الدولة الموحدية ، بمعنى من بداية الأسرة الحاكمة الى ابن تومرت ، والى خلفائه وإلى الأحداث الرئيسية التى دارت على عهود مختلف الحكام . والأهمية الكبرى لعمل ابن خلدون تتمثل فى أنهُ يقتبس معلوماته من كتب تاريخية موثقة ، مثل : ابن صاحب الصلاة وابن القطان.

معاجم السّير والطبقات:

أول ما نذكر منها كتاب ابن خلكان المعنون بـ" وفيات الأعيان (نشر القاهرة، ١٣١٠هـ/ ١٨٩٢م) الذى يعدد بعض الشخصيات الموحدية الكبرى ، مثل : ابن تومرت ، وعبدالمؤمن ، ويوسف ويعقوب ، وأبى بكر بن زهر، وغيرهم ، وابن خلكان الذى يؤلف سيره فى القرن الثالث عشر / ٧هـ ، حوالى نهاية الدولة الموحدية (٦٥٤-٦٧٢هـ/ ١٢٥٦ - ١٢٧٤م) يعطينا حشدا من المعلومات القيمة التى تؤكد أصالتها . وسيرة ابن تومرت من بينها تعتبر كاملة تقريباً.

وكذلك الأمر بالنسبة لسير عبدالمؤمن ، ويوسف ، ويعقوب . فالمؤلف يصف الملامح الشخصية وسيرة كل منهم قبل وصوله الى عرش الخلافة. وإلى جانب عدد من المقتبسات من ابن الأثير ومن عبدالواحد المراكشى نجد بعض التدقيقات الأصيلة . فبمناسبة وقعة الأرك ، يقدم بعض ما سجله من يسمى بـ تاج الدين عبدالله بن حماوية الذى زار مراكش وألف تاريخاً عن دولة الموحدين . وهنا يقدم لنا معلومات أكيدة . ومن جهة أخرى يعيد الرسالة الموهومة المنسوبة الى ألفونسو والموجهة إلى يعقوب ، ولكنه يكتشف رسالة أخرى مثيلة موجهة إلى يوسف بن تاشفين ، وهو عندما يقع فى المأزق لا يجد مخرجاً إلا فى مقولة "والله أعلم" .

وابن خلكان عندما يعرض لنهاية يعقوب التاريخية يتحفه بنهاية أخرى صوفية: فيعقوب يزهد فى عرض الدنيا ويقوم متخفياً برحلة الى المشرق حيث مات مجهولا . وسنجد أصداء هذه النهاية الصوفية عند المتأخرين من الكتاب ، من ابن الخطيب إلى المقرى والزركشى والسلاوى .

وإلى نفس طبقة الوفيات ترجع مجموعة من الكتب وإن كانت ذات طبيعة أكثر أدبية ولما كان مؤلفوها من الأدباء والشعراء فإنهم اهتموا بصفة خاصة بسير العلماء والأدباء والشعراء ، وبذلك ظهر اهتمامهم أكثر بالنشاطات

الأدبية والعلمية . ومع ذلك فهذه المؤلفات تذكر كل الشخصيات الكبيرة تقريباً منذ القرن الـ١١ إلى الـ١٤ / ٥-٨هـ وهى بالتالى ذات أهمية بالنسبة للتاريخ السياسى.

وأول ما نذكر منها كتاب ابن الأبار (ت١٢٦٠م/ ٦٥٨هـ) المعنون بـ "التكملة لكتاب الصلة" (مدريد ، ١٨٨٧) ، وكتاب أبى الحسن على بن محمد بن على الرُعَيْنى (ت٦٦٦هـ/ ١٢٦٨م)، مخطوط الأسكوريال العربى رقم ١٧٢٩) والمسمى بالفهرسة أى قائمة أساتذته . وهذا المؤلف الأخير مهم بالنسبة للتاريخ الأدبى والحركة الفكرية. فالكاتب الذى يحرر فى سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م يقدم لنا سير أساتذته ، وهم بعامة من قادة الحركة العلمية والعقلية فى العصر الموحدى ، فهو يحدد لنا تخصصاتهم ، والحركات الفكرية التى اتبعوها ، والوظائف التى كانوا يشغلونها. وهو يذكر بالتوازى مع ذلك المؤلفات العلمية والأدبية والدينية والمدنية الأكثر شهرة فى ذلك العصر.

وبعد ذلك ثانى الجزآن من قائمة محمد بن محمد بن عبدالملك الأوسى المراكشى الذى عاش فى القرن الـ٨هـ / ١٤م، وهما مخطوطتان أحداهما محفوظة فى مكتبة الأسكوريال (رقم ١٦٨٢) ، والأخرى بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٢١٥٦). ويقدم لنا المؤلف مختصرات تراجم متعلقة بالمثقفين والمفكرين من القرون الـ٦ ، والـ٧، والـ٨هـ/ ١٢ ، ١٣ ، ١٤م.

ومن بين السير التى يحويها مخطوط الأسكوريال نعدد سير : سعد السعود الأموى الظاهرى (٥١٥ - ٥٨٨هـ / ١١١٩ - ١١٩٢م)، وأبى القاسم سليمان بن أحمد بن سليمان الأنصارى ، المعروف بابن الطيلسان (من الزهاد ٥٤٣ - ٦٠٨هـ / ١١٤٨ - ١٢١١م) وسيرة أبى الحسن سهل بن محمد بن سهل بن أحمُد بن ملك الأزدى ، تلميذ ابن رشد (٥٥٩-٦٣٩هـ/ ١١٦٣ - ١٢٤١م) ، وأبى مدين شعيب بن الحسين الأنصارى ، وأبى زكريا المغيلى ، الزاهدين الشهيدين . . .الخ.

ومن بين السير الموجودة في مخطوط باريس ، نعدد سيرة أبي الوليد بن رشد ، التي تحوى تفصيلات كثيرة ، وبخاصة ما يتعلق منها بالسخط على المفكر الكبير ، ولكن بداية تلك السيرة مفتقدة.

ونذكر أيضا كتاب ابن سعيد (ت٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م)، وعنوانه "كتاب المغرب في حلى المغرب" (مخطوط دار الكتب بالقاهرة ، رقم ١٠٣)، وهو نوع من قواميس السير ، الذى يهتم قبل كل شيء بالشعر .

فالمؤلف يهتم بنشاط أشخاصه في ميدان الشعر ، وهو يقدم تحف من أشعار المشاهير ممن لهم باع طويل في مجال القريض ، كما لا ينسى إعطاء بعض التفصيلات عن كل واحد منهم .

وأخيراً نذكر كتاب ابن الخطيب المعروف بالإحاطة في أخبار غرناطة (نشرة القاهرة، ١٣١٩هـ) ، والذى يعالج اللامعين من رجال غرناطة ، وهو يقدم عن هؤلاء الأشخاص سيراً تفصيلية ، وبين أنسابهم ، وشبابهم ، ونشاطهم السياسى والأدبى. وفيما يتصل بتاريخ الموحدين يقتبس المؤلف معلوماته من ابن عذارى (المجهول) وابن سعيد.

وإلى هذا الصنف من الكتب نلحق كتاب "نفح الطيب" الذى ألفه المقرى (نشر القاهرة ، ١٢٧٩هـ) ، رغم أنه من نوع مختلف . فهذا الكتاب متميز من غير شك كمصدر للتاريخ السياسى ، والإجتماعى ، والأدبى لبلاد الأندلس منذ الفتح العربى الى نهاية حرب الإسترداد (الريكونكيستا)الأسبانيَة . ورغم وقته المتأخر (القرن السابع عشر) ، وأنه للأمر العجيب قد ألف في المشرق ، فإنه يحوى حشدا من المعلومات المجموعة في مراكش بمعرفة المؤلف المغربى هو الآخر.

والتأليف يعتبر من أعمال التجميع التى تحوى كمية كبيرة من المعلومات التاريخية والأدبية ، التى عادة ما تجمع عشوائيا ، وهى ذات قيمة غير متكافئة

، إذ هي مستقاة من عديد من المؤلفين ، وموصولة بعضها مع بعض بحيث لا ينسى أي منها . وفيما يتعلق بالتاريخ الموحدى ، من : ابن تومرت وعبدالمؤمن ويوسف ويعقوب ، لا يقدم المؤلف معلومات أصيلة ، فهو يغترف معلوماته عاده من ابن خلكان وابن الأثير ، وعلى العكس من ذلك فإن القسم من التاريخ الأدبى الخاص بالعصر مهم ، من حيث أخذ معلوماته أحيانا من كتب لم تصل الينا ، وهكذا فإن كتاب النفح يقدم الينا " فى شكل قاموس للسير ، وخلال تراجم العلماء والأدباء ، والشعراء والزهاد يمكن لنا أن نجمع معلومات ذات طابع سياسى .

المؤلفات ذات الطابع الجغرافى :

ألف كتاب البكرى من غير شك حوالى منتصف القرن الحادى عشر / ٥هـ، وكتاب الأدريسى حوالى منتصف القرن الثانى عشر / ٦هـ ، وهما يظلان دون شك من مصادر المعلومات الأصيلة لكل بلاد الشمال الأفريقى فى العصر الوسيط .

والتجميع الجغرافى التاريخى المعروف بالإستبصار فى عجائب الأمصار (ط . ڤينا ١٨٥٢م ، وط جامعة الأسكندرية ١٩٥٨م) ، وهو مجهول المؤلف ، إذ ألفه مغربى من القرن الثانى عشر / ٦هـ، يعتبر مهما لدراسة أوائل الموحدين ، ومن بين أجزائه الثلاثة التى يعالج فيها الأماكن المقدسة بالحجاز ، ومصر ، وبلاد المغرب ، فإن القسم الأخير هو الذى يهمنا ، وهو الذى نشر معظمه بمعرفة فون كريمر . ثم ترجم كله بمعرفة ا.فانيان . ورغم إنه يقتبس جزءاً كبيرا من البكرى ، فإن المؤلف المعاصر للمنصور يقدم معلومات عن : مكناسة الزيتون ،وفاس ، ومراكش التى تبين معرفة عميقة بتلك النواحى ، وفوق ذلك ، ففيما يتعلق بالصراع مع بنى غانية يقدم قطعة من رسالة رسمية صادرة من ديوان إنشاء يعقوب

وهكذا يظهر أن أهمية هذا الكتاب فيما يتعلق بالتاريخ السياسى للموحدين تأتى من كون المؤلف صاحب مركز اجتماعى متميز (فربما كان كاتباً فى ديوان الانشاء على عهد يعقوب).

ونذكر أيضا تجميع الحميرى المؤلف فى القرن الرابع عشر / ٨هـ والذى يحوى معلومات خاصة بالأندلس (نشر أ.ليفى - بروفنسال) (القاهرة ١٩٣٧ - ليدن ١٩٣٨) فرغم أنه متأخر ، فإنه يحوي قطعة كبيرة من وصف الأندلس للبكرى،وهى مفقودة الآن ، وكذلك من وصف الأدريسى ، فللحميرى الفضل فى إظهار كل منهما . وتجميع الحميرى يحوى هنا وهناك معلومات أخرى مقتبسة من أعمال لم تصل الينا.

فبمناسبة الكلام عن كل مدينة يسجل أهم الأحداث التى دارت بها . وكما نعرف فلما كانت معظم مدن الأندلس الرئيسية قد سقطت فى أيدى المسيحيين عقب هزيمة الناصر الفاصلة سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م ، لم يكن من الغريب أن كان السقوط المأساوى لتلك المدن ، مختلطاً بأواخر الإنتصارات ، هو أهم أحداث العصر الموحدى . فعندما يعالج المؤلف مثلا قلعة الأرك ، يتكلم عن انتصار المنصور فى هذا الموقع - ويلفت هذا الأمر انتباهه بشدة فيعالج بالتفصيل الأسباب والنتائج.

ومثل هذا يقال عن شلب وشنترين والعقاب وقلعة رباح ، وكثير غيرها من المدن التى تحكى عنها الروايات على نفس النسق . فهناك السقوط وآخر الإنتصارات اقتباسا من مؤلفات لم تصل إلينا.

وإلى هذه الأعمال يمكن أن نضيف قطعة لابن سعيد ترجمها أ.فانيان إلى الفرنسية تحت عنوان " منتخبات لم تنشر خاصة بالمغرب" (الجزائر ، ١٩٢٤) ، وكتاب "مسالك الأبصار" الذى ألف في القرن الرابع عشر / ٨هـ فى المشرق بمعرفة العمرى . فهذا لعمل يعادل القطعة الثانية من الوثائق التى لم تنشر

(أنظر البيدق)، والمخصصة لتنظيم الجماعة الموحدية الأولى. ولما كان المؤلف يقتبس جزءا كبيراً من معلوماته من ابن سعيد، فهومأخوذ بذكريات الموحدين . وبالنسبة له فالمرينيون هم خلفاء الموحدين كما أن الحفصيين يعتبرون ورثتهم الشرعيون . وبناء على ذلك فهو يوضح أن شرائع الموحدين كانت سائدة فى المغرب فى القرن الرابع عشر٨/هـ.

ومعظم المعلومات المتعلقة بتنظيم الجماعة الموحدية يعيد تقديمها القلقشندى فى دائرة معارفه المسماه "صبح الأعشى" .

ومن أعمال الدرجة الثانية نذكر أولاً كتاب "الحلل الموشية" (ط.الرباط،١٩٢٦) . وهنا يكرس المؤلف عمله لمدينة مراكش تماماً كما فعل صاحب روض القرطاس فى تخصيص عمله لمدينة فاس . فهو يبدأ ببناء مراكش، ويقص خبر بداية المرابطين ثم يعالج تاريخ الموحدين وبعده تاريخ المرينيين وهذا الأخير لا يزيد على بعض صفحات يمكن القول إنه لا قيمة لها .

وفيما يتعلق بتاريخ الموحدين ، يلاحظ أن المؤلف يمر سريعاً على الأحداث التالية لوفاة عبدالمؤمن لكى يتفادى ، كما يقول ، إطالة مملة للرواية . وهو يذكر المؤلفين الذين نقل عنهم من القطع ، مثل : ابن جبير ، ابن رشيق ، وابن القطان وابن صاحب الصلاة ، وأبو على الأشيرى ، وابن اليسع ثم البيدق ، وهى المصادر المعروفة الجديرة بالثقة ، الأمر الذى يجعل لهذا المؤلف ذى الدرجة الثانية أهمية كبرى.

وهذا المرجع له أهمية أخرى من حيث أنه متعلق بصفة خاصة بالفترة الموحدية التى ندرسها . ومن هذا الوجه فمؤلفات الدرجة الثانية الأخرى لا ترقى الى مستواه من حيث انها تهتم مجملها بالعصور التاريخية التى يعيشها مؤلفوها.

ونذكر ضمن تلك الأعمال ، مؤلفات ابن الخطيب ، وخاصة "أعمال الأعلام" ، "ورقم الحلل" ، ولما كان المؤلف (ت ٧٧٦هـ/ ١٣٧٤م) من رجال السياسة والأدب ، مندمجاً في الأحداث المعاصرة فإن ذلك يرفع من قيمة أعماله من غير شك.

ففي كتاب أعمال الأعلام ربما أراد ابن الخطيب أن يؤلف عملاً تاريخياً شاملاً لكل عالم الإسلام ، معادلاً لذلك العمل الذى قام به ابن خلدون. والقسم الذى يهمنا منه هو الخاص بالأندلس ، والذى نشره أ.ليفي- بروفنسال(الرباط، ١٩٣٤). وفي هذا الكتاب يستعرض المؤلف كل تاريخ أسبانيا الإسلامية ، وخاصة ملوك الطوائف ، ويلاحظ هنا أن تاريخ الأمويين قصير نسبياً ، وأنه غير متناسق الأجزاء ، وأن المنصور ابن أبى عامر يحظى بالإهتمام أكثرمن غيره.

أما عن تاريخ الموحدين ، فهو لا يحظى بالمكانة التى ينبغى أن تكون له . فالمؤلف يعرض بالإشارة السريعة إليه في عدة صفحات فقط ، تاريخاً فيه الكثير من الفراغات.

والكتاب الآخر : "رقم الحلل" (ط.تونس، ١٣١٦هـ) ، مؤلف بالشعر الذى يعرف بالرجز، ويعالج تاريخ العالم العربى فى المشرق و المغرب ، وهو من أعمال الدرجة الثانية . والشعر الذى يصحبه شرحاً بالنثر المسجوع ، يحوى تاريخ العرب منذ عهد الرسول حتى عصر بنى نصر الغرناطيين.

وآخر ما يأتى من المصنفات هى كتب الرحلة ، ويوجد منها اثنتان تلفتان النظر ، وهما : رحلة ابن جبير (ليدن، ١٩٠٧) وهى أولى ذلك النوع من الأدب الجغرافى ، وهى عبارة عن رحلة حج تمت سنة ٥٧٨هـ/ ١١٧٩م ثم رحلة التجانى (التى ترجمها روسّو الى الفرنسية ، باريس ١٨٥٣م) والتى تروى رحلة ببلاد افريقية سنة ٧-٧٠٦هـ/ ١٣٠٦م. والرحلة الأولى ذات قيمة

ثمينة بالنسبة لعلاقات الموحدين – أو المغاربة بشكل عام – مع المشرق الإسلامى ومصر وحتى مع الممالك المسيحية فى البحر المتوسط .

ورحلة التجانى التى تمت فى مطلع القرن الـ١٤م / ٨هـ فى أفريقية ، مهمة جداً بالنسبة لتاريخ بنى غانية فى تلك البلاد ، وأن المعلومات النادرة التى يعطيها من ذلك الموضوع يعيد تقديمها ابن خلدون .

وفى نهاية عرضنا للمصادر ينبغى الإحاطة بإننا رأينا ألا نكثر من ذكر الأعمال من الدرجة الثانية، وذلك لعدم الجدوى هنا ، وأن أتى ذكرها عرضاً فى إشارات بالدراسة أو بالهوامش، حيث أمكن الإستفادة منها فى بعض المواضع . ولا بأس إذن من ذكر بعضها لأهميته الخاصة ، مثل : مؤلف السلاوى (الإستقصا) ، وكتاب ابن أبى دينار (المؤنس) ثم تاريخ الزركشى (تاريخ الدولتين) .

وختاماً نشير الى غياب المؤرخات المسيحية فى العصر الوسيط مما يعالج الموحدين . وأهم مؤرختين أصيلتين لا تعرض للموضوع الذى نعالجه إلا بشكل سطحى . فالمؤرخة العامة الأولى لأسبانيا (Brimma Cmonica General de Espan) تنسب إلى الفونس العاشر (ط .مدريد، ١٩٠٦) . وهى لا تشير إلا لماما لمعركة الأرك :(Alarcos) والثانية : أسبانيا المقدسة (Espana Sagrade) (الجزء ٣٥، ط .مدريد ١٧٨٦) وهى تهتم بشكل مختصر بتاريخ الكنيسة ولا تقدم إلا إشارات مبتسرة إلى الموحدين فى الأندلس فى ذلك العصر.

القسم الأول
التاريخ السياسى

ننسى أن اللهجة العربية لم تكن سائدة فى كل أرجاء المملكة : ففى معظم القرن السادس الهجرى / ١٢م كانت توجد جماعات بربرية وخاصة فى الأماكن المرتفعة من المغرب الأوسط والمغرب الأقصى ، مما لم يكن قد استعرب أبداً . هذه العناصر البربرية ، التى كونت قواعد المملكة ، احتفظت بشخصيتها المميزة طوال العصر الوسيط ، وفى ضوء هذه الإعتبارات العرقية واللغوية ، وبالتالى الإجتماعية يمكن أن نحدد فى أراضى الدولة الموحدية ثلاثة أقسام متميزة ، هى : أفريقية ، والمغرب بتسميته الخاصة ، والأندلس.

المغرب:

على عهد الموحدين كان على المغرب البربرى أن يقوم بدور تاريخى من الطراز الأول . فلما كانت الحركة الموحدية قد قامت بمعونة بربر جبال الأطلس (درن)، فقد قام الغرب الإسلامى لأول مرة بلفظ هيمنة المشرق ووصايته وبشكل نهائى(١). وكان من الطبيعى أذن أن تجعل الدولة الجديدة من هذا المغرب وعاصمته مراكش مركزاً لكل نشاطه. فلقد اختيرت مراكش كعاصمة لموقعها المتميز استراتيجيا ، على حدود كل من صحراء لمتونه وجبال مصمودة. وكان من الطبيعى التركيز على المغرب الأقصى ، مهد الأمبراطورية ، التى كان يرسّم حدودها الشمالية كل من المحيط الأطلنطى والبحر المتوسط . ومن الصعب ترسيم حدود دقيقة إلى حّد ما من جهة الشرق بين المغرب الأقصى والمغرب الأوسط الذى يعتبر امتدادا نحو الشرق لسابقه . ولكنه ، وبشكل عام يمكن اعتبار اقليم مدينة تلمسان ، مدينة المغرب الأوسط ، هو الحدّ الفاصل بين البلدين (٢).

وهذه الحدود تسير بشكل أو بآخر على طول وادى ملوية وجبال تازا . وعلى نفس النسق تحد جبال درن (أطلس الصحراوية) بشكل عام المغرب

---

(١) انظر ج .مارسيه ، بلاد البربر الإسلامية والمشرق (بالفرنسية) ، ص ٢٥٣ وما بعدها.

هـ١ - عبدالواحد ، المعجب ص ٢٦١ .

(٢) هـ٢ - ابو الفداء الجغرافيا ، النص ص ١٢٢ ، والترجمة ، ج٢ص١٦٨ . انظر الإستبصار ، ص٩٤ .

الأقصا من جهة الجنوب.

وتكوّن قبائل مصمودة – سكان جبال درن – القسم الأعظم من السكان(١). وفي مدينة مراكش كانت تسكن مصمودة أيلا (٢). (دون حسبان قبائل كوميه – الزناتية – وهي قبائل أنصار الأسرة المؤمنية، وأصلهم من بلاد تلمسان). وحول المدينة تعدد قبائل نفيس ودكّالة،وهم مستقرون، أهل زراعة(٣)وكذلك الأمر بالنسبة لثلاث قبائل من مصمودة، غير موحدية، بمعنى حليفة، وهي: هزمير، وهيلانه ثم هزرجة (٤). وفي الشرق والغرب من أغمات تعيش قبائل وريكة المصمودية (٥) وفي السوس الأقصى جنوب وادى سوس كانت جزولة ولمطة(٦)والإقليم الساحلي الواقع بين وادى تنسيفت ، نهر مراكش، ووادى أم الربيع كانت تسكنه قبيلتان، هما: هسكورة وصنهاجة (٧). والى جانب دكالة التي كونت معظم السكان هنا، كانت توجد برغواطة وهي كذلك من قبائل مصمودة التى تسكن شاطىء المحيط، وتمتد حتى وادى بورجرج ومدينة سلا. والبرغواطيون يزدادون كثافة بخاصة في بلاد تامسنا (٨) ووادى بورجرج يحدد بالتقريب الحد الشمالي لبلاد مصمودة(٩).

---

(١) هـ٣– من الصعب تحديد مواضع القبائل المصمودية فى بلاد الأطلس. فالكتاب كثيرا ما يقدمون عنها معلومات عامة، كما لم يهتموا أبداً بتعيين مواقع كل منها، وبناء على ذلك، واعتمادا علي المعلومات التى يوثق فى صحتها بشكل او باخر، فإن تحديد مساكن القبائل المختلفة ليس إلا تقريبياً.

(٢) هـ٤– الإدريسى، ص ٧٠.

(٣) هـ٥– الإستبصار، ص ٢٠٩ والإدريسى، ص٧٠. وهنا يعدد المؤلف ايضاً بنى يدفر، ورجراجة، وزودة، وهسكورة ثم هزرجة. ونحن نظن أنه يعدد جميع القبائل التى تسكن المنطقة بشكل عام. وانظر عبدالواحد، المعجب، ص ٢٤٨.

(٤) هـ١ – عبدالواحد، المعجب، ص ٢٤٨.

(٥) الإدريسى،ص٧٠.

(٦) الإستبصار، ص ٢١٢.

(٧) عبدالواحد، المعجب، ص ٢٤٦.

(٨) الإستبصار، ص ١٩٧، وانظر الإدريسى، ص ٧٠، والبكرى، ص ١٣٤، وابن خلدون، العبر، ج٦ص ١٠١، والترجمة ج٢ص ١٢٥.

(٩) عبدالواحد، المعجب، ص ٢٤٦. ولكن ابن خلدون يقول إن غمارة من قبائل المصامدة وهو يعتمد على حقيقة ان بعض القبائل التى تحمل اسم مصمودة تسكن الإقليم الواقع ما بين كل من طنجة وسبتة. وهو يقولُ ايضا ان قصر المجاز من حيث الركوب الى طريفة يسمى قصر مصمودة.

ونحو الشمال تكوّن قبائل أخرى جمهرة السكان ففى منطقة مكناسة توجد قبائل تحمل نفس الإسم (مكناسة) ، ومن بينها تعدد قبائل بسيل ، ومغيلة وبنو مسعود (١).

ونحو الشمال أيضا توجد بلاد قبائل غمارة حيث تمتد جبال الريف على طول ساحل البحر المتوسط من غسّاسة قرب مصب وادى ملوية(٢).الى طنجة ، وذلك على امتداد مسيرة خمسة أيام . وعرضاً تمتد على مسافة خمسة أيام أيضاً. وهى تحوى مدن غسّاسة ، وطنجة ، ونكّور ، وبادس ، وتيجيساس ، وتيطّوان ، وسبته ثم القصر(٣).

وإذا كانت القبائل البربرية ، وبخاصة مصمودة ، تغطى كل بلاد المغرب الأقصى فى العصر الموحدى ، فإن العنصر العربى لم يكن غائبا عن البلاد ، فابتداء من عهد عبدالمؤمن ، كان العبور العربى ما بين حين وآخر لا يأتى بالمحاربين منهم الى المغرب فقط. بل وبالعائلات العربية بالنساء والأطفال ، ومع مرور الوقت كانت أعداد العرب تزداد بفضل عمليات التهجير المتجددة . فعلى عهد المنصور وُجد العرب وبخاصة فى سهول تاسنا وتادلا وكذلك فى دكّالة (٤).أما عن المغرب الأوسط الذى ليس له دور فى الأحداث ، فكان موطنا لقبائل مغراوة وبنويفرن وهى القبائل التى كانت تعيش مع مديونة ، ومغيلة ، وكومية ومطغرة وقبائل مطماطة ، ونحو الشرق كانت تمتد بلاد صنهاجة التى حوت كلا من الجزائر ومتيجة وميديا والأقاليم المتاخمة حتى بجاية(٥) .

---

(١) الإدريسى ، ص ٧٨ ، الإستبصار ؟ ص ١٨٦-١٨٧ .

(٢) انظر ابن خلدون ، العبر . والترجمة ، ج١ ص٩٦ والهامش ، حيث يفترض دسلان أن الأمر هنا يتعلق ببلدة جراوة الصغيرة.

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص١٠١ ، والترجمة ج ٢ص,١٣٤.

(٤) انظر فيما بعد ، ص٨٨ وهامش٢٨ .

(٥) اما عن قبائل كومية ومنها قبيلة عبدالمؤمن فكان اصلاً من بلاد تلمسان . انظر فيما بعد ص١٢٤ والهوامش.

بـلاد أفريقيـة :

وعلى عكس المغرب كان لإفريقية سماتها المميزة . . . .

فبعد فتحها على البيزنطيين كانت قد أسلمت تماما فى منتصف القرن الثامن الميلادى (٢هـ) ، ثم أنها عرفت السيادة العباسية والفاطمية اعتباراً من بداية القرن التاسع وحتى منتصف القرن الحادى عشر (أواخر ٣هـ – منتصف ٥هـ) ، ورغم ذلك فهى لم تحرم من التنعم بحكم ذاتى يكاد يكون كاملا ، وعندما خرجت من وصاية المشرق (١) ،حوالى منتصف القرن الخامس الهجرى ، تعرضت بمثابة عملية للأخذ بالثأر ، إلى الغارة الهلالية الرهيبة ، وما أتت به من تغيير عرقى هو الأكبر منذ الفتح العربى ، الأمر الذى كانت له نتائج بعيدة المدى ، من : الإضطراب السياسى والإقتصادى والإجتماعى ، هذه الأوضاع أدت الى تميز البلاد الإفريقية بنوع من الخصوصية الواضحة بالنسبة لبلاد المغرب ، لقد كان تعريب بلاد افريقية الواضح هو النتيجة الطبيعية لموقعها الجغرافى ، على الطريق الطويل المؤدي عبر السهوب الليبية إلى مصر وأسيا الشرقية .

بعد تأسيس المملكة الصقلية سنة ١١٣٩ م (٥٣٤هـ) ، بمعرفة روجر الأول،بدأت أفريقية تعانى من تدخلاته ، فعلى عهده من ١١٣٠الى ١١٥٩م (٥٢٤–٥٥٤هـ)، نجح فى الغلبة على عدد من الموانى المتتالية على طول الساحل الأفريقى من بجاية إلى طرابلس . وكان على عبدالمؤمن أن يستخلص أفريقية من تهديد الخطر النورمندى، وأن يضمها الى الدولة الموحدية الجديدة بعد أن قضى على بقايا الأسرتين الحمادية والزيرية ، ومع ذلك فرغم التخلص من الخطر الصقلى ، بقيت أفريقية على طول العهد الموحدى مهددة من قبل

---

(١) انظر چورچ مارسيه ،بلاد المغرب (البربر) والمشرق الإسلامى،(بالفرنسية)، ص ١٩٣ وما بعدها.

خطورة البدو المستمرة.

فمن ولاية طرابلس وحتى تخوم المغرب الأقصى كانت قبائل العرب من سليم وهلال وفروعها يظهرون بمظهر أصحاب السيادة ، وبشكل عام كان الأوائل من سليم يحتلون الجزء الشرقي الذى يعادل كلا من برقة وطرابلس ، بينما كان الهلالية يسيطرون على الجزء الغربي الذى يعادل افريقيا وتخومها في الغرب(١) ، فقد عبرت زغبة ، وهى فخذ من هلال ، وهم من الحلفاء المخلصين الموحدين(٢) ، الى جنوب المغرب الأوسط ، فى منطقة الزاب وجبل راشد (٣) . ولما كانت قبائل سليم وهلال دائماً فى حركة مستمرة ، عبر الصحراء من طرف الى الآخر ، بحثا عن المراعى أو المغامرات، وكانوا بالتالى أعداء لكل نظام ، حريصين تماماً على استقلالهم الذاتى ، وهكذا كان عرب سليم يترددون على بلاد الجريد فى السنوات الجدبة بحثا عن التمر (٤).أما عن سكان الجريد فكانوا مثل سكان قسطيلية من أصول مسيحية (روم) قد أسلموا من بداية الفتح العربى (٥)،مثل : بنى بهلول (٦) ، أما عن القسم الأكبر من سكان الحضر فى قابس، والمهدية، وتونس ، وقفصة ، وبجاية...الخ ، فكانوا من صنهاجة وزناتة ، البربر المستعربين ، الذى ضم عبدالمؤمن ملكياتهم الصغيرة الى دولته ، وهكذا كان من بينهم عناصر من الأعداء الطبيعيين للموحدين وأخيرا نذكر بربر مطماطة الذين سكنوا البلاد التى أعطوها إسمهم، والتى تقع بين قابس وبين بلاد الجريد(٧).

---

(١) ابن خلدون ، العبر، ج٦ص ١٤-١٥ ، وانظر ج.مارسيه ، العرب فى بلاد البربر (الفرنسية)،ص١٥ وما بعدها.
(٢) ابن خلدون ، العبر،ج٦ص٢٠ ، ص٤٠ .
(٣) ابن خلدون العبر ، ج٦ص٢١ والترجمة ج١ص٤٩ .
(٤) (الإستبصار،ص١٥٠ .
(٥) الإستبصار ،ص١٥٥ .
(٦) الإستبصار،ص ١٥٧ .
(٧) الإستبصار ، ص ٣٧ .

أسبانيا الإسلامية:

لما كانت الأندلس مسرحاً دائماً للصراعات بين المسلمين والنصارى ، اعتبرها الموحدون بمثابة الثغر الشمالي بالنسبة لدولتهم ، وهكذا كان ضم بلاد المسلمين فى أسبانيا الى دولة المرابطين ثم دولة الموحدين أمراً طبيعياً . والحقيقة أن الوحدة التاريخية كانت نتيجة طبيعية للوحدة الجغرافية بين شبه جزيرة ايبيريا والبلاد المراكشية ، وبفضل الوحدة الجغرافية هذه أمكن للبربر الذين صحبهم العرب أن يستقروا فى شبه الجزيرة بأعداد أكثر من هؤلاء الأخيرين ، وهكذا فبينما استقر الإسكان العربى منذ القرن التاسع (٣هـ) فلم يستقبل الإمدادات متفرقة وبأعداد قليلة ، كانت الهجرة البربريةمستمرة بشكل عملى حتى العصر الموحدى(١) .

وأخيراً عندما أنهك العرب بفضل الحياة الناعمة ، وعجزوا عن الدفاع عن الأندلس ضد الممالك المسيحية الأسبانية الشابة ، كان عليهم أن يتركوا مكانهم لبربر المغرب ، وكان سقوط طليطلة (١٠٨٥م/ ٤٧٨هـ) بين يدى ملك قشتاله هو الذى أدى الى خضوع الأندلس نهائياً لحكم الأفارقة (من المغربة). واضطرت كل من قشتالة ، والبرتغال ، وأراجون وكتالونيا الى تقليص نشاطاتها شيئاً فشيئاً أمام الدروس الصعبة التى تلقوها من الموحدين بعد المرابطين فى عدد من المرات. ومع ذلك فقد ظلت طليطلة دائماً بين يدى ملك قشتالة ، ولكى يزداد الأسى فإن يوسف والد المنصور الموحدى ، فقد حياته ثمنا لفشله فى حصار قلعة شنترين.

هكـــذا كـان الموقـف بشكل مبتـسر للدولة الموحـــدية حوالى سنة ١١٨٤ / ٥٨٠هـ فبلاد افريقية كانت خاضعة وتكون جزءاً من الدولة ، ولكنها

---

(١) أ.ليفى-بروفنـــال، أسبانيا الإسلامية فى القرن العاشر (بالفرنسية)،ص٢٣

كانت متميزة بخصوصيات مميزة ، كما أنها لم تكن قد هُدّنت تماما من حيث كانت دائما قاب قوسين أو أدنى من الثورة أو العبور الى معسكر الأعداء ، والأندلس كانت دائماً مصدراً لعدد من الصعوبات والمخاوف المستمرة للأمير ، بينما المغرب الذى كان أكبر استقراراً نسبياً ، فقد كان مستعدا لتلبية النداء للدفاع عن الإسلام الغربى ضد أعدائه .

أبو يوسف يعقوب المنصور

شباب يعقوب:

لا يقول المؤرخون المعاصرون شيئاً عن شباب أبى يوسف يعقوب ، فنحن نعرف فقط أنه كان أكبر أبناء ، أبى يعقوب يوسف (بن عبدالمؤمن) (١). وهو مولود حوالى سنة ٥٤٨هـ (٤-١١٥٣م) (٢) . فى حياة عبدالمؤمن ، وإذا نظرنا بعين الإعتبار إلى رواية البيدق (٣) ، بكون مولده فى قصر عبدالكريم قرب سبته ، من حيث يكون الجواز الى الأندلس ، ووالدته التى عرفت باسم "ساحرة" كانت "أم ولد" (٤) . أى مملوكة محررة بعد أن انجبت ولداً لسيدها ،

---

(١) عبدالواحد ،المعجب ،ص١٧٦

(٢) عبدالواحد ، المعجب ،ص ١٨٩ ، البيدق . ص١١٦ ،ابن عذارى ، المجهول ،ص٤٠ ،الزركشى ، ص١٠ ، القرطاس ، ١٤٢ . ويقول عبدالواحد انه كان فى الثانية والثلاثين (٣٢) من العمر عندما اعتلى العرش ، والبيدق لا يقول شيئاً آخر عندما يؤكد ان مولده كان فى سنة ٥٤٨هـ (٤-١١٥٣) ، وعلى العكس يقول ابن خلكان (ج٣ص١٧٠) انه ولد فى ربيع الأول ٥٥٤هـ (٢٦مارس ١١٥٩) ،ويحدد ابن عذارى مولده بدقة فى ٢٠من ذى الحجة ٥٥٤هـ (٥يناير١١٦٠) بشكل يجعل وفاته وعمره فقط ٤١ سنة ، وصاحب القرطاس يضع ولادته حوالى نفس التاريخ (٥٥٥هـ/ ١١٦٠م) .

(٣) البيدق ص١١٦ يقول انه فى سنة ٥٤٨هـ عين يوسف واليا لإشبيلية بمعرفة والده عبدالمؤمن وبعد ذلك يؤكد المؤلف ان يعقوب ولد فى قصر عبدالكريم ، وان اخاه عمر الرشيد ولد فى البحر عندما كان المركب يتجه الى قادش، ومن هنالك كان على يوسف ، وبمعيته نساءه واطفاله ، متابعة الطريق الى منصبه الجديد ، ويقول صاحب القرطاس (ص١٤٢) عكس ذلك انه ولد فى قصر جده عبدالمؤمن بمراكش

(٤) عبدالواحد (المعجب ، ص١٨٩) يقول أنها كانت أم ولد رومية مسيحية ، أما الآخرون من الكتاب (البيدق ،ص١١٦ ، القرطاس ، ص١٤٨) فيكتفون بالقول إنها كانت أمة ، ومع ذلك فإن اختلاف بشرة يعقوب مع بشرة والده الذى عرف بانه كان شديد البياض (انظر عبدالواحد ، المعجب ، والقرطاس ، ص١٣٤) يجعلنا نعترض أن والدته كانت أمة سوداء – وغير ذلك –فقد كان لدى الخليفة وكبار رجال الدولة فى حريمهم ==

والتى كان أهداها من يسمى بابن وزير الى يوسف (والد يعقوب)(١) أما عن أعمال يعقوب قبل الوصول الى الحكم فلا نعرف عنها الا أشياء قليلة جداً. فلقد تلقى مثل والده تعليماً متعمقاً فى الدين ، وخاصة فيما يتعلق بالحديث وكان له تذوق حاد للشعر ، هذا ، كما شغل منصب الوزير لدى والده لمدة ثلاث سنوات(٢) .وأثناء الجهاد فى أسبانيا عهد إليه بعدد من القيادات فى الصراع ضد النصارى(٣).

إعلان ولاية يعقوب:

كان حدثا طارئا، ذلك الذى رفع يعقوب مبكراً الى سدّة العرش فى الدولة الموحدية . فعندما جرح والده جرحا قاتلا أمام تحصينات مدينة شنترين في البرتغال ، وجه يعقوب الذى كان يرأس بعض قطاعات الجيش نحو اشبيليه وهو يخفى عن رجال الجيش وفاة والده الذى قضى نحبه أثناء الطريق (٤).

وفى قضية اشبيلية (٥) أخذ العاهل الجديد البيعة. هذا ، ويقول عبدالواحد

= نساء سوداوات . وهكذا كان أبو سعيد بن عبدالمؤمن، والى غرناطة ، من غير شك ابنا لأمة سوداء ، من حيث كان أسود البشرة جداً حتى أن وزيره ابن سعيد قارنه ذات يوم بعبيده السود المشترين من السوق بما لا يزيد على ٢٠ درهما (ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج١ص٩٦، المقرى ، ج٢ص١٠٨) . والمعروف أن عبدالمؤمن كان أبيض البشره (عبدالواحد ، المعجب ، ص١٤١، القرطاس ،ص١٣٣) وقارن ل. جوتيه (L.Doutte´) ، مراكش ، ص٢١١ ، ٢١٣ . حيث يحقق شخصية الأمير الذى كان يسمى بالسلطان الأسود ، والذى كان معاصرا للولى ابى العباس السبتى (١١٥٦–١٢١٥م/ ٥٥١–٦٠٢هـ) ، بأبى يوسف يعقوب المنصور.

(١) البيدق ،ص١١٦ ، القرطاس ، ص ١٤٢ (ابن وقرير بدلا من ابن وزير ، وانظر الترجمة الأسبانية بمعرفة ويثى (Huiei)،ص٢٢٢ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص١٨٩، ابن خلكان ، ج٣ص٣٧٥ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ص ١٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص٢٤٢ ، والترجمة ج٢ ص٢٠٤ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ص ١٨٨ ، ابن عذارى ، مجهول (Ananimo) ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، ابن خلكان ، ج٣ ص ٤٦٨ ، ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ٢٤٠ ، والترجمة ، ج٢ ص ٢٠٥ ، القرطاس ، ص ١٤٢

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص٤٠ ، الزركشى ،ص١٠حيث أخذ يعقوب البيعة فى المعسكر بعد وفاة والده مباشرة ، وعندما وصل الى إشبيلية تمت تلك البيعة بثانية أخرى (ربما كانت بيعة العامة)

المراكشى أنه كان مشاركاً فى الحكم (وليا للعهد) على عهد والده (١). وهذه السياسة التى افتتحها عبدالمؤمن كانت من جانبه دليل جرأة عبقرية ، فبفضلها أصبح حكم الدولة بالشراكة أمراً واقعاً ووراثياً فى نفس الوقت ، فلما لم يكن هناك تقسيم لأعلى مستوى الدولة ولا فيما يتعلق بالمخصصات الشخصية ، كان الأمر لا يحتاج عند وفاة أحد الأميرين إلى إختيار (انتخاب) جديد ، إذ كان استمرار الثانى فى الحكم يكفيه مجرد تجديد البيعة . وهكذا ابتكر عبدالمؤمن سابقة ظلت تقليداً مستمراً عند خلفائه . وهكذا وجد مبدأ اختيار الأمير العام ما يصححه فى ذلك التقليد الذى جعل الإختيار فى العائله المالكة ، وخاصة بين أبناء الأمير الحاكم ، ولكن هناك رسالة رسمية ، هى :الأولى من الرسائل الدورية المسجلة باسم يعقوب(٢) ، التى تفضل موضوع المشاركة فى العرش وكذلك تاريخ إعلان يعقوب أميراً للمؤمنين ، وفيما يتعلق بالنقطة الأولى يذكر الأمير من يراسلهم بأن والده كان قد قرر أن يجعل منه وليا للعهد فى الوقت المناسب ، وبناء على ذلك فإن وفاته المفاجئة أثناء الحملة ضد شنترين لم تكن إلا عائقا مؤقتا . وعن النقطة الثانية ، فإن التاريخ المحدد لإعلان الولاية فى تلك الرسالة تتفق مع تاريخ ابن عذارى(٣)،

(١) المعجب ، ص١٩٢ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ١٦٠ ، والدراسة ، ص ٥٦ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ،ص٤٠ ، بالقرطاس ، ص ١٤٢ ، والترجمة ، ص ٣٠٤ ، وقارن عبدالواحد ، المعجب ،ص١٨٣- حيث تحدد الرواية التاريخ متأخراً

(١) .وهو ١،٢ من جمادى سنة ٥٨٠ هـ (٢٧ يوليه١١٨٤م).

ففى اشبيلية ، بعد عودة جميع العساكر أخذ يعقوب بنفسه البيعة من شعبه (٢). والحقيقة أن الكبار وحدهم الذين حضروا ، وخاصة أقارب الأمير ، ورؤساء القبائل ، وكبار الموظفين ، والأعيان من ممثلى جماهير الشعب والحاضرين من العسكر فمن بين السادة كان أبو سعيد عبدالرحمن بن عمر ، ابن عم الأمير ، أكثر المسارعين الى البيعة ، وهذه البيعة هى التى عرفت "ببيعة الخاصة " أى الأشراف . بعد ذلك كان على حكام الولايات أن يقوموا بأخذ البيعة من كل رعاياهم من جديد ، دون استثناء(٣) .حيث يمكن أن يتضمن القسم اسم الخليفة الذى يحمله الأمير منذ ذلك الحين ، وهذه البيعة الأخيرة تعرف باسم "بيعة العامة" .

وعندما تمت البيعة أعلن يعقوب عن وفاة والده التى كانت مخفية حتى ذلك الوقت (٤) . هذه البيعة المزدوجة لخاصة الناس وعامتهم بالأندلس لم تكن نهائية ، وذلك أن بعض أفراد الأسرة المؤمنية رأى أن يعقوب غير أهل للولاية (٥)، وترددوا فى تقديم فروض الطاعة المفترضة عند تجدد الولاية ، الأمر الذى أدى إلى اتخاذ اللازم لإقامة حفل بيعة جديد فيما وراء العدوة ، فى

---

(١) بأكثر من شهرين فهو يضع وفاة أبى يعقوب يوسف فى ٧ من رجب سنة ٥٨٠ هـ (١٤ سبتمبر ١١٨٤ م) ، ولكن الرسالة صادرة من أشبيلية يوم ٧ جمادى الثانى ٥٨٠ (١٥ أغسطس ١١٨٤) . ومؤلف القرطاس يقترح ١٨ ربيع الثانى ٥٨٠ (٢٩ يونيه ١١٨٤) ، وهو تاريخ وفاة يوسف كتاريخ لإعلان ولاية يعقوب .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٠، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ١٦٣ ، والدراسة ، ص ٥٦ .

(٤) ابن عذارى، ، مجهول ، ص ٤٠ ص ١٤١ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٥) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ – حيث النص على انه كان من بين إخوته وأعمامه منافسين ضارين ممن اعتبروه غير أهل للولاية ، بسبب سلوكه المنحرف اثناء شبابه .

مدينة سلا ، حيث أخذ الأمير بيعة أولئك الذين كانوا مترددين حتى ذلك الحين ، ومن بينهم عمومته من أبناء عبدالمؤمن . هذا ، كما أخذ بيعة السيد أبى زكريا بن السيد أبى حفص ، الذى حضر من تلمسان مع مشايخ قبيلة زغبة (العربية) (١). ويمكن أن نفترض بعد ذلك إقامة احتفالات أخرى لأخذ البيعة من عامة الشعب الذين كان على الأمير ان يعمل على توثيق صلته بهم.

ومن وجهة النظر السياسية ، كان توحيد الرعية قد تأكد بأقوى الروابط مع الأمير عن طريق يمين الاخلاص والطاعة الذى يربط شخصيا بالأمير كل أفراد الرعية من الذكور فى الدولة ومثل هذه الرابطة فى مجتمع مشبع بالروح الدينية كانت لا تنفصم . فيمين الطاعة كان يتطلب إذن خضوعاً لا يحدّ لإرادة الأمير ممايتمثل أولاً فى أداء الخدمة العسكرية الى جانب دفع الضريبة. وتدلنا الحوادث التالية على الأسباب التى جعلت من أداء يمين الطاعة والولاء ضرورة مفروضة من قبل الأمير الحاكم.

السياسة الداخلية

الأسرة الملكية وسياسة الحلف العائلية :

يتمثل أحد أسباب ضعف الدولة الموحدية الهامة فى ارتكاز قوة الأمير بشكل أساسى على قوة أسرته الخاصة . هذا . كما كان التمزّق العرقى ، والى حدّ ما التمزق الجغرافى واللغوى ، وغياب وحدة الظروف الاجتماعية ، وافتقاد المصالح المشتركة ، كل ذلك كان من علامات الضعف الصارخة فى الدولة .

ومع ذلك فنحن نلاحظ أنه على عهد الأسرة المؤمنية قامت محاولات لعلاج كل آفات الضعف تلك ، عن طريق إقامة أسرة حاكمة قوية ، موجهة للقيام بدور هام بالنسبة للإسلام الغربى أشبه بذلك الدور الذى قامت به الأسر العظمى فى المشرق . وهنا ينبغى الإعتراف بالفضل فى تحقيق هذه الهدف ،

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٢ ، والترجمة ج٢ ص ٢٠٦ .

لصاحب الحسّ السياسى : عبدالمؤمن بن على ، رأس الأسرة . هذه السياسة العبقرية ، التى بدأها ذلك الرجل فى سبيل تقوية أسرته ، تمثلت أولاً وقبل كل شيء فى تركيز الحكم بين أيدى أفراد الأسرة الملكية أو الأسر الحليفة عن طريق الروابط السياسية أو العائلية . وظل ابنه يوسف مخلصا لتلك السياسة العائلية : فأبناء الاسره من الأخوة ، والأعمام ، والأبناء ، وأبناء الأخوة والأخوات ، كل هؤلاء ينبغى أن تكون بين أيديهم كل الوظائف الحكومية(١) .

وعلى عهد يعقوب اتبعت نفس السياسة بمنتهى الحرص ، ولكن مع بعض التغييرات المحسوسة . فالأسرة الأميرية كانت قد وقعت ، حقيقة وان كان بشكل جزئى ضحية سخط الأمير بسبب المحاولات التعسة فى سبيل الوصول الى سدة الحكم بدلا من الأمير الحاكم. فمنذ البداية ، وكما رأينا ، لقى يعقوب خصوما منافسين له من بين أفراد الأسرة المؤمنية ، ممن رأوا أنه غير كفء للحكم (٢) .

(١) عن تعيين أبناء عبدالمؤمن كحكام للولايات ، أنظر ابن الأثير ، ج١١،ص١٤٩-١٤٠، الرسائل الموحدية ، النص ص ٦٢ وما يتلوها ، والدراسة،ص ٣٧ - ٣٨ ، ابن صاحب الصلاة حيث يوسف واليا لاشبيلية ، وأبو سعيد عثمان واليا لغرناطة ،وأبو محمد عبدالله واليا لبجاية. وعلى عهد يوسف ، كانت بجاية لأبى زكريا يحيى بن عبدالمؤمن ، ويحيط به الحفاظ ، والشيخ الحافظ أبو عبدالله بن أبى ابراهيم كان واليا لاشبيليه، كما كان وزيره هو الحافظ ابن سنان ، ابن أحد أعضاء مجلس الخمسين ، ثم عين السيد أبو ابراهيم اسماعيل بعد ذلك بقليل ربما كرئيس لعبدالله على رأس حكومة نفس المدينة ، وكان على ولاية قرطبة السيد أبو سعيد والى غرناطة ، والذى ربما جمع بين الوظيفتين . وقارن ابن خلدون ، العبر ج٦ص ٢٣٩ ، ٢٤٠،ج٤ص١٣٧، وانظر القرطاس ، ص ١٢٦ - ١٢٧ ، الزركشى ، ص٩ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ . ولكن يظهر أن ذلك التقرير لم يكن إلا جزئيا ، فعادة ما يكون الطمع فى السلطة ، والمصالح الأنانية هى التى تدفع الخصوم الى التصرف بذلك الشكل. ولنا مثل فى وصول يوسف والد يعقوب الى سدة الحكم حيث سمعت اصوات مكتومة من عدم الرضا فى =

وأثناء حملة يعقوب في افريقية ضد بني غانية ، وأثناء غيابه ، وفي الوقت الذي ظهر فيه وكأن الحظ قد أدار له ظهره ، طمع في عرشه كل من أخيه أبي حفص عمر والي شرق الأندلس (مرسية)، وعمه سليمان والي تادلا في بلاد صنهاجة ، وقاما بالدعاية لنفسيهما .في الولايات (١). وبعد أن استدعاهما للمساءلة أمر بالقبض عليهما ، وقتلهما بحدّ السيف . وبالتالي ، ألزم أقاربه بالسكون .

وبعد تلك الثورة اتهم يعقوب أقاربه بعبارات قاسية ، بعدم الاخلاص ، والحقيقة أنه لم يكن أمام الأسرة المؤمنية إلا الوقف صفا واحداً من أجل الحفاظ على السلطة . وبعد ذلك اكتفى أمراء الأسرة بما كان يعهد به إليهم من أدوار هامشية . ومع ذلك فقد كان لهم مركزهم المرموق من حيث انتسابهم للأمير، وان لم يشاركوه في سلطاته الخلافية العليا؟ (٢) . ولا شك أن ارتياب يعقوب من قبل أقاربه كان له ما يبرره ، وان كان يمثل في نفس الوقت واحدا من أسباب ضعف السلطة الأميرية القائمة على رابطة الدم والقرابة .

ورغم هذا الاتجاه السيء بالنسبة للسياسة الأسرية ، فقد اعتمد يعقوب جزئيا على أفراد أسرته أو على الأسر الحليفة لها . ويظهر تمسكه بتلك السياسة في اتخاذه وزيراً أبو محمد عبدالواحد بن أبي حفص الهنتاتي ، زوج أخته (٣) . أما عن ولاة مدن : اشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، وغرناطة فقد كانوا

= كل مكان . فابو حفص عمر عندما قبل تسلم أخيه عرش الإمارة استولى حقيقة على السلطة . والأخ الآخر ليوسف وهو ابو الحسن على عاد الى تينملل مريض من الغيظ ، والأخ الثالث أبو محمد عبدالله بقي في بجاية مترددا معتذرا عن الذهاب لإعطاء يمين الولاء والطاعة . انظر ابن صاحب الصلاة ، وقارن المخطوط).

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٥ وما بعدها ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٦ ص ٢٤٤ ، القرطاس ، ١٤٣ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب، ص ٢٠١ .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٩ - ٣٨٠ ، ابن أبي دينار ، ص ١١٦ . أما عن ولاة مدن : إشبيلية ، وقرطبة ، ومالقة ، وغرناطة فقد كانوا من بين أعمامه. ونيابة عنه .

من بين أعمامه . ونيابة عنه (١) . كان أبو سعيد الحفصى يحكم افريقية منذ ولايته . وفوق ذلك كان هذا الأخير قد عهد بحكم المهْدية الى أخيه أبى على يونس . وبعد(٢). وبعد ذلك شغل السيد أبو زيد بن أبى حفص عمر ، حفيد عبدالمؤمن وابن عم يعقوب هذا المنصب فى سنة ٥٨٤هـ (١١٨٨م). وكذلك كان الأمر بالنسبة لعم الأمير ، وهو السيد أبو زيد الذى عين حاكما لأشبيلية سنة ٥٩٤هـ / ٨ - ١١٩٧م) وابن عمه السيد أبى ربيع حفص الذى عين حاكما لبداجوزا ، بينما كان السيد عبدالله ، أخو هذا الأخير يقوم بدور النائب له فى غرب الأندلس (٣) . ولكن الحدث الأكبر المميز بالنسبة لتلك السياسة الأسرية ، فقد وقع فى سنة ٥٨٨هـ (١١٩٢) : وتمثل فى مشاركة الأمير الخليفة لابنه الناصر ، الذى كان فى العاشرة من عمره ، كخلف له على العرش أو ولى للعهد (٤) .

وفى نهاية حملة يعقوب فى بلاد النصارى، و قع مريضا مرضا خطيرا (٥). وبعد قضاء بعض الوقت فى مراكش ذهب الى فاس فى أول المحرم ٥٨٨ (١٨ يناير ١١٩٢) محمولا على تختروان (محمل)، لكى يواصل علاجه الذى استمر ٧ (سبعة) أشهر أخرى. وتعبيراً عن القلق على مصير دولته الكبرى عين ابنه أبا عبدالله محمد كولى للعهد وأشركه فى حكم الدولة ،

---

(١) الحميرى، الروض المعطار ، ص ٦٨ ، ابن خلدون ، العبر، ج٦ ،ص٢٧٧ .

(٢) ابن خلدون ، الترجمة ، ج٢ ص ٩٧ ، ٢١٢ .

(٣) ابن خلدون ، العبر، ج٦ص ٢٤٣ ، والترجمة ج ٢ص٢١٥ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٥ ، والترجمه ، ج٢ص٢١٢ . فعقب الاستيلاء على شلب أعلن يعقوب ابنه أبو عبدالله محمد ، وليا للعهد . انظر فيما بعد ، ص ١٩٥ ،٨، وعبد الواحد ، المعجب ،ص٢٢٥ يحدد خطأ تاريخ هذا الحدث فى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣).

(٥) عبدالواحد المعجب ،ص٢٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٤٥ ،والترجمه ج٢ص٢١٢ ، ابن عذارى ، مجهول ،ص٦٦ ، القرطاس ، ص١٤٤ والترجمة ص ٣٠٨ ، الإستقصا ، ص ١٧٦ .

وكرسى العرش ، وأرسل يعقوب الرسل الى الولايات المختلفة ، وخاصة الى السيد زيد بن أبى حفص والى افريقية ، والى السيد أبى يحيى أخيه ، والى اشبيلية (١) ، لكى يعلنوا هذا التعيين على الملأ ، ولأخذ البيعة ويمين الولاء لوريثه ولى العهد .

ورد ابوزيد على الدعوة بالحضور على رأس وفد من زعماء العرب من الهلالية والسليمية ، حيث أعلن الطاعة وجدد البيعة . وفيما يتعلق بالسيد أبى يحيى فقد سارت الأمور فى منحى آخر إذ أعلن العصيان من حيث كان – حتى ذلك الوقت – المرشح الوحيد لولاية العهد ، وأدى الأمر الى اضطراب الأسرة الملكية . فقد بدأ أخو الخليفة الغاضب يحيك المؤمرات من أجل الوصول الي العرش . وانتهى الأمر بأن دفع حياته ثمنا لتلك المخاطرة (٢) .

أما فيما يتعلق بسياسة التحالفات العائلية حقا ، فإن الوثائق لا تقدم لنا الكثير. ومع ذلك فالأمر يدعو الى الظن بأن يعقوب سار على نفس السياسة التى افتتحها عبدالمؤمن فمن أجل تأكيد تحالف أكيد مع قبيلة هنتاتة القويه تزوج عبدالمؤمن إبنة أبى حفص ، رئيس تلك القبيلة (٣) . وقريب من هذا ما فعله يوسف بعد ان غزا بلاد ابن مردنيش فى شرق الأندلس ، وزواجه من ابنة هذا الأخير سنة ٥٧٠ هـ-١١٧٤م) (٤). وفى نفس الوقت أعطى احدى بناته زوجة لهلال بن مردنيش (٥). وهكذا اجتهد يعقوب فى تأكيد هذا التقليد ،

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٤ .– حيث لم ينتظر يعقوب وصول أبى يحيى الى مراكش ، فمجرد شفائه من المرض ، خرج الى فاس على محمل ، ومن هناك سار الى سلا حيث تم اللقاء به ، وبعد استجوابه أصدر الأمر باعدامه.

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٢٧، والترجمة ج١ص٢٥٤ – حيث مات المهدى وهو يعين عبدالمؤمن خليفة له ، ولكنه خشى الا يجد تأييداً له عند المصامدة ، الذين كان غريبا عنهم ، فاخفى وفاة المهدى الى ان نجح فى الزواج من ابنة نشيخ نى حفص امير هنتاته . ولما نجح بفضل معونه والد زوجته من تحقيق آخر وصايا الإمام ، مارس السلطة العليا صفته شيخا كبيرا من مشايخ الموحدين ، وخليفة للمسلمين" .

(٤) س حلكاں ، ج٣ ص ٤٣٣ ، القرطاس ، ص١٣٨ ، والترجمة ٢٩٨ .

(٥) ىں حلدوں ، العبر ، ج٦ ص٢٤٠، الترجمة ، ج٢ص ٢٠١

عندما أعطى الوزارة الى أخى زوجته ، أبى محمد عبدالواحد بن أبى حفص ، وكذلك عندما عين عددا من الحفصيين ولاة فى أمكنة عديدة، الأمر الذى أكد تحالفه مع الهنتاتيين (١). ومع ذلك فإن هذا التصرف لم يمنع من مواجهة خطر كبير ،فقد كانت نتيجة تلك السياسة مواجهة المؤمنين لقيام أسر اقليمية وراثية هددت وحدة الدولة الاقليمية ويعتبر قيام الحفصيين فى افريقية النموذج الصارخ لتلك السياسة.

والحقيقة أن الأسرة الملكية انتهى بها الأمر بالوقوع جزئيا فى موضع السخط والشك من قبل الأمير ، الأمر الذى أدى فى ردود فعل عنيفة ضد أقاربه ، فلقد أدى الشك بالأمير الى أن يضع يده على كل شئون الدولة والحكم، الأمر الذى كان يزيد من فردية النظام واستبداديته – بطبيعة الحال .

السياسة الخارجية

العلاقة مع نصارى اسبانيا:

كان موقف الموحدين كما كان الحال على عهد المرابطين أن الأندلس ثغر للجهاد ضد الدويلات المسيحية هناك ، وخاصة ضد مملكة قشتالة وملكها ألفونس (الاذفونش).

وهكذا ، كان على يعقوب أن يشن الحرب فى ميادين القتال الأندلسية ، معلنا حركة النهضة الاسلامية التى أدت به الى اكتساب لقب "المنصور" ،فتحت رايته المظفرة اتحدت جماعة الشعب المختلطة ، فى جبهة

(١) وهنا لا بأس من الإشارة الى قصة اسطورية نافارية الأصل تقول انه على أواخر عهد المنصور ربما عرض على ملك نافار الذى كان خاضعا للموحدين ، إحدى بناته التى وقعت فى حبه ، وأنه وافق أن يقدم له كل الأندلس الاسلامية كمهر (من قبل ابنته). انظر ويثى (A. Huiai) ، دراسة عن موقعة العقاب ،و Ras Navasde Tolosa، بالاسبانيه ، ص ١٣ وما بعدها.

واحدة ، من : قبائل الموحدين ، وغيرها من القبائل الحليفة ، وسكان الجبال أو السهول ، وأهل السودان ، والأندلس، مع المتطوعة من كل الآفاق ، حتى العرب والغز فى افريقيا ، حيث كان الكل مستعدين للهجوم على العدو دفعة واحدة ، باسم الله . وهكذا وجد يعقوب نفسه على رأس الكتلة الكبرى من قواته فى الأيام الأولى من وصوله الى كرسى العرش ، فلقد قاد قواته الى اشبيلية ، ومنها عاد الى عاصمة ملكه مراكش ، ولكنه لم يلبث أن عاد دون تأخير الى الأندلس لكى يردع النصارى هناك . وللأسف الشديد بالنسبة للاسلام فإن الأعمال العسكرية الأولى ليعقوب لم توجه ضد العدو التقليدى فى شبه جزيرة ايبيريا ، بل كانت ضد "الكفار" الأخر من الميورقيين ، من بنى غانية المرابطين (١).

وهكذا كان لنصارى الأندلس حرية العمل فى إثارة الاضطراب فى الأراضى الاسلامية بالأندلس .

المناوشات الأولى:

فى ذلك الوقت كان ملك قشتاله الفونس الثامن ، بطل المسيحية وقتئذ فى اسبانيا ، يثير الرعب فى الأراضى الاسلامية المتاخمة لبلاده . ولقد نجح فى الاستيلاء على حصن المنار فى منطقة قرطبة سنة ٥٨٥هـ (١١٨٩م) . وعقب ذلك دفع الفونسو عساكره حتى سهل اشبيلية ودمروه . وطلب المدافعون عن البلاد النجدة من حامية اشبيلية ، عاصمة الولاية . ولما خرجت الحامية على عجل دون اتخاذ الاستعدادات المناسبة اتضح لها أنها لا تستطيع مواجهة العدو . والحقيقة أن ما يكتبه ابن عذارى عن هذا الحدث يظهر بشكل واضح تفوق القشتاليين على كل من المستويين المعنوى والعسكرى (٢) . فرغم قلة

---

(١) انظر فيما بعد ، ص ٦١ وما يليها .

(٢) البيان المغرب ،ص٥٨ .

عددهم ، وبعدهم عن بلادهم ، فإن خطة قتالهم كانت الأفضل ، فعندما وجد القشتاليون القوات الاسلامية رديئة التنظيم تركوا غنيمهم من الماشية فى السهول وصعدوا الى المرتفعات والجبال ، الأمر الذى جعلهم فى موقف استراتيجى أفضل ، استطاعوا بفضله السيطرة على المسلمين . وهكذا فعندما هجموا ردوهم منهزمين ، وأخذوا الكثير من الغنيمة والأسرى .

وعندما قام الموحدون بمعاونة من القوات الأندلسية بمحاولة لاسترجاع حصن المنار لم ينجحوا فى ذلك . وعندما خرج السيد أبو حفص يعقوب ابن أبى حفص ابن عم الأمير ووالى اشبيليه على رأس طابور من فرسان الموحدين لم يستطع أن يواجه العدو الذى كان موجودا فى بساتين الضاحية . وفى شهر جمادي من نفس السنة ، ٥٨٥ هـ (يونيه - يوليه ١١٨٩م) ، استولى الفونس على حصن أم غزالة الذى هجره أهله قبل أن يصل اليهم ، ولكنه غادره بعد قليل من الوقت واتجه نحو ربينا (Quinza Roina) (١) . التى أخذها عنوة ، فقتل المدافعون عن الحصن ، وأخذ الآخرون أسرى ، واستولى القشتاليون على مغانم هامة . وفوق ذلك دفع الفونس مقدمات قواته حتى حصون قلعة جابر وحصن شلبر ، لكى يعودوا بعد ذلك الى طليطلة فى شهر جمادى الثانى (يوليه - أغسطس) (٢) .

سقوط شلب (Silve's):

ومع ذلك فقد كان ابن الريق ، سانكو الأول، ملك البرتغال ، هو الذى كانت له الجرأة على استئناف الصراع بعنف ضد الموحدين فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م). ولقد خدمت الظروف ملك البرتغال الذى طلب المعونة من جماعة من الصليبيين الانجليز ، الذين كانوا فى طريقهم الى الأراضى المقدسة

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٩ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٩ .

في فلسطين . فعندما توقف هؤلاء في لشبونة بسبب عاصفة ، قبلوا عقد اتفاق مع دون سانكو ، تقرر بنوده تقديم المساعده العسكرية له نظير حصن شلب بدلا من الغنيمة التي قد يأخذوها من المسلمين (١) .

وقام ملك البرتغال بمساعدة فرسان الانجليز بحصار المدينة . ورأى الوالى الذى كان يحمل لقب الحافظ ، واسمه عيسى بن أبى حفص (٢) وسكان المدينة انه بدلا من المغامرة بمقاومة حصار قد لا تعرف مغبته ، أن يقترحوا على ملك البرتغال ان يسلموه المدينة شريطة الأمان فى النفوس فقط ، وأن تكون المدينة وكل ما يملكون فيها غنيمة لهم ، لا تمسّ . وتم فعلا احترام شروط معاهدة الخضوع ، وخرج السكان من المدينة مجردين من أملاكهم ، جوعى ، مجهدين من التعب .ودخل سانكو وحلفاؤه الانجليز في البلد يوم الاثنين ٢٠ رجب ٥٨٥هـ (٣سبتمبر ١١٨٩م) (٣). واستمر ملك البرتغال فى غاراته المدمرة فى الأراضى الاسلامية ، وحقق نجاحات جديدة فى الجنوب الغربى من شبه الجزيرة الايبيرية (٤) . وهكذا أخذ عدد كبير من الحصون ، مثل : بور (Al-Bour) التى أخذت وقتل كل أهلها بحد السيف ، حتى النساء والأطفال(٥) . هذا ، كما سقطت كل من باجة (Baga) ويابره (Evora) أيضا(٦) .

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٧ – ٥٨ ، ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٥ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص١٠٦ والترجمة ص ١٣٠ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص٢٠٣ – حيث تسمية الانجليز حسب اصطلاح العصر "بالفرنج" الامر غير المعقول حيث أن الفرسان الفرنسيين كانوا معتادين على دخول شبه جزيرة ايبيريا بالطريق البرى عبر ممرات البرانس ، بينما اعتاد الانجليز على المجيء والذهاب الى الأراضى المقدسة بطريق البحر .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٨ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) ابن خلكان ، ج٣ ، ص٣٧٥ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول،ص٥٨ .

(٦) القرطاس ، ص ١٤٤ ، ١٩٧ ، والترجمه ، ص ٣٠٧ ، ٣٨٥ ، السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٧٤ – حيث صفحة القرطاس ، ابن الاثير ج١٢ص٣٧ ،ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٥ . ومما يستحق الاشارة ان المؤلفين لا يتفقون على تاريخ اخذ شلب وغارات ملك البرتغال . فحسب الحميرى تم الحصار فى شهر ربيع الاول (ابريل – مايه ١١٨٩) ، وهو التاريخ الذى يتفق مع ابن عذارى الذى أخذ نابه (وقارن عبدالواحد المعجب ، ص ٢٠٣). اما الآخرون فيضعونه خطأ سنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) . ففى سنة ٥٨٦هـ سار المنصور لاخذ المواضع التى خسرت . انظر نفسه ، ابن خلدون ، العبر ، ج٢ ص ٢٤٤ ، والترجمة ج٢ ص ٢١٨ ، رسائل موحدية ٢٨٨ ، والدراسة ، ص ٦٤ .

أول حملة ضد البرتغال :

كان لأعمال ابن الريق ، سانكو ملك البرتغال وخاصة سقوط شلب أصداء أليمة في مراكش ، دفعت يعقوب إلى رد فعل عنيف فبعد شكوى تقدم بها والى أشبيلية أبو حفص يعقوب بن أبى حفص (١) الى يعقوب ، لم يتأخر ردّ هذا الأخير . فقد أرسل المبعوثون الى حكام الولايات المختلفة من أجل إعداد آلات الحرب ، وجمع المعدات والأغذية . واستنفر المقاتلين الى الخدمة العسكرية ، من الموحدين وكذلك العرب والقبائل الداخلة فى الطاعة من غيرهم (٢) . ودوى صوت داعى الجهاد فى الجبال الجنوبية كما فى أقاليم الغرب . ورغم أن التعبئة العسكرية كانت اختيارية ، فإن حشداً لا حصر له من كل الألوان ومختلف الألسن لبى النداء(٣) .

ومن المحتمل جدا أن يكون نصارى الأندلس قد أخذوا علما باستعدادات يعقوب الكبيرة وانهم فزعوا من الدخول فى حرب مع جيش اسلامى قوى . فهذا ما يوحى بما قام به أهم ملوك أسبانيا المسيحية ، وهو الفونس الثامن ، من الكتابة الي يعقوب يطلب منه السماح بإرسال السفراء اليه من أجل المفاوضة بشأن السلام ، وأن يقف الى جانبه كأحد اتباعه ، وأن يقوم الى جانب المسلمين بالحرب (٤) ضد بنى بلدته من المسيحيين . واكتفى يعقوب بالرد عليه بالإيجاب وغادر مراكش فى ١٤ من ذى الحجة ٥٨٥هـ (٢٣ يناير ١١٩٠م) الى رباط الفتح ، وذلك بعد ارسال المبعوثين الى اشبيلية يحملون خبر الحملة (٥) .ومكث يعقوب فى الرباط لمدة شهر تقريباً حتى تتمكن

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص٢٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٢٤ ، والترجمة ج٢ص٢١٢، الحلل الموشية ، ص ١٢١ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٧ . ابن خلدون ، العبر، ج٦ص ٢٢٤ ، الترجمة ، ج٢ ص ٢١٢ .

(٣) رسائل موحدية ، ص٢٢٠، الدراسة ٢ص٦٤ .

(٤) رسائل موحدية ، ص٢٢١ .

(٥) ابن عذارى ، ومجهول ص٥٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ص ١٣١ .

القوات المعبأة ممّن التجمع ، والقوات الوافدة من القبائل من استكمال حشدها . وفى أواخر أيام شهرالمحرم ٥٨٦هـ (أول أيام مارس ١١٩٠م) تحرك يعقوب من الرباط نحو قصر مصمودة (الذى كان يعرف بقصر المجاز) ، فيما بين طنجة وسبته (١) من حيث بعت الرسال الى اشبيليه تعلن عن قرب وصوله (٢) . واثناء مقامه بقصر مصمودة وردت الأنباء عن نجاح بحرى حققه المسلمون على النصارى ، حيث دمروا لهم السفن وأخذوا الأسرى (٣) . وبهذه المناسبة تلقى يعقوب التهانى العديدة ، وقبل الركوب للجواز استعرض الأمير عساكره ، وفى يوم الأحد ٢٣ ربيع الأول (٣٠ ابريل ١١٩٠م) أبحر بعد الظهر الى طريفة حيث سلّم عليه مندوبوا الأقاليم المجاورة .

وبقى يعقوب فى طريفه الي بداية شهر ربيع الثانى (٦مايه) (٤) . ثم اتجه نحو قرطبة عابرا منطقة أركّس (٥) . وفى جامع قرطبة الكبير تم احتفال تقليد اللواء الى يعقوب بصفته القائد الأعلى للحمله (٦) .

وبعد هذا الاحتفال الديني العسكري معا، قرر يعقوب المسير نحو البرتغال التي كان ملكها من المناوئين له .وفي الوقت الذي كان الموحدون يصلون إلى قصر المجاز كان مبعوثوا ملك قشتاله قد و صلوا إلي أشبيلية ،حيث استقبلهم طلبة الموحدين. و بعد قراءة الخطابات التي تثبت انهم سفراء مفوضين ، ثم عقد السلم لملك قشتالة . و تقول الرسالة الموحدية الرسمية ان يعقوب ظهر بمظهر السياسي الماهر عندما قبل تبعية ملك قشتاله ، مع تطبيق مبدأ" فرق

(١) ابن عذارى ، مجهول ص٥٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ص ١٣١ - حيث القول فى ابن عذارى انه مكث اربعين يوما ، بينما يقول الحميرى انه لم يبق فى الرباط إلا ثلاثين يوما .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ٥٩ . وقارن الحميرى ، الروض المعطار ،ص١٠٧ والترجمة ص١٣١ حيث النص على ان هذا الانتصار وقع فى المغرب ، الامر الذى لا معنى له . وانظر فيما بعد ، ص٤٢٩ .

(٤) الحميرى الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ص ١٣١ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ،ص٦٠ .

(٦) الحميرى الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ص ١٣١ .

تسد "(divide ut emperes) (١) بالنسبة للملوك المسيحيين.

وفي نفس الوقت ، طلب ملك ليون ،ابن عم ملك قشتالة ، والذي كان يتمتع بعقد الهدنة ، تجديدها فتم له ما أراد . وهكذا قرر يعقوب تركيز جهوده فى أرض ملك البرتغال، أقرب البلاد الى أرض المسلمين ، وأخطرها بالنسبة لها(٢) . وفى قرطبة استقر فى قصر أخيه الفخم ، السيد أبو يحيى . وهناك التقى بسفراء ملك قشتالة ، وسمح لهم بالمغادرة الى بلدهم (٣).

وكانت خطة يعقوب لمهاجمة العدو فى جبهتين من العساكر : احداهما تحت قيادته الشخصية ، والأخرى تحت قيادة والى اشبيلية . وبعد أن أنزلت قوات يعقوب مهماتها الثقيلة ، وأخذت ما يلزمها من الميرة ، وجددت مهماتها ، بقيت عدة أيام فى قرطبة . وأثناء ذلك الوقت كان يعقوب يدقق فى أمور القوات ، من المرتزقة النظاميين ، ومن المسيحيين الذى هجروا بلاد العدو ولجأوا الى المسلمين، فصرف لهم الرواتب ، ورفع الرايات ، وسار من أجل الجهاد . وفى نفس الوقت أمر السيد أبا حفص ، والى اشبيليه . بتعبئة قواته ، من العساكر النظامية ، والعرب والمتطوعة ، والمتأخرين من صنهاجة ، وهسكورة ، "والمجاهدين فى سبيل الله "ممن أتوا من كل النواحى . وهؤلاء تحركوا تحت قيادة أبى حفص فى أول جمادى الأولى (٦ يونيه) لكى يصلوا الى ضواحى شلب حيث استقروا (٤). واتخذت الاجراءات مقدما للقيام بعملية برية بحرية مشتركة . وأخيرا وصل الأسطول فى آخر نفس الشهر . وهكذا انشئت آلات الحصار والمنجنيقات ، وضرب حصار شديد حول المدينة(٥).

(١) رسائل موحدية ص ٢٢٢ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٢٣ ، والدراسة ، ص٦٥ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٠ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص٦٠ .

وفى جهة أخرى أمر يعقوب السيد أبو زكريا بن أبى حفص أن يذهب ليستعد للحرب مع القوات الخاصة لقيادته ، من : العرب ، وزناته سكان تلمسان وحلفائهم ثم اللحاق به فى وادي باجه . وهناك تقوّت العساكر التى كان يقودها يعقوب بالقوات التى كان يقودها أبو زكريا . وسار الأمير بطابوره العسكرى نحو وادى تاجّه ، وعبر النهر واتجه نحو اقليم الحبوب الخصب المتاخم لشنترين حيث أفسد وخرب كل المحاصيل ، كما قوض كل المساكن(١) . بعد ذلك اتجه نحو حصن طرّش القوى ، والواقع فى مكان مرتفع ، عجيب التحصين . وضرب يعقوب حوله الحصار، وانتهى الأمر بطلب المحاصرين المفاوضة من أجل الأمان . وتمت اتفاقية تقضى بنودها بأن يجلوا المحاصرون عن الموضع بنسائهم وأطفالهم ، تاركين كل أملاكهم وأطعمتهم للمنتصرين (٢). ومع ذلك فإن المحاصرين اشترطوا موافقة حكامهم على بنود اتفاقية الأمان هذه . ووصلتهم موافقة يعقوب ، وسارت بعثة تشمل قائد الحامية المسيحية وبعض المفوضين العرب فى الطريق إلى اتمام ذلك الغرض . وبمجرد وصول موافقة ملك البرتغال استسلمت حامية حصن طرش (٣) بنفس الشروط التى تم بها استسلام شلب فى السنة السابقة. وحصل الموحدون فى الموقع على غنيمة كبيرة ، من الخيل والسلاح ، والأثاث . وبعد أن خرب الموحدون الموضع تركوه خراباً يبابا وساروا نحو مدينة محصنة أخرى هى : طمان(٤) ونزل بتلك المنطقة الغنية بكرومها وأشجار فاكهتها ما نزل بطرش من الدمار . فحصر الموضع الحصين حصاراً شديدا ، وضغط على أهله ضغطا مرهقا كما خربت أراضيه المثمرة وأحرقت مزروعاته. وقامت عدة غارات على نفس النمط فى المنطقة بينما كان ملك البرتغال الذى تقوى بفرقة من عساكر

(١) رسائل موحدية ، ص٢٢٥ ؛والدراسة،ص٦٥ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٢٥ ، والدراسة،ص٦٥ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦١ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦١ .

الانجليز الذين انضموا لقواته متحصنين داخل شنترين لا يستطيعون الحركة(١). وأراد ملك البرتغال المفاوضة من أجل السلم ، فارسل سفراءه الى يعقوب ، الذى استمر فى غاراته المدمرة للأقاليم البرتغالية . وللأسف ، فإنه إذا كان يعقوب قد تصرف بحساب فإن ذلك الحساب كان خاطئا نحو المسيحيون عندما عرفوا فى وقت مبكر بخبر حملته قاموا بحصاد محصولاتهم(٢) . وهكذا فبينما أنهك التعب قواته ، وكذلك قلة الغذاء ، وارتفاع الأسعار (٣) . كان مضطرا الى العودة الى اشبيلية .هذا . كما أمر كذلك الموحدين العاملين فى أقصى جنوب البرتغال (منطقة شلب) تحت قيادة والى اشبيلية بالعودة الى بلدهم . وكانت عودته الى العاصمة بالأندلس فى ١١ جمادى الثانى من نفس السنة (٦يوليه ١١٠٠م)(٤) .

ورغم النجاح المحدود للحملة فقد كان الاحتفال بعودها مجلجلاً فى اشبيلية : فالسودان بقلانسهم المخروطية الشكل ، ذات اللون الأحمر الفاقع ، كانوا يركبون الجمال البيض ذات الرواحل المزخرفة بالجلاجل ويحملون فى أيديهم التروس ، بينما كان الغزّ يمتطون صهوة أنواع مختلفة من الخيول الأصلية(٥) .

---

(١) انظر ما سبق ، الحميرى ، الروض المعطار حيث الاشارة الى ان قصر ابى دانس (Alxaxer de sol) وبالملا (Palmul) ، الموضعين الحصينين كانا هدفا للتخريب من قبل يعقوب .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٢٧ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول، ص٦١ ،وسائل موحدية ، ص ٢٢٧ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٢ ، ورغم تأكيدات عبدالواحد (المعجب ، ص٢٠٣) ، وابن خلدون (العبر، ج٦ص٢٤٤ ، والترجمة ج٢ص٢١٢ ، وابن خلكان (ج٣ص٣٧٥ ، ٣٧٧) ، ومؤلف روض القرطاس (ص ١٤٤ ، والترجمة ٣٠٧ ، ٣٨٥) الذى ينقل عنه السلاوى (الاستقصا ، ج١ص ١٧٥) فإن تحرير شلب لم يكن موضوع الحملة الاولى ليعقوب فى الأندلس . وذلك لأنه عاد الى اشبيلية قبل ان يقترب من ارضها . وعلى ذلك فهو قد قام بنشاطه الأول فى منطقة شنترين ، ربما ليثار من هزيمة والده سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) والتى كان قد شارك فيها.

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٢ .

الحملة الثانية ضد البرتغال:

وبعد إقامة فى اشبيلية طالت الى سنة تقريبا وجه خلالها يعقوب اهتمامه الى شئون الأندلس ، قرر العودة الى النضال ضد ابن الريق . وحتى ذلك الوقت كانت شلب ما تزال بين يدى الغازى ، الأمر الذى يعنى أنها لو بقيت كذلك لكان قبولا بفشل الحملة ، وهوما لم يكن يقبل به أحد فى جانب الموحدين . وهكذا فبعد الإنتهاء من اعداد لوازم الحرب ما ترك يعقوب اشبيلية فى أول ربيع الثانى ٥٨٧هـ (٢٨ ابريل ١١٩١م) على رأس قواته . ويفخر ابن عذارى بنظام المقاتلة وكمال استعداداتهم (١) .

وكان أول مكان محصن وصلوا اليه هو قصر أبى دانس (Aleacer do sol) فى منطقة الغرب (غرب الأندلس) . وكان المكان عجيب التحصين ، بدأ بعض المقاتلة بطمر الخندق المحيط بالسور ، بينما كان آخرون يهاجمون أسوار المدينة وتحصيناتها . ولكن مقاومة المدافعين كانت عنيدة حتى أن الموحدين ، أصيبوا بخسائر كبيرة خلال الأيام الثلاثة الأولى من القتال (٢) ومن حسن حظ الموحدين أن جاءتهم النجدات البحرية فى الوقت المناسب . وهكذا صعد البحريون فى مصب النهر وهاجموا هجوما صاعقاً عن طريق إقامة ١٤ (أربعة عشر ،منجنيقا دون تأخير (٣) وحتى ١٥ من جمادى الأول (١٠ يونيه) نجح المدافعون فى الثبات فى أماكنهم ، ولكنه ذات اليوم أعلن الموحدون هجوما عاما : فقامت جميع المنجنيقات تصب قذائفها على الموقع الحصين . وبعد قتال عنيد استشعر المدافعون حرج موقعهم وبدأوا يبحثون عن الفرار عبر البحر ، لولا أن وقف المهاجمون أمامهم سدًّا يمنعهم من تنفيذ مخططهم هذا . وهكذا تم أسر المدافعين ، وثقلهم الى اشبيليه (٤).

---

(١) ابن عذارى، مجهول ، ص ٦٣ .

(٢) ابن عذارى، مجهول ، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) نفس المصدر .

وعقب ذلك بدأ يعقوب فى تنظيم الموضع إداريا . فأقام من يسمى ابن وزير واليا ، وترك معه حامية قوية (١). وبعد هذا الظفر ، سار يعقوب نحو حصن بالملاّ المنيع (٢) الذى لقى نفس المصير كأبى دانس ، ولكن المدافعين طلبوا هذه المرة الأمان نظير تسليم المكان مقابل العفو عنهم. وعندما تم عقد الصلح هذا خرجوا الى بلادهم تاركين مدينتهم الحصينة فريسة للنهب والتخريب (٣) وبعد ذلك اتجه يعقوب صوب قلعة "المعدن" الحصينة (Almada) (٤). وبعد انتهاء هذه العمليات العسكرية اتجه يعقوب نحو الجنوب صوب شلب ، هدف الحملة الأولى . ووصل أمام المدينة يوم الخميس ، جمادى الثانية (اليوم الثانى من يونيه ١١٩١م) (٥) وفى التو واللحظة حوصرت المدينة حصاراً شديداً واقيمت آلات الحصار والمنجنيقات فى مواجتهاً ، كلما بدء فى طمر الخندق . وفى يوم الأربعاء ١٥ جمادى الثانى (١٠ يونيه ١١٩١م) ، وفى هجوم غير منتظر فى الفجر ، استولى الموحدون على الأسوار والتحصينات ، وقام المدافعون مذعورين على صوت الطبول ليجدوا رايات الموحدين مرفوفة على الجدران الخارجية للأسوار ، ولكنهم لم ييأسوا ، فلم يخضعوا دون شروط للمهاجمين ، فبعد قتال عنيد رأى أهل المدينة دقة موقفهم ، فطلبوا الأمان حسب تقاليد ذلك العصر ، فى : خضوع المدينة نظير سلامة الأرواح ، والعودة سالمين الى الأراضى المسيحية (٦).

ووافق يعقوب عن هدنة ١٠ أيام حتى يتم لهم موافقة الملك على الأتفاقية .

---

(١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، حيث الاسم قالملا ، وقارن الحميرى ، الروض المعطار ، الترجمة ، ص ١٣١ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، الحميرى الروض المعطار ص ١٣١ .

(٤) الحميرى ،الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ، ١٣٢ – ونلاحظ هنا انه يضع خطأ اخذ ابى دانس التابعه لبالملاً ، وكذلك المعدن فى القسم الأول من الحملة، اى فى سنة ٥٨٦هـ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٥ ، وانظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ١٣٢هـ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول، ص٦٦ (ابن العجّار) ، المقرى ، ج٢ص ١٤٩ (ابراهيم بن الفخّار) انظر ص ٤١ و٤هـ .

وعندما وصل أهل المدينةموافقة الملك وشكره على المقاومة المشرفة ، أخلى المدافعون مدينة شلب يوم الخميس ٢٥ جمادى الثانى (٢٥ يوليه ١١٩١م)(١)

بفضل استعادة شلب طمأن الأمير الموحدى الرأى العام فى انحاء بلاده ، وانقذ هيبته نفسه التى كانت قد أوذيت منذ أكثر من سنة قبل ذلك عن طريق الاعتداء الذى قام به ابن الريق ، سانكو الأول ، ملك البرتغال ، فبعد هذه العلميات العسكرية فى الأندلس ، ظهر موقف الدولة الموحدية فيما وراء العدوة (المضايق) وكأنه استقر نسبيا . فمن جهة ومن أخرى احترم كل من الموحدين وملوك قشتالة وليون وقتيا على الأقل ، المعاهدات التى كانت قد عقدت بينهم حديثا . وفى نفس الوقت أمكن ضبط ملك البرتغال المحارب بل ومنعه من الاعتداء بالقوة ، وبذلك استعد يعقوب الى العودة الى عاصمته مراكش بعد غياب عنها طال الى اكثر من سنة ونصف السنة .

فبعد أن نظم البلاد ، وأقام بعض أقاربه فى حكم الولايات الأندلسية ، كما حصن الحدود ، قرر مغادرة اشبيلية فى أول شهر رمضان ٥٨٧هـ (٢٢ سبتمبر ١١٩١م) (٢) . وعقب احتفال الوداع الذى تم فى بحيرة الوادى ،قرب شاطىء الوادى الكبير ، سار فى طريقه نحو البحر . وعبر المضيق في منتصف الشهر (٦أكتوبر)لكى يعود الى مراكش (٣) .وبعد هذه الحملة سقط يعقوب مريضا

---

(١) نفس الهامش السابق.

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص٦٦ .

(٣) نفس المصدر .

، وعين ابنه محمد كولى للعهد (مفوض للحكم) . وبهذه المناسبة استقبل يعقوب رسالة من الأندلس من قبل ملك قشتالة ، الذى كان قد ارسل بعض رجاله من اليهود ، وهو يوسف بن الفخّار ، كموفض للتصديق على الهدنه(١) .التى كانت وقعت سنة ٥٨٦ هـ (١١٩٠م) ، بين الطرفين لمدة خمس سنوات(٢).

سفارة صلاح الدين:

تعتبر سفارة صلاح الدين أبى يعقوب من أهم السفارات والبعثات التى استقبلها الأمير الموحدى عند رجوعه من الأندلس . فهى تلقى الضوء على المكانة التى كانت لدولة الموحدين فى المشرق الاسلامى على أيامه. كان صلاح ألدين يشعر بثقل التهديد الذى يمثله الصليبيون فى المشرق ، ورغم نجاحه المدوى فى حطين قرب طبرية سنة ١١٨٧م(٥٨٣هـ) ، فإنه قرر أن يرسل السفراء لدى أهم ملوك الاسلام ، طلبا للمعونة والنجده (٣) ولحسن الحظ أنه وصلتنا نصوص رسالتين صادرتين عن ديوان الانشاء المصرى الى يعقوب ، والاثنتان من انشاء القاضى الفاضل فى سنة ٥٨٥هـ ١١٨٩م وسنة ٥٨٦هـ (١١٩٠م) ، والأولى نقلها لنا القلقشندى (٤) ، والثانية نقلها لنا أبو شامة (٥) وهذه الأخيرة ، حملها الى المغرب ابن منقذ (٦).

ورغم أن الرسالتين يشك فيهما من حيث الشكل (٧)، فإن مضمونهما

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ (ابن العجّار) ، المقرى ، ج٢ ص ١٤٩ (ابراهيم الفخّار) انظر ص ٤١ وهـ٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج٣ ص٣٧٦ .

(٣) عماد الدين ، فتح الشام ، ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، وقارن ج . ديموبين ، منوعات لاباست، رسالة الى صلاح الدين ١٩٢٥ ، ج٢ ، ص ٢٨٠ .

(٤) صبح الأعشى ، ج٦ص ٥٢٦ – ٥٣٠ ، وقارن ج. ديموبين ، منوعات د. باست ، ١٩٢٥ . . ج٢ ص ٢٧٩ ، وهو يفضل وضع هذه الرسالة فى خريف سنة ١١٨٩ (نفسه ، ص ٢٨٩ .

(٥) كتاب الروضتين ، ج٢ ص ١٧٠ وما يليها .

(٦) نفسه – حيث يقول أبو شامة ان الرسالة الثانية كتبت فى ٢٨ شعبان ٥٨٦ (٣٠ سبتمبر ١١٩٠) وان السفير رحل من الأسكندرية يوم ١٣ رمضان ٥٨٦هـ(١٣ أكتوبر ١١٩٠) على حانية مزودة بـ ١٢٠ بحاراً. ولكنه رغم دقة الاحداث المروية فإن الشك يحيط بالتفصيلات ويدعوا الى الشك ايضا في التواريخ . وهكذا فنحن نفضل الرجوع الى ابن عذارى الذى تظهر اخباره أكثر صحة .

(٧) ج.ديموبين ، منوعات د.باست ، ج٢ ص ٢٩٧ .

مقبول دون نقاش . والأمر يتعلق بطلب معونة بحرية ضد المسيحيين الذين كانوا يستعدون لغزو بلاد الشام عن طريق البحر ،وذلك إن الجنوبين ، والبنادقة والصقليين كانوا يهددون بلاد الشام التابعة لصلاح الدين . ففى شهر رجب ٥٨٦هـ (أغسطس ١١٩٠ م) وصل أبوالحارث عبدالرحمن بن منقذ الى بلاد افريقية (١). وسار من بعد ، الى بجاية ، ورغم السرية التامة التى التزم بها السفير . فلقد وصلت لهؤلاء تعليمات صارمة من يعقوب ، الذى كان وقتئذ مشغولا بحملته ضد البرتغال ، بعدم سؤاله عن موضوع بعثته (٢). أن يستقر بفاس انتظاراً لعودة الأمير (٣).

ورغم أنه لم يكن قد شفى تماما من المرض الذى أصابه عقب عودته ، فإن المنصور (يعقوب) لم يترك لغيره النظر فى أعمال دولته ، إذ اهتم بها شخصياً طول مدة النقاهة التى يظهر أنه كانت تقطعها فترات عودة المرض. وهكذا رؤى محمولا على محفه (محمل) وهو آت من مراكش الى فاس حيث كان السفير المصرى فى انتظاره ، وذلك فى أول المحرم من سنة ٥٨٨ هـ (١٧ يناير ١١٩٢م). وفى نهاية أسبوع ، ٦ محرم (٢٣ يناير ١١٩٢م) ، استقبل المنصور (يعقوب) ابن منقذ (٤).

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٣ . ابو شامة (ج٢ص ١٧٣ ، . وابن عذارى لا يتفق على هذا التاريخ فتبعا للأول فإن السفير لم يصل الى طرابلس إلا فى ٢٥ شوال (٢٥نوفمبر) لكى يمكث الى ٨ ذى القعدة (٧ديسمبر) .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٣ .

(٣) نفسه . الاستبصار ، حيث يقول المؤلف الذى يكتب فى شهر رجب ٥٨٧ هـ (يونيه - يوليه ١١٩١م) ان ابن منقذ كان فى فاس فى تلك الفترة انتظارا لتعليمات الخليفة . ابن خلدون ، العبر ، ج١٦ ص ٢٤٦ ، الترجمة ، ج٢ ص ٢١٦ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج ١ ص ١٧٤).

(٤) الاستبصار ، حيث لا يقول المؤلف الذى يظن أنه كان أحد حاشية الأمير ، شيئا عن موضوع اللقاء ، ربما لأنه كان يعرف الرد السلبى لأميره (يعقوب) المنصور ،. وكل ما يقوله لنا ، هو انه يعتبر تلك الزيارة بمثابة اعلان خضوع من جانب صلاح الدين الى الخليفة المغربى ، فكأنه يمين الولاء والطاعة ، كما يفعل التابعون بالنسبة لأمرائهم .

وبعد أن قدم الهدية من قبل صلاح الدين الى العاهل المغربى (١) ، عرض السفر الغرض من بعثته ، وهو : تدخل الأساطيل الموحدية قطع الطريق وحصار بلاد الكفار ، واستخلاص وتحرير بلاد المسلمين(٢) . حقيقه أن معركة عكا كانت على أشدها وأن صلاح الدين باسطوله الذى لا يكفى لم يكن يستطيع منع وصول الامدادات المسيحية . ولكن الذى يُدهش حقا هوان بطل الاسلام بالمشرق لم يكن يجهل من غير شك أن نظيره المغربى ، كان هو الآخر يعيش فى حرب مستمرة مع كفارالأندلس الذين كانت تساندهم إقطاعية فرنسية شغوفة بالمغامرات فى اسبانيا كما فى أراضى الشرق المقدسة. كما أنه لم يكن يجهل أن أمير المغرب كان فى حاجة الى تعبئة كل قواته البحرية والبرية حتى يستطيع مناخرة خصمه.وإذا كان الأمر كذلك فكيف يفهم طلب المعونة هذا من جانب صلاح الدين ؟ يمكن تذكر الهيبة المبالغ فيها ، كما قد يظن ، والتى كان يتمتع بها المجاهد المغربى . وهكذا كان صلاح الدين يرى أن الخطر المسيحى الذى يثقل كاهله قد يمكن أن يشاركه فى حمله إياه مناصفةً ذلك المدافع الآخر عن الإسلام . فالأرض المقدسة أليست تركة لكل المسلمين مهما كان شأنهم ؟ لقد كانت بلاد الشام الصليبية تستقبل المعونة المستمرة من أوروبا المسيحية ، والمشرق الاسلامى كان ينتظر بدوره معونة أكثر جدية من جانب المسلمين المغاربة . ولكن السفير المصرى ، رغم انه استخدم كل

---

(١) كانت الهدية تتكون من نسختين من القرآن الكريم بالخط المنسوب ، ومائة درهم من دهن البلسان ، وعشرين رطلا من العود ، وستمائة مثقال من المسك والعنبر الأشهب ، وخمسين قوساً عربياً مع أوتارها ، وعشرين حربة هندية وعدد من السروج المذهبة . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص٢٤٦ ، الترجمة ج٢ص ٢١٦ ، ابو شامه ، كتاب الروضتين ، ج٢ ص ١٧٣ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج١ ص ١٧٤ .

(٢) القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج٦ ص ٥٣٠ ، أبو شامة كتاب الروضتين ج٢ص١٧٠ وما بعدها ، وقارن ج.ديمومبين ، منوعات لاباست ، ج٢ ط ١٩٢٥ ، ص ٢٨٨ ، وانظر ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٦ ، والترجمة ، ج٢ص٢١٦ ، السلاوى ، الاسقصا ، ج١ ص ١٧٥ .

خذقه فى إغداق المدائح على يعقوب ، والإشادة بأمجاده (١) تلقى إجابة غير مناسبة . فهو على المستوى الشخصى كان راضيا من حيث اغداق الهدايا عليه ، ولكنه فشل تماما على مستوى المهمة التى أنيط بها (٢) . وإذا أردنا البحث عن تفسيرات لرفض يعقوب طلب صلاح الدين فإننا نجد منها الكثير ، وخاصة مسألة بنى غانية الذين آزرهم المماليك المصريون والتى انغمس فيها صلاح الدين بطريق غير مباشر ، ،كذلك عدم اعتراف صلاح الدين بلقب أميرالمؤمنين الذى حمله ملوك الموحدين (٣). ومع ذلك فهذه الأسباب تعتبر ثانوية إذا ما قورنت بالاسباب الأخرى الأكثر جدية . ففترة المرض التى مر بها المنصور لم تكن خطرة على حياته الخاصة فقط ،بل وعلى أمن أمبراطوريته أيضا ، فقبل التفكير فى معونة المسلمين فى الشرق ، كان عليه أن يوجه كل انتباهه الي الموقف الداخلى في دولته ، وان يقتل فى المهد كل محاولة ضد خلافية . ألم يقضى على أخيه أبى يحيى فى هذا الوقت ؟ وفوق ذلك فالمنصور ، بفضل موقفه الحرج كان لا يستطيع إلى اتمام هذا التعاون المرغوب . من كل مسلم ، فلقد كان فى حاجة الى كل قواته البحرية لكى يواصل الصراع ضد الثوار الميورقيين ، وهم القراصنة بالامتداد ، كما كان عليه أن ينقل قواته البرية الى الاندلس ، وحماية مواصلاته سليمة عبر المضيق كما كان عليه ان يستعين بالاسطول ضد مواقع الأعداء البحرية ، بل والدفاع عن الحدود

---

(١) انظر فيما بعد ، ص ١٠٣ ، ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٢٤٦ ، والترجمة ج٢ ، ص ٢١٦ – حيث ينسى المؤلف اصول التاريخ العلمى ، فيقول ان ابن منقذ اتم مهمته ، ولكن المنصور اعتذر بانه لا يستطيع تقديم اسطوله . وحسب رواية اخرى ، فإنه جهز بعد ذلك ١٨٠ (مائة وثمانين) مركبا ويمنع النصارى من الوصول الي سواحل الشام . انظر ج.ديمومبين ، خطاب صلاح الدين ، منوعات لاباست ، ج٢ ص ٣٠٢ .

(٣) ابن خلكان ، ج٤ ، ص ٣٨١ – حيث القول ان صلاح الدين خاطبه بلقب "امير المسلمين" وليس "امير المؤمنين" . وقارن ابو شامه ، ج٢ ص ١٧٤ ، السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٧٤ .

البحرية الاسلامية ضد كل خطر يأتي من العدو البحرى ، مثل ذلك الذى وفد من الانجليز الصليبيين الذين أدى تدخلهم الى سقوط شلب ، فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٦م) . ان الأحداث التالية تبين أنه لم يكن على خطأ ، أن الانتصارات المدوية التي أحرزها يعقوب فى الأندلس لا تقلل أبدا من قيمة حساباته.

عودة هجومية للأعداء وانتصار "الأرك" المدوى (٥٩١هـ / ١١٩٥م):

فى سنة ٥٩٠ هـ (٤-١١٩٣م) ، كان يعقوب فى موقف حرج ، وذلك أن الولايتين النائيتين شرقا وغربا : افريقية والأندلس ، سقطتا فى هاوية الفوضى. فمنذ أن ابتعد عن افريقية ، انفسح المجال أمام كل من قراقوش ويحيى بن غانية لكى يثيرا الشغب والفوضى في البلاد ، وكانت قوة الثانى تزداد شيئا فشيئا مع مرور الوقت . وهكذا، فعندما حذره والى افريقية السيد : أبو سعيد بن أبى حفص فى سنة ٥٩٠ هـ (٤-١١٩٣م) ، قرر يعقوب العودة الى افريقية لاقرار النظام . ولكنه وفى نفس الوقت انقضت هدنة الخمس سنوات المعقودة مع ملك قشتاله فى سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩م) فى مراكش ، والتى صدّق عليها مرتين ، فى أشبيلية سنة ٥٨٦ (١١٩٠م) وفى المغرب سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١م) ، وذلك فى نهاية سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤م) (١) وعندما عرف ملك قشتالة بموقف يعقوب الصعب فى افريقية (٢) ، حرق الهدنة قبل فترة وجيزة من نهاية السنة (٣) . وبدأ حسب السيناريو المعتاد بغاراته التخريبية فى الأراضى الاسلامية، من حصار القلاع ، وتخريب المزارع ، وقطع الأشجار ، وباختصار تخريب البلاد ونهبها (٤). وفى نفس الوقت أرسل الى يعقوب مطالبا بعدد من المواضع الحصينة المتاخمة لبلاد قشتاله (٥).

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٥ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٨ ، ابن خلكان ، ج٣ ص ١٧٦ .
(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٨ ، القرطاس ، ١٤٥ .
(٣) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٦ ، ونفس المعلومة ينقلها السلاوى فى الاستقصا ، ج١ ص ١٧٦ .
(٤) المقرى ، نفح الطيب ، ج٢ ص ١٨٠ - حيث النص على أنه فى سنة ٥٨٩هـ (١١٩٣) قام رئيس اساقفة طليطلة على راس منظمة كلاترافا (Calatrava) بغارة فى أراضى جيان وقرطبة . وفى سنة ٥٩٠هـ (١١٩٤) قام ملك قشتالة بنفسه بغزو البلاد ، انظر كلوريو سانشز - البورنوز ، اسبانيا الاسلامية (بالاسبانية) ج٢ص ٢٦٦ ، بدروا جوادو بلاى ، تاريخ اسبانيا المجمل ، ج١ ص ٦٤١.
(٥) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٦ ، المقرى ، ج٢ ص ١٨٩ (الاستقصا ، ص ١٧٦) .

. كما ارسل خطابا الى الأمير الموحدى (١) ، وهذه الرسالة كانت مدبجة بمعرفة وزير الفونسى : ابن الفخّار (٢) ، الذى كان قد صدّق على الهدنة باسم سيّده سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١) بمراكش (٣).

ولكن المؤرخين يجعلون لتلك الرسالة مضموناً مليئا بالإثارة بشكل غير معتاد الى جانب اداعاءات غير معقولة ، الأمر الذى لا يجعلها بذلك الشكل من عمل دبلوماسى معروف مثل ملك قشتاله ، الذي كان حريصا على إقامة علاقات سلمية مع العاهل المغربى ومثل هذه الرسالة لا تكون إلا نوعا من الدعاية المضادة للملك المسيحى ، مصطعنة بهدف بإثارة خواطر المسلمين ودفعهم الى الحرب المقدسة ضد عدو تصوره كشيطان مخوف . فالملك المسيحى لا يسعى إلاّ الى إذلال الأمراء المسلمين بالأندلس عندما يدعى انه فى الماضى كان المحارب المسلم يقاتل عشرة مقاتلين مسلمين ، والآن جاء الوقت الذى يستطيع المحارب المسيحى أن يقاتل عشرة من المسلمين ويهزمهم . . وكان ذلك يعتبر قذفا فى الدين الاسلامى (٤). هل تردد الأمير الموحدى فى الذهاب الى اسبانيا لمحاربة ملك قشتالة ؟ ان هذا الأخير يسهل عليه الأمر فى رسالته ، إذ يقول أنه ليس على الموحدي إلاّ أن يرسل اليه المراكب لكى تنقل محاربيه الى المغرب ، حيث ينقل القتال الى قلب الدولة العدوة ، فإذا انتصر يعقوب فانه سيضع يده على مغانم كثيرة ، أما اذا انتصر الفونس على خصمه فإن هذا الأخير يخضع له ويصبح هو "رئيس الملتين" (٥).

ومن وجهة النظر الدعائية ، فإن رسالة بهذا المحتوى أو مثيلاتها من نفس

---

(١) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٦ ، ابن الاثير ، ج٣ ص ٧٣ ، القرطاس ، ص ١٤٥ (السلاوى ، الاستقصا ، ج١ ط ١٧٦).

(٢) ابن خلكان ج٣ص٣٧٦ - حيث وصف ابن الفخّار بانه من المسلمين الضعاف الايمان ، وقارن المقرى ، ج ٢ ص ٤٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٦ . حيث القراءة : ابن العجّار ، ولكن القراءة فى ص ٨٥ صحيحة : ابن الفخّار.

(٤) انظر القرآن الكريم ، سورة رقم ٣ آية رقم ٦٦ .

(٥) ابن خلكان . ج٣ ص ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ابن الاثير ، ج٣ ص ٧٣ ، القرطاس ، ص ١٤٥ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج١ ص ١٧٦ ، ابن ابى دينار ، ص ١١٥ .

النوع ، كالتى يقال انها ارسلت من قبل ملك قشتاله الى ابن عباد وابن تاشفين عقب سقوط طليطله سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) تؤلف مضموناً متكاملا (١) .

ورغم أن أصالتهما موضع الشك ، فإن الرسالتين تلقيان بالضوء على الحالة النفسية التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، من حيث : غليان الرأى العام فى الأندلس أمام الهيمنة المتعاظمة من يوم الي آخر ، لملك قشتالة (٢).

وتريد الاسطورة أيضا أن يكون يعقوب قد مزق الرسالة وكتب على ظهر قطعة منها : "ارجع اليهم فلتأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة ، وهم صاغرون" (٣) ، والجواب لن تقرأه بل سوف تراه ، وكتبنا ستكون السيوف والحراب ، ورسلنا : جيش كبير (٤) فى هذا الجو المكفهر ترك يعقوب بلاد افريقية لمصيرها ، وحول جيشه نحو مكناسة (٥) ، حتى يذهب للجهاد الحقيقى فى سبيل الله ، ويلزم العدو حدود الاحترام .

وبعد أن أعد العدة لحرب واسعة المدى عبر المضيق فى احتفال كبير يوم الخميس ٢٠ جمادى الثانية ٥٩١ هـ (أول يونيه ١١٩٤م) . وبقى فى طريقه يوما واحداً ، قبل أن يتجه الى اشبيلية . وفى العاصمة الأندلسية : أشبيلية تقرر أن يكون مركز قيادته وذلك فيما وراء باب جهور ، فى الضاحية ، حيث كان استقبال العامة له ، وفى يوم الخميس ٢٧ (جمادى الثانى (٧يونيه) أقيم احتفال لاستقبال الخاصة من الملأ وفى اليوم التالى قام بدورة تفتيش فى المدينة

---

(١) نفس الرسالة التى كانت قد انشئت باسم ملك قشتالة لترسل الى يوسف ابن تاشفين . ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ ، الحلل ، ص ٢٥ ، ٢٩ ، المقرى ، ج٢ ص ١٧٩ . ابن خلكان ، يقدم أولاً هذه الرسالة وكأنها مرسلة أيضا الى يوسف بن تاشفين ولكنه لا يفصل فى المسالة ، إذ يقول : والله أعلم .

(٢) لكى يحرض المنصور المحاربين ، أمر بقراءة هذه الرسالة أمام الموحدين والعرب والزناتية وغيرهم – القرطاس ، ص١٤٥ .

(٣) قرآن كريم سُوره ٢٧٥ آية ٣٦ ، ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٧٣ ، والترجمة ص ٦٠٩ ، ٦١١ ، ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ .

(٤) نفس الهامش . ويقول صاحب القرطاس ان الردّ كان قد عهد به الي ولى العهد : ابو عبدالله محمد ، الذى كان غلاما حدثا ، فكتبه بخط يده ، الأمر الذى أسعد والده كثيرا (ص ١٤٥) ، ابن أبى دينار ، ص ١١٦ ، السلاوى بالاستقصا ، ج١ ص ١٧٦ .

(٥) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٥ والترجمة ، ج ٢ ص ٢١٣ ، ابن عذارى، مجهول ، ص ٦٨ .

، فزار فى الصباح حصن الفرح الخلافى ، لكى يعود الى المسجد الجامع حيث حضر احتفال صلاة الجمعة (١) . وفى يوم السبت استعرض قواته ، بصحبة الوزراء ، وعدد من أفراد العائلة الملكية ، فمر بين ،صفوف المجاهدين ، فى معداتهم الحسنة ، ووسط القبائل فى ثيابها المتأنقة ، وإعلانا عن سعادته بتمام المعدات وحسن النظام السائد بين قطعات الجيش أمر بصرف الرواتب ، ثم أنه جمع كل قواته المخصصة لتنفيذ العمليات الحربية ، وسار بها يوم الاربعاء ١١ ربيع سنة ٥٩١ هـ (٢٢ يونيه ١١٩٣م)(٢) ، نحو قرطبة محازيا لنهر الوادى الكبير (النهر الأعظم) . ووصل قرطبة يوم الجمعة ١٩ من نفس الشهر (٣٠ يونيه) ، حيث أقام ٣ أيام لكى يخرج منها يوم الثلاثاء ٢٣ (٣ يوليه) فى اتجاه قشتاله (٣) . ووصلت عناصر متقدمة من الجيش أمام حصن "قلعة رباح" (Calateava) الحصينة على الطريق فيما بين قرطبة وطليطلة (٤) ، واستولت على الموضع دون قتال ، بعد هرب الحامية المسيحية (٥) وطهر المسجد (٦) من الدنس الذى أصابه خلال الـ ٥٢ سنة من الاحتلال المسيحى ، وأدى فيه يعقوب الصلاة.

وبعد أن أقر فيه حامية وضع على رأسها القائد أبو الحاج ابن قادس (٧). واستمر الأمير فى مسيرته ، وفى نفس المنطقة وجد الخصمان نفسيهما وجها لوجه ، بالقرب من القلعة المحصنة ، المعروفة بالأرك (Alarcos) (٨).

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٩ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٩ ، الحميرى ، الروض المعطار، النص ص ١٣ والترجمة ص ١٨ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول، ص ٦٩ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج٢ ص ٢١٣ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٦٩ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٦٣ والترجمة ١٩٦ .

(٥) نفس المصادر ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٥ .

(٦) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٦٥ والترجمة ص ١٩٦ .

(٧) نفس المراجع .

(٨) عبدالواحد ، المعجب ص ٢٠٥ – حيث تسمية الموضع بالفحص الجديد ، وابن الاثير ، ج١٢ ، ص ٧٤ ، وابن خلكان ، ج ، ص ٣٧٧ ، يسميانه مرج الجديد ، وهو حاليا :سانتا ماريادى الاركوس " ، علي ٧(سبعة ، مراحل غرب "شيوداريال" (المدينة الملكية). انظر زيبولد ، جغرافية موقع كل من الزلاقة (Sacralias– ١٠٨٦ والاركوس– ١١٩٥ ، المجلة الاسبانية ، الجزء ١٥ ، ١٩٠٦ ، ص ٦٤٩ ، ٦٥١ .

وعند رؤية العدو ومعداته ، جمع يعقوب عساكره وأمر وزيره أبا يحيى بن أبى محمد بن ابن أبى حفص ان يوجه اليهم باسمه خطبه زهدية بمناسبة الجهاد وتم ذلك التحريض على الجهاد فى ليلة المعركة ، وطلب الأمير أمام الرجال الرحمة من الله ، ودعاهم الى الاستغفار ، والمسامحة من بعضهم البعض ، والتضحية بأرواحهم فى سبيل الله . وبلغ تأثر الرجال الى حد انخراطهم فى البكاء (١) وطلبوا بدورهم السماح من الأمير. ثم انشأ القاضى ابو على بن حجاج حظية الجهاد ، معظم جهاد عدو الله (٢). وبعد أن تسلح الرجال معنويا ، صدر اليهم الأمر بالاستعداد للقتال فى ساعة مبكرة من الصباح.

وفى يوم المعركة ، الأربعاء ٩ شعبان (١٩ يوليه ١١٩٥م) (٣) ، انزل المسلمون مهماتهم الثقيلة فى المعسكرات ، وتحركوا متقدمين نحو مراكزهم الاستراتيجية المختازة من قبل ، كل فرقة فى مكانها المخصص . والظاهر ان يعقوب لم يكن يعرف فكرة واضحة عن خطة المعركة . فقد قبل الأندلسيين من بين مستشاريه ، وكان يستمع لهم بانتباه على أساس أنهم أعلم منه بفن قتال النصارى . فأحد الأندلسيين هو الذى تذكر الخطة الاستراتيجية التى استخدمها ابن تاشفين سابقا فى انتصار الزلاقة (٤)، فنصح الأمير بالابتعاد قليلا عن ميدان المعركة ومعه الموحدون ، فلا يظهر إلا فى اللحظة الحاسمة (٥)

---

(١) نفس الهامش السابق.

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٠ ، ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى مجهول ، ص ٧١، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١١٣ والترجمة ١٨ ، القرطاس ،ص ١٤٨ ، ابن خلكان ، ج٣ص ٣٧٧ ، ابن الاثير ، ج٣ص ٧٤ ، المقرى ، ج٢ ص ١١٨٩ ، ابن ابى دينار ، ص ١١٦ ، اول موسوعة تاريخية (Prime Cromica General) ج١ ص ٦٨١ (١٥يوليه ١١٩٥).

(٤) خطة الزلاقة تلخصت فى تقسيم القوات الاسلامية الى قسمين : أهل الاندلس ، وأهل اللثام المغاربة ، والاول على رأسهم ابن عبُاد كان عليها إطالة الصراع مع العدو حتى انهاكه والسماح للآخرين (المرابطين) وعلى رأسهم ابن تاشفين بمداهمة العدو والقضاءعليه . انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ٩٤٠٩٣ ، ابن خلكان ، ج٣ص ٤٥٣ – ٤٥٤ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ٩٢ ، القرطاس ، ص ٩٥ ، الحلل ، ص ٤٤ ، المقرى ، ج ٢ ص ١٨١ . وانظر دوزى ، المسلمون فى اسبانيا ، ج٣ ، ص ١٢٧ – ١٢٨ ، وانظر للمؤلف ، تاريخ المغرب العربى ، ج٤ ص ٣٠٢ وما بعدها.

(٥) القرطاس ص ١٤٧ .

. وهكذا كان على يعقوب ان يقف في مركز قيادته خلف الجمهرة الكبرى من الجيش ، ومعه القوات الموحدية الخالصة ، والحرس الخاص من العبيد السود. وكان للوزير أبى يحيى القيادة العامة ، وهكذا أعطاه الأمير رايته الخاصة (١). وكان القواد التالون لأبى يحيى هم ابن صناديد قائد القوات الأندلسية ، وجنون بن رياح قائد الوحدات العربية ، ومزيب المغراوى لقيادة مغراوة ، ومحيو بن أبى بكر لمديونة ، والتجينى لهسكورة ومصمودة ، ومحمد بن نواقد لغمارة ثم الحاج أبو حرز لقيادة المتطوعة (٢) . وحسب الخطة كان الغز ورماة السهام يكونون المقدمة ، والأندلسيون الجناح الأيمن ، وزناته والعرب وغيرهم من قبائل المغرب الجناح الأيسر ، وكان الوزير القائد ابو يحيى وقبيلته القوية يحتلون مركز القلب فى الوسط (٣).

ومن الجانب الآخر كان لدى ملك قشتالة جيش لا يعد ولا يحصى (٤) . وكان على الفرنسيين الذى يأتون الى اسبانيا بحثا عن المال أن يخدموا فى صفوف أبناء دينهم ، كما جرت العادة ، فكان منهم من شارك فى المعركة . هذا ، وكان الجيش المسيحى يحوى فوق ذلك جماعات من المنظمات المسيحية الجديدة، مثل : راخوان كلاترافا (Calatrava) ، والقديس جاك دى كومبوستل (سانتياجو)، والكانتار (Alcantare) والمارتيزا (Martesa) ، منظمة سان جوليان المكوّنة على نسق غيرها من النظم الدينية فى الأراضى المقدسة ، مثل اخوان المعبد التامبلية (Templiers) والهوسيتبالية ، وكانت هذه النظم الجديدة تكون الجزء الأكبر من الخيالة (٥) . ومن حسن الحظ أن

---

(١) القرطاس ، ص ١٥٠ – وكانت راية بيضاء ، يقرأ فيها :"لا إله إلا الله . محمد رسول الله . لا غالب الا الله" .

(٢) القرطاس ، ص ١٤٨ .

(٣) القرطاس ، ص ١٤٩ .

(٤) القرطاس ، ١٤٩ (ابن ابى دينار ، ص ١١٠) – حيث النص على ان جيش الفونس كان يبلغ ٣٠٠,٠٠٠ رجل من الخيالة والمشاة (الرجالة) .

(٥) قارن اسبانيا المقدسة (Espana Sagrada)، ج٣٥ ، ص ٢٣٦ ، ٣٣٩ ، القرطاس ، الترجمة ١٣٧ .

موقف الجيش المسيحى كان قد رتب فوق أكمة ، كموقع استراتيجي يشرف على جميع السهول المحيطة(١) .

وعند وقف المحاربون المسلمون فى مواقعهم الخاصة بالقتال كان رؤساؤهم يمرون بين الصفوف لتحريضهم على القتال (٢) . واعلن يعقوب أن كل من أخذ غنيمة من العدو فهى له ، إلا السلاح (٣) .الذى ينبغى أن يسلم الى بيت المال (٤)، وكان ذلك يعنى خروجا على القاعدة القانونية ، الخاصة بتوزيع المغانم ، ولكن هذا ما اقتضاه الموقف الحرج فى ميدان القتال .

وعندما أعطى يعقوب إشارة الهجوم ، هاجمت خيالة المسلمين العدو ، وأزاحته عن مواضعه ، وأثارت الاضطراب فى صفوفه (٥). ورغم ذلك لم يفقد المسيحيون هدوءهم . فقد رأوا القائد العام للقوات الاسلامية ، الوزير أبا يحيى تحت الرايات الخلافية ، واعتقدوا أنه الأمير الموحدى ، وقامت احدى فرقهم بهجوم عنيف على الموقع الذى يحتله ، مخترقين صفوف المسلمين (٦) . وبعد قتال بطولى استشهد أبو يحيى فى الملحمة (٧).ومع ذلك فقد ظل الطرفان يتقاتلان بعناد شديد . ولم يكن أحدهما متأكدا من نتيجة المعركة فى بداية القتال ، ولكن ظهور يعقوب وعساكره من الموحدين فى الوقت المناسب ، تغير الموقف فبعد ان كان ميزان المعركة يميل ضدهم انقلب الحال ضد المسيحيين (٨) .

---

(١) القرطاس ، ص ١٤٨ .

(٢) القرطاس ، ص ١٤٩ .

(٣) ابن الأثير ، ج٣ ص ٧٥ .

(٤) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ .

(٥) نفس المصدر السابق.

(٦) ويقدر مؤلف القرطاس هذه الفرقة(عقدة) بما يتراوح ٧ آلاف أو٨ الاف فارس.

(٧) القرطاس ،ص ١٤٩ ، المقرى ج٢ ص ١٨٩ ، عبدالواحد ، المعجب . ص ٢٠٥ ، ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٧٤ ، وسمى خلف أبى يحيى ببنى الشهيد ، انظر ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٤٥ ، والترجمة ج٢ ص ٢١٢ .

(٨) وهكذا قالت بعض الحكايات أن هذا النصر أتى على سبيل الصدفة فالنصارى بعد ان ستولو على عدد من الرايات الموحدية ساروا بها مرفوعة فوق رؤسهم وسط ميدان القتال ، وظنت بعض القبائل الموحدية ان الرايات الموحدية تتقدم لمهاجمة النصارى فاندفعت هى الأخرى نحو العدو (الحميرى ، الروض المعطار ، النص . ص ١٣ والترجمة ص ١٨-١٩) .

مع ظلام الليل (١) .وكانت هزيمتهم تامة ، فقد هرب الفونس مع عدد قليل من اتباعه (٢) .تاركين الجزء الأكبر من جيشه فى ميدان المعركة (٣) وفى التو واللحظة نهب عسكر العدو (٤) .أما عن عدد الأسرى فكان قليلاً ، حيث لم يكن من المعتاد أخذ الأسرى عند الموحدين ، فكل من كان يسقط بين أيديهم كان يقضى عليه بالسيف (٥) .أما الغنمية فكانت عظيمة ، منها: آلاف من التروس ، ومجموعات من الزرد الكامل ، واعداد لا تحصى من الماشية ، وحيوانات الركوب (٦) .ومن الناحية الأخرى فكل شيء يوحي بأن خسائر المسلمين كانت ثقيلة هى الأخرى (٧) .هذه المعركة التى تقارن بالزلاقة كانت حاسمة بالنسبة للعلاقات بين دولة يعقوب "المنصور بفضل الله" الموحدى ومملكة قشتالة .فلقد ضعفت هيبة هذه الأخيرة بشكل واضح ولم يعد

---

(١) ابن خلكان ، ج٣ص٣٧٧ :

(٢) ابن خلكان ، ج٣ص٣٧٧ والمقرى (ج٢ ص١١٩٠) يقولان أنه هرب فى جماعة صغيرة من اعوانه ، بينما يقول ابن عذارى (مجهول ، ص ٧١) والحميرى (الروض المعطار ، ص ١٣) يقولان انه هرب فى مجموعةمن ٢٠(عشرين) محاربا ، وعبدالواحد يروى انه هرب فى مجموعة من ٣٠ (ثلاثين) مقاتلا (المعجب ص ٢٠٥) وقارن التاريخ الأول العام (بالأسبانية –ج١ص٦٨١) .

(٣) حسب ابن عذارى ، مجهول ص ٧١، والحميرى (الروض المعطار ص ٧٣ والترجمة ص ١٨) ، ابن خلدون (العبر ، ج٦ص ٢٤٥، والترجمة ، ج ٢ ص ١٨) – حيث ٣٠,٠٠٠مسيحى استلحموا . وابن الاثير (ج١٢ص٧٥) يبالغ من غير شك عندما يقول ان عددهم (قتلى جيش الفونس) ١٤٦,٠٠٠) .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧١ ، والحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ .

(٥) ابن خلكان ،ج٣ص ٣٧٧ . وهنا تجدر الاشارة الى ان المسيحيين عاملوا الموحدين بالمثل ، ففى معركة العقاب (Las Navas de Tolsa) لم يؤسر موحدي واحد ، فقد بقي الجميع فى ارض المعركة ، فقد نادى ملك قشتالة ان من ياخذ اسيرا يقتل ضربا بالسلاح . القرطاس ، ص ١٥٩ .

(٦) ابن خلكان (ج٣ص٣٧٧) والمقرى (ج٢ص١٩٠) ان بيت المال جمع ٦٠ الف ترس . ابن الأثير (ج١٢ص٧٥) يقدم لنا ارقاما مرتفعه فى نظره عن المغانم الهائلة التى سقطت بين أيدى المسلمين : ١٤٣,٠٠٠ خيمة ، ٤٦,٠٠٠ حصان ، ١٠٠,٠٠٠ بغل ، ١٠٠,٠٠٠ حمار ، ٧٠,٠٠٠ زرد كامل.

(٧) ابن الأثير (ج١٢ص٧٥) يقول أن خسارة المسلمين بلغت ٢٠,٠٠٠ قتيل، ومع ذلك فإبن عذارى (مجهول ص ٧١) والحميرى (الروض المعطار ،ص١٣ والترجمة ص ١٨) يقدمون رقما اقل بكثير ، ففى نظرهم لم يكن هناك إلا ٥٠٠ قتيل فقط) .

الفونس قادراً بعد ذلك على منافسة المنصور.

ومع ذلك ، فلم يعرف المنصور استغلال انتصاره المدوى . فبقايا الجيش المسيحى المعتصمة بحصن الأرك لم تستسلم دون شروط للمسلمين . فاللاجئين الى الحصن وعددهم خمسة آلاف رجل انتهى أمرهم بالحصول على اتفاقية تقضى بتبادلهم مع عدد مماثل من الأسرى المسلمين (١) . وبطبيعة الحال لم يتم تحرير الأسرى فى التو واللحظة ، فالأسرى المسلمون لم يكونوا من أسرى الأرك ، ولكنهم كانوا من الأسرى القدماء . وهكذا كان على المنصور أن يحتفظ ببعض من الأسرى كرهائن حتى يتم تنفيذ شروط الاتفاقية . وهؤلاء الرهائن رحلوا الى كل من اشبيلية والرباط (٢) . هذا ، كما أن المنصور امتنع من ناحية أخرى من الدخول أكثر فى عمق قشتالة . ويتلخص تفسير ابن خلكان فى ان كثرة المغانم كانت السبب فى ذلك ، وهو الأمر غير المقنع (٣) . فمن الواضح أن العاهل الموحدى إذا كان قد بقى فى اشبيلية بعد المعركة فلأنه لم يكن متأكداً من قوته ، ولأنه كان يخشى مواجهة مغامرة جديدة قد لا يضمن نتيجتها ، ونحن نلاحظ على الأقل ان المنصور كان مهتما بدفع قواته غير المنسجمة والمتعبة من حّر القتال الصعب حتى لا تنظر الى الخلف

(١) ابن عذارى ، مجهول ص ٧١ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، والترجمة ، ص ١٨ . فمن جانب كل من المسلمين والمسيحيين تم العمل على تخفيف آلام الحروب بفضل فئة الرجال من أصحاب النوايا الحسنة ، مثل رجال النظم الدينية من الجانب المسيحى ، وأهل الخير من الجانب الاسلامى مثل من اسمه محمد بن عبدالله بن سليمان (ت ٥٩٨ – ابن الآبار ، التكمله ، رقم ٨٦٣ ، الذى وهب نفسه لشراء حرية الاسرى . ونحن نمتلك أيضا رسالة من البابا موجهة الى يعقوب يدعوه فيها الى تقديم كل التسهيلات لرجال الدين فى نظام جديد اسمه "التثليث المقدس" يعمل على شراء حرية الأسرى المسيحيين (دى ماس – لاترى ، ص ٨ ، د. برونشفيج ، بلاد البربر الشرقية ، على عهد الحفصيين ، ج١ ص ٤٤٥).

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ٧١ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٣ .

وتتبدد ، وهكذا فعندما وصل الى اشبيلية يوم الثلاثاء ، ٢٧ شعبان ٥٩١ (٧أغسطس ١١٩٥) ، سمح بتسريح المقاتلين مع الأمر بالبقاء على استعداد للحرب عندما يوجه اليهم أول نداء لحمل السلاح (١) . فلقد أمر الخليفة كاتبه أبا الفضل بن أبى طاهر (٢). بارسال خطابات قصيرة ، تدعو الرعية فى كل ارجاء الدولة بالسرور بأنباء انتصارات الدين الصحيح على الكافر(٣).وقضى يعقوب المنصور الشتاء باشبيلية وهو مشغول بأعمال البناء ، من :أقامة القلاع المحصنة ، وأعمال الخير (٤) . فقد أمر ببناء قلعة على نهر اشبيلية الكبير (الوادى الكبير). وعندما تم البناء أقيم حفل كبير ، تغنى فيه الشعراء بالانتصار الباهر فى آلاركوس (٥).

الحملة الثانية:

وفى السنة التالية ، رفض يعقوب أن يعقد الهدنة لألفونس ، وقرر ان ينقل ميدان القتال الى أرض قشتالة (٦) . واستشار خبراءه العسكريين عن أفضل خطة لمهاجمة العدو فى موضع القلب . ثم انه سار فى اتجاه الشمال عند حلول فصل الربيع وتحسن الأحوال الجوية وذلك فى يوم الجمعة ١٤ رجب ٥٩٢ هـ (١٤يونيه ١١٩٦م) وتقدمت العناصر الأندلسية عملية الزحف ووصلت الى قلعة انطاش الحصينة ، وضربوا حولها الحصار ، وبدأوا فى مهاجمتها . ودافع المحاضرون فى اليوم الأول ، ولكن عندما وصلت القطعة الكبرى من الجيش

(١) وفيات الاعيان ، ج٣ ص ٣٧٧ .

(٢) ابو الفضل بن جعفر محمد بن تميم القيسى المعروف باسم ابن محشرة .انظر ا- ليفى -بروفنسال رسائل موحدية ، الدراسة ، ص٩) .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٩ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٣ .

(٥) عبدالواجد ، المعجب ، ص ٢١٣ ، المقرى ، ج٢ص١٠٧٩ ، وانظر فيما بعد ، ص ٢٥٠ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ٢٣١ ، والدراسة ، ص ٦٦ .

الموحدى طلبوا الأمان على الشروط المعتادة ، من : ترك المكان والخروج الى بلادهم . وعندما أتتهم الموافقة استسلموا للمنصور ، الذي سأل عن الوسيلة الأفضل لتنفيذ الاتفاق ، وسير القائد ابا عبدالله بن صناديد فى صحبة الأسرى ليضمن وصولهم الى أرض النصارى بأمان . ولكنه للأسف وقع حادث مزعج ، اذ انقضت جماعة من العرب غدرا على المسيحيين التعساء ، فقتلوهم حتى آخرهم ، واستولوا على نسائهم وأطفالهم (١) . واغتاظ المنصور لعمل العصابات هذا ، وخرق الاتفاقية غير المشرف ، وسار بنفسه لمعاقبة المسئولين ، فقبض عليهم وألقاهم فى السجن ، واستعاد النساء والأطفال المأسورين ، وأرسلهم الى بلادهم (٢).

وبعد ذلك حاصر يعقوب مدينة تروچيللو ، عاصمة الثغر الشمالى . وعند وصول الموحدين هجر السكان المكان ولكن طوردوا من قبل المحاربين المسلمين فلم يتمكن من الإفلات إلا عدد قليل منهم (٣) . وكذلك كان الأمر بالنسبة لأهل شنتقروس (Santa Crus) الذين اضطروا الى الهرب ، وقع موضعهم بين أيدى الموحدين (٤) . وبعد ذلك عبر المنصورنهر التاجه وتقدم عبر بلاد النصارى حتى مدينة إبلتانسيا (Plasoncia) (٥) . لتى كان يدافع عنها جماعة من أهل الشمال . ولقد هرب أهل المدينة بينما اعتصم اهل الحامية

(١) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٤ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٣٢ والدراسة ، ص ٦٦ وابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٤ ، الحميرى الروض المعطار ، ص ١٣ والترجمة ١٨ ، ابن خلدون العبر ، ج٦ ص ٢٤٥ ، والترجمة ج٢ص٢١٤ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ٢٣٢ ، والدراسة ، ص٦٦ .

(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٣٣ ، والدراسة ، ص ٦٧ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، والتاريخ الأول العام (ج١ص٦٨٢) وضع بشكل عشوائى احداث الغزوة الثالثة ليعقوب .

بالقلعة واستولى الموحدون على الموقع ، ونهبوه ثم انهم أخذوا القلعة بعد ذلك عنوة ، وهنا حاول المحاصرون الالتجاء الى برج قوى البناء ، ولكن زخات السهام الموحدية التى سقطت عليهم منعتهم من الاستمرار فى المقاومة إلا لليلة واحدة ثم إنهم أخذوا أسرى فى اليوم التالى . وأرسل هؤلاء الأسرى الذين بلغ عددهم ١٥٠ (مائة وخمسين) رجلا الى المغرب للعمل فى بناء المسجد الجامع بسلا ، وذلك جنبا إلى جنب مع أسرى آلاركوس (الأرك) (١) . ثم سار يعقوب بعد ذلك الى مدينة طلبيرة فى منطقة طليطلة ، وخربها ، إغراقا فى النار والدم (٢) . وبعد ذلك اتجه نحو طليطلة ، عاصمة قشتالة ، وهو يخرب كل ماعلى طريقه . وعندما وصل الى المدينة عبر طرق غير متوقعة ، لشدة دهشة النصارى (٣) ، ضرب معسكره شماليها ووقعت المدينة وأرباضها ضحية لعمليات تخريبية منظمة (٤) ، حيث عهد الى كل قبيلة بالعمل فى منطقة محددة (٥) . ولكن المدينة الحصينة قاومت المهاجمين ولم تسقط أبداً . وهكذا ، كان على المنصور ان يعبر نهر تاجه من جديد ، وهو يخرب على طول الطريق ما كان يصادفه من القصور الريفية (المنيات) الخاصة بألفونس (٦).

(١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، الترجمة ص١٨ (الاستقصا ، ج١ص١٨٠).

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٣٤ ، الدراسة ٦٧ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص٧٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٥ والترجمة ، ج٢ص٢١٤ ، وانظر التاريخ الاول العام (Prima Cronica General) ج١ص٦٨٢ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٣٦ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٦ ، ابن خلكان ، ج٣ص ٣٧٧ ، ابن الاثير ، ج١٢ص٧٥ ، ابن عذارى مجهول ، ص ٧٤ – ٧٥ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج٢ ص ٢١٤ ، الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ، الترجمة ، ص ١٨ .

(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٣٦ ، ابن عذارى ، مجهول ص ٧٤ – ٧٥ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ٢٣٧ ، الدراسة ص ٦٧ . وتقول الحوليات الطليطلية (Las Anles Toledanes) انه بعد ان خرب طلبيرة ، سار المنصور إلى سانت اولالا (Santa Olalla) وماكيدا (Maqueda) واسكلارا (Escalaras) قبل أن يصل أمام طليطلة (انظر ابن عذارى ، مجهول ، ص٧٦ ، والترجمة ، ص ٨٥ ولكن الرسالة الرسمية التى تعالج هذه الحملة لا تذكر تلك الاماكن .

ومن المهم الاشارة الى ان الضعف العابر الذى مرت به المسيحية الأيبيرية إزاء المنصور، يرجع فى معظمه الى عدم التآلف بين الملوك النصارى . فالممالك المسيحية لم تكن للتتفق فيما بينها ، كما ان هيمنة الملك القشتالى لم تكن تهديدا فقط بالنسبة للاسلام الأندلسى ، بل كانت كذلك خطراً على الممالك النصرانية الغيورة على استقلالها . ومنذ ١١٩١م (٥٨٧هـ) كان كل ملوك نافار ، وآراجون ، وليون ، والبرتغال يدافعون عن أنفسهم جند الفونسوا الثامن القشتالى (١) . فملك ليون ، الذى كان مخلصا دائما لمعاهدة الهدنة مع الموحدين ، كان يتربص بفرصة يثأر فيها من الملك القشتالى ، فكانت هزيمته في الأركوس هى الفرصة المناسبة . وهكذا عامل أرض قشتالة معاملة أرض الأعداء .فقد تم صنع تحالف بين ملوك قشتالة وأراجون من أجل مقاومة يعقوب ، والثأر من ملك ليون . وهكذا دخل الفونس الثامن القشتالى أراضى ليون وتمكن من أخذ عدد من القلاع . وعندئذ ألقى ملك ليون بنفسه بين ذراعى المنصور ، وتم تحالف هجومى غريب بينهما .فبينما كان المنصور يقوم بحملة سنة ٥٩٢هـ (١١٩٦م) فى مملكة قشتالة ، كان ملك ليون (الفونس التاسع) ، تابعه ، يطلب منه طابوراً اسلاميا من أجل غزو قشتالة من ناحية . ولبى المنصور النداء ، وسار جيش موحدى تحت قيادة ملك ليون ليقوم بغارات تخريبية فى بلاد العدو المشترك (٢).

وبعد أن أظهر المنصور هيمنته للمرة الثانية فى أرض قشتالة ، قرر العودة الى بلاد المسلمين ، وهو يستصحب معه أعداداً لا تحصى من الأسرى ،

---

(١) انظر ا.ويثى (A.Huice) ، حوليات المعهد العام والتقنى ببلنسيه ، دراسة عن حملةلانافاس دى تولورا (العقاب) ، ص ١ ، بدرو أجواد وبلي (Bleeye) ، التاريخ العام لاسبانيا (بالاسبانيه) ، ج١ص٢٤١ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٣٩ ، الدراسة ، ص ٦٧ ، وانظر التاريخ الاول العام (P.C.G .)ج١ص٦٨٢ .

والكثير من الماشية ، كما ترك آثار انتقامه فى كل مكان . وعندما كان الجيش الموحدى على بعد مرحلة من طليطلة وهو فى طريق العوده استولى على قلعة دار القاره (١) . بطربونه (Pidra Bunena) ، حيث كانت كثير من الحاميات النصرانية كثيرة العدد ، وكذلك بعض الجماعات الدينية العسكرية . وفى هذين المكانين اللذين تحولا الى رباطين وضعت حاميات اسلامية (٢) . وفى طريق العودة الأخير ، عبر يعقوب بجيان ، وقرطبة ، وباجه ، وقرمونه ، لكى يصل الى اشبيلية فى شهر رمضان ٥٩٢هـ (اغسطس ١١٩٦م) (٣).

الحملة الثالثة:

وقضى الأمير الشتاء مع جيوشه فى اشبيليه ، وكرّس جهده للأعمال الداخلية بالأندلس ، من : الإشراف الصارم على الدخل ، وانزال العقاب بالجباة المخطئين (٤) . وعند دخول فصل الربيع واعتدال الجو دعا رجاله الى حمل السلاح ، وترك اشبيليه يوم الاثنين ٢٤ جمادى ٥٩٣ هـ (١٤ ابريل ١١٩٧) لكى يشن الحرب على قشتالة (٥) . وبعد أن عبر الكرم اتجه نحو قرطبة . وكانت المحاصيل جيدة ، والمحاربون يعيشون عيشة سهلة . وفى قرطبة قسم المنصور جيوشه ، وتركها فى الأماكن الخصبة حتى تأخذ حاجتها من المواد الغذائية ، وكان عليها ان تنتظر فصل جنى المحاصيل فى بلاد النصارى ، حيث كان عليها الذهاب لتخريب المزارع واكتساحها (٦). وهكذا ، بعد أن

---

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٣٩ والدراسة ، ص ٦٧ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ٢٤٩ – ٢٤٠ .

(٣) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ ،والترجمة ، ص ١٩ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ص ٧٧ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص٧٧ .

(٦) نفس المصدر السابق .

جـدد يعقـوب معـداته ، سار فـى الطريق الى طلبيـرة . وهنا أرسل اليـه ملك قشتالة السفراء فى سبيل التفاوض من أجل الهدنـة . وبعد ان ناقش الموضوع مع مستشاريه لم يستطع المنصور اعطاء رد موافق . ثم انه تقدم نحو طليطلة التى لم يستطيع الاستيلاء عليها ، فعوض نفسه عن ذلك بتخريب ضواحيها . وعندمـا علم العـاهل الموحـدى بعد ذلك بأن كونت برشلونه كان قـد حضر لمعونة الفـونس ملك قشتالة فى حصن مجريط (مدريد) ، سـار لملاقاة هذا التحـالف المناهض له ، ولكن عندمـا وصل المنصـور الى الموضع حـارب العـدو منهزما ، وتحاشى محاولة الدخول فى معركة مع الموحدين (١) . وعند ذلك اتجه المنصور نحو الشرق ، وسار الى وادى الحجارة ، وهو يخرب بطريقة منظمة كل ما يصـادفه على الطريق . وعندمـا وصل الموحـدون اندفع بعضـهم نحـو المدينة التى كانت تعج بالمقاتلة ، وأمكن لهؤلاء الأخيرين ان يقوموا بهجمة خارجية مفاجئة ، وهزيمة مقـدمة الموحدين تلك . ولكن فى اليوم التالى ، وبعـد ان استعـد الموحـدون جيـدا للنزال ، ذهـل النصـارى ، ولم يجـرؤا على القتـال . وبعد أن تحرش الموحدون بهم عدة مرات بنجاح ، غادروا المكان (٢) . وصدرت عنـدئذ الرسـائل الى أرجـاء الامبـراطورية تعلن الأنبـاء السعيدة عن الغارات .

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٥ ، والترجمة ج٢ ص ٢١٤ – ٢١٥ وقارن التاريخ الاول العام (P.C.G.) ، ج١ص ٦٨٢ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٨ ، ابن أبى دينار ص ١١٦ .

التى تمت فى أراضى العدو (١).

وبعد ذلك قرر المنصوراتخاذ طريق العودة ، مروراً بوبذه ، وقونكه وأقليش ثم الكرسى (٢). ووصل الى قرطبة يوم ٢٧ شعبان ٥٩٣ هـ (١٥ يوليه ١١٩٧م) (٣). وبعد ان قضى عدة أيام خرج فى أوائل شهر رمضان (نهاية يوليه) نحو اشبيلية حيث استقر فى قلاعه المعروفة بحصن الفرج إلى نهاية الصيف . وخلال تلك الفترة اشتغل بالعمل فى إنهاء جامع أشبيلية . كما اهتم بالأعمال الخيرية . ثم إنه رجع الى اشبيليه نفسها حيث قضى مدّة أربعين يوما !. ومن الواضح ان الأعمال الجريئة التى قام بها المنصور فى اسبانيا، كان من نتائجها الكسوف المؤقت حقيقة . لهيمنة القوات المسيحية فى شبه الجزيرة ، وميلها نحو السلام . وهكذا ظهر وكأن عصر السيارات القشتالة والفتوحات والغارات ، والحماس والثقة بالنفس قد مّرت بالنسبة للأقاليم المسيحية التى لم يعد أهلها يأملون فى أكثر من الاحتفاظ بما بين أيديهم من البلاد . وهذا ما يفسر كيف أن ملك قشتالة طلب الهدنة من جديد . ولما رأى يعقوب أنه رغم تفوقه العسكرى لا يستطع القضاء على الفونس وحلفائه ، اكتفى بأن يوافق على هدنه لمدة عشر سنوات (٤).

وعمل يعقوب على تنظيم بلاد الأندلس وامدادها بالحاميات القوية ، قبل ان يعود الى عاصمة الدولة . وحوالى منتصف شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٤ (١٥مارس ١١٩٨) ، غادر اشبيلية، وفى أول جمادى الثانى (١٠ابريل) كان

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) انظر : التاريخ الأول العام (P.C.G) ، ج١ ص ٥٨٢ . والوثيقة ليست اكيدة عن هذه النقطة ، اذ انها تعتبر ان هذه الأحداث تكون جزءا من الحملة الثانية.

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٨ - حيث ملاحظة ان شهر رمضان مقدم غلى شهر شعبان ، وهو الخطا الذى يرجع الى الناسخ .

(٤) (ابن عذارى ، مجهول ، ص ٧٨ ، عبدالواحد المعجب ، ص ٢٠٦ ، ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٧٧ ، ابن الاثير ، ج١٢ ص٧٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص٢٤٥ والترجمة ج٢ص٢١٤ ، التاريخ الأول العام ، ج١ص٦٨٢ .

يعبر المضيق . وعندما عبر فاس أقام بها عشرين يوما ، قبل ان يتابع سيره نحو مراكش [1] ، حيث يموت في مطلع سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م).

ومما يؤسف له أن تقويم الاسلام في الأندلس لم يكن إلاّ حدثا عابراً عند وفاة يعقوب ، وذلك ان السيادة الضعيفة ظاهريا لم يقدر لها ان تستمر طويلاً. فبعد أقل من ١٥ (خمسة عشر) سنة حقق المسيحيون الانتصار الحاسم في موقعة حصن العقاب (Las Navas de Tolose) سنة ١٢١٢م (٦٠٩هـ) ، وهنا يكون كسوف الحكم الاسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية.

والحقيقة ان المنصور لم يعرف استغلال الظروف التي كانت مناسبة بالنسبة له ، الأمر الذي يعني أنه ترك الأحداث تحدد مساره أكثر مما حاول أن يطوعها لحساباته الخاصة. فتدخله في الأندلس لم يكن حاسما. ففي البرتغال عندما استعاد شلب ، اكتفى بتخريب منطقة في شنترين دون ان يتمكن من حصار المدينة – التي كان غزوها أملا عزيزا على قلب والده حتى أنه دفع حياته ثمنا لذلك . فهو لم يتمكن من استغلال الخلاف بين قشتالة ، ونافار ، وليون حينما كان الفونس واقفا وحده أمامه ، فنزلت به الهزيمة الأليمة ، وبذلك وجد نفسه عاجزاً عن حل المشكلة الأندلسية بشكل حاسم . فطليطلة ظلت تقاوم دائما ، والفونس الرهيب رغم ذلته لفترة ما ، فإنه ظل يترقب فرصة الإنتقام . وهكذا فإذا كان حلّ الوسط الذي تمت به معاهدات الهدنة مع الملوك المسيحيين بشبه الجزيرة ، مناسبة للموحدين في ذلك الوقت ، فإنه كان يؤدي الى القضاء على سياستهم فيما بعد سنوات قليلة . فرد فعل البابوية على عهد اتوسنت الثالث بصفة خاصة حيث كان يعتبر ان تحالف ملك ليون مع الموحدين يعتبر نوعا من الإهانة للذات المسيحية ، بدأ يؤتي ثماره . ففي سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢م) لن يلقى محمد ال ناصر بن يعقوب المنصور الفونس

---

(١) ابن عذاري ، مجهول ، ص ٧٨ .

وحده وجها لوجه ، بل سيجد نفسه أمام صليبية حقيقية كاملة.

بنو غانية فى افريقية:

ان افريقية التى كانت قد عرفت بالأمس القريب الغزوة الهلالية والغارات النورمندية العديدة من قبل صقلية ، ستصبح ضحية لتجربة من أصعب التجارب التى عرفتها على مّر الزمن : إنها غارة بنى غانية الملثمين ، أصحاب ميورقة والحقيقة أن افريقية لم تكن ميدانا خصباً للصراع بين المسيحية والاسلام ، بل أيضا بين المذاهب الاسلامية المختلفة . فبعد طرد الصقليين من البلاد ، وتحرير المواقع الاستراتيجية من وصايتهم ، وتجريد ملوك الطوائف من قوتهم ، كان من المتوقع ان تسود فترة من الأمن والنماء . ولكنه مما يؤسف له ان سارت الأمور فى مسار معاكس . فإذا كان المسيحيون فى ايطاليا قد بحثوا عن إقامة السلام مع الموحدين. (١)، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة لبنى غانية - فرع من المرابطين الميورقيين - الذين لم يخضعوا أبدا للموحدين.

ولكنه قبل التعرض للأعمال العسكرية التى قام بها الميورقيون بافريقية ، يجب القيام بعرض سريع عن سياسة الموحدين إزاء جزر البليار.

السمات العامة للإمارة الميورقية على عهد بنى غانية:

كان الموحدون قدا استولوا على ممتلكات المرابطين فىَ المغرب وفى الأندلس ، ولكن جزر ميورقة (المعروفة حاليا بالبليار) التى تحكمها أسرة بنى غانية من أمراء المرابطين صمدت فى وجههم (٢).هذه الجزر تقع تقريبا فى الطرف الغربى لحوض المتوسط ، وتحيط بها من الشمال ولاية البروفانس الفرنسية ،

---

(١) (ابن الاثير ، ج١١ ، ص٣٠٩ - حيث "فى سنة ٥٧٥هـ(١١٧٩-١١٨٠) اتى مبعوث من ملك صقلية لزيارة الأمير يوسف بالمهدية من أجل عقد معاهدة سلام لعشر سنوات" ، انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٢ والترجمة ، ص ٢١٨ .

(٢) أ.بل ، بنوغانية (بالفرنسية)، ص ١٧ وما بعدها .

والساحل الاسباني من الغرب ، والمغرب الأوسط من الجنوب ، وجزيرتي شردينيا وتورسيكا والساحل الايطالي من الشرق ، كانت تتكون من ٤ (أربع) جزر ، هي : الجزيرة الأم ميورقة (الكبيرة)، والثلاث الأخر ، هن : مينورقة (الصغيرة) ، وإفيسا ، وفورمنتيرا [١] . هذه الظواهر الجغرافية ، والتي لها هنا وهناك تأثيراتها على التاريخ السياسي ، ولم تكن تخفق ، كما سوف نرى ، في ان يكون لها تأثيراتها على الاخلاقيات الاجتماعية .إذ لما كانت الإمارة الجديدة محاطة بالبحر من كل مكان ، فإنها أصبحت قوة بحرية بطبيعة الحال . . ولماكانت محاطة بعدد من الدول الأعداء – مسيحية واسلامية – كان من الطبيعي ان يظل الميورقيون دائما في حالة تأهب ، والسلاح في أيديهم ، وهكذا لم يكن من الغريب ان نرى الدولة الجديدة تتحول من الدفاع الى الهجوم حسبما تسمح به إمكانياتها ، ونقل نشاطها الى ما وراء البحر ضد السواحل المجاورة ، وهو الأمر الذى يبين كيف أصبحت القرصنة صناعةوطنية لدى بني غانيه. ولما كانوا يمارسونها كما الجهاد ، نجحوا في توسيع مجال نشاطهم البحري ، لكي يشمل البلاد المسيحية التي أصبحت هدفا لغاراتهم . وهكذا ، زاد ابو ابراهيم اسحق بن محمد ، امير البليار على عهد يوسف في قوته عن طريق استقبال اتباع كثيرين من لمتونة الى جانبه ، وكرس جهده للجهاد ، فكانت له في كل سنة غزوتان ، يعود منها بالمغانم والأسرى ، بعد ان ينزل بالعدو الخسائر العظيمة الى حدّ أنه اتخذ لقب الملك . وهكذا ، وفي احدى غزواته تلك ضد البلاد المسيحية لقي حتفه "شهيدا" في سنة ٥٧٩هـ(١١٨٤–١١٨٥) [٢].

(١) (أمارى ، وثائق عربية ، النص ، ص ٢٣٢ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٥ – حيث القراءة ايضا ، د.فرنسسكوكوديرا ، اضمحلال . ونهاية المرابطين في اسبانيا (بالاسبانية، ص ١٧٦ – ١٧٧) عن مصادر مسيحية انه توجد معلومات عن غارتين للقرصنة قام بهما ابو اسحق حوالى الأيام الأخيرة من عمره ، والتي تبين شدته وشجاعته في ١١٧٨ (٥٧٥هـ) تاريخ هاتين الغارتين ، أن احداهما =

علاقات بني غانية الميورقيين بالموحدين عند ولاية يعقوب:

حوالى نهاية عهد أبى يعقوب يوسف ، كان وضع الموحدين وكذلك وضع بنى غانية مناسبا لاقامة نوع من الاتفاق « للتعايش السلمى » وإلا كيف يفسر موقف يوسف الذى لم يحاول غزو جزر البليار ، ذات الموقع الاستراتيجى ذى القيمة العسكرية الفائقة ، وطرد آخر « الزنادقة » ، إذا لم نقل "الكفار" من لمتونه ، الأعداء العنيدين للموحدين ، وضم أراض جديدة الدعوة الطيبة . ومن ناحية أخرى كيف يمكن تفسير ما قد قام به ابو ابراهيم اسحق ، أمير ميورقة من الحفاظ على العلاقات الحميمة مع يوسف ، وارسال جزء مما كان يحصل عليه من المغانم والأسرى المسيحيين اليه كهدية (١).

فعن التساؤل الأول يشرح لناعبدالواحد تصرف الموحدين السلمى باحتقارهم لقيمة تلك الجزر ولكن هذا التعليل لا يظهر مرضيا ، إذ يجب حسبان إرهاق الموحدين فى الصراع الدائب الذى كانوا يقومون به على طول دولتهم وعرضها ، من : تهدئة افريقية ، واخضاع ثوار غمارة ، وانهاء ضم بلاد الأندلس . والى جانب ذلك ينبغى قبول ان قوتهم البحرية ، مهما كانت فى ذلك الوقت ، لم تكن كافية للقيام بعمليات عسكرية مهمة ضد البليار ، ولو حدث ذلك لاختل التوازن العسكرى فى مواضع أخرى . أما عن التساؤل الثانى ، فربما كان بنو غانية لا يرغبون من جانبهم ، فى الاستمرار فى صراع حتى النهاية ، قد لا تعرف مغبته والحقيقه ان عدم التوازن بين القوتين ، من حيث تفوق الموحدين ، كان يملى علي الميورقيين الركون الى السلم . وهكذا

= كانت فى جنوب فرنسا ، والاخرى على ساحل كتالونيا : والاولى كان يقودها الامير نفسه ، والثانية رجل مجهول" ... وفى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨) هاجم ابن غانية مدينة طولون واخذ كثيرا من الاسرى الذى ارسلوا الى ميورقة ، وكان من بينهم هوج جودفـروا (Hugues Gaudefroy) فيكـونت (رئيس / مرسيليا وابن اخيه ... وفى نفس السنة (٢٧ يونيه) ، فاجا الميورقيون كنيسة "سانتا ماريا فى اولا (Santa Maria de Ulla) وهى حاليا فى ولاية السيرون (Seron) حيث قتل بعض رجال الدين واخذ غيرهم أسرى الى ميورقة.

(١) قارن عبدالواحد ، المعجب ، ص١٩٦ ، والترجمة ، ص ٢٣٣ .

فهم لم يرغبوا فى أكثر من الاحتفاظ ببقاء جزر ميورقة بين أيديهم . ومن أجل تحقيق هذا الهدف كان اسحق يقبل بسماحة تقديم الأسرى والهدايا من مغانم "الروم" الى يعقوب.

وهكذا يمكن اختصار الموقف فى الآتى : إذا كان بنو غانية والموحدين مختلفين على المستوى المذهبى ، فإنهم كانوا مستعدين لمهاجمة النصاري كجبهة واحدة باسم الدين.

بنو غانية يغيرون رأيهم والقطيعة النهائية:

إذا كانت التقارب الأولى بين يوسف وأبى ابراهيم اسحق لم تؤد الى تسوية العلاقات بين الميورقيين والموحدين(١) .فإن الموقف عند وفاة اسحق لم يكن ميئوسا منه بحال من الأحوال . وذلك ان محمد بن اسحق ، وخليفته فى الامارة ، وافق علي الخضوع كتابع ليوسف (٢) . : فلقد ارسل له هذا الأخير من يسمى بأبى الحسن علي بن الربرتير كمفوض لمراقبة حكومة الجزر. ولكن الانقلاب على محمد من جانب الساخطين من اتباعه على هذا العمل ، إلى جانب وفاة يوسف شهيداً أمام شنترين ، كل ذلك جعل التفاهم أمراً مشكوكا فيه ، وبذلك تمت القطيعة.

والحقيقة ان علي بن اسحق الذى حل محل أخيه محمد ، وجه النشاط البحرى الجهادى ، ليس ضد المسيحيين ، بل ضد "الكفار" الأخر، من الموحدين وأتباعهم فى المغرب . فبعد أن استولى على المراكب التى كان يقودها ابن الربرتير (٣) . بدأ على الاستعداد لضرب الدولة الموحدية فى موضع

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٨٩ الترجمة ، ج٢ ص ٨٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٨ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ٤٢ ، ابن خلدون ، العبر ،ج٦ص١٨٩ .

القلب . وهكذا ، سارت حوالى عشرين سفينة (١) ، حسنة التجهيز ، مليئة بالرجال ، والخيل ، والمؤن والذخائر وذلك بمساعدة من يسمى رشيد ، وهو مولى الأمير علي (٢) ، واتجهت نحو بجاية حيث رست في شهر صفر ٥٨١هـ (مايه١١٨٥م) (٣). وانتقل علي الى العمل مباشرة فارسل بعض رجاله في قارب اقترب من الأسوار واتصل بعملائه في المدينة (٤) . وبعد التعرف على نقاط الضعف في التحصينات ، وضعف الحامية ، أعطى الاشارة بالهجوم ، وذلك وقت صلاة الجمعة ، بينما كان أهل المدينة داخل المسجد الجامع ، محشورين ، وهكذا أخذت بجاية فجأة دون جهد ، يوم ١٩ صفر ٥٨١ (٢٨ مايه ١١٨٥) (٥). وهكذا ساعدت الظروف بشكل جلي علي بن غانية ، وخاصة بسبب غياب الوالي الموحدى ، السيد أبو الربيع ، حفيد عبدالمؤمن ، الذى كان قد سار الى مراكش قبل ذلك بعدة أيام (٦) ، كذلك بفضل خيانة أهل المدينة من الحماديين (٧) ، وبفضل عملائه في الموضع ، فحقق بذلك نجاحاً رائعاً في أولى خطوات مشروعه.

· وعندما علم أبو الربيع بنجاح مؤامرة الميورقيين اتجه نحو بجاية لإنقاذ المدينة

---

(١) ابن الاثير ، ج١١ص٣٣٤ . وهو يسجل بدقة ان القوة الميورقية تكونت من ٢٠ سفينة ، و٢٠٠ (مائتى) فارس، ٤٠٠٠ (اربعة آلاف) من الرجال ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٠ ، والترجمة ، ج٢ص٨٨ - وهو يقدم لنا عدد ٣٢ (اثنتين وثلاثين)سفينه ميورقية (الزركشى ،ص١١ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص٤٣ ، رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٨ ، والدراسة ، ص ٥٩ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ١٨٩ ، الترجمة ، ج٢ ص ٨٩ . ابن الاثير ، ج١١ ، ص ٣٣٤ ، الاستبصار والاخيران يضعان هذا الحادث في سنة ٥٨٠ (١١٨٤) . ومع ذلك فهناك رساله رسمية تتعلق باستعادة بجاية على ايدى الموحدين مؤرخه ٥ ربيع الثاني ٥٨١ (٦يوليه ١١٨٤) ترجح التاريخ الذى يسجله ابن عذارى . رسائل موحدية ، النص ص ١٦٨ وما بعده ، الدراسة ، ص ٥٨ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٥ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص٤٣ ، ان ١.بل (A.Bel) (ص٤٣) الذى يأخذ برواية ابن الاثير ، يصنع هذا الحدث في ٦ شعبان ٥٨٠ (١٣ نوفمبر ١١٨٤) ، ج مارسيه ، العرب في بلاد البربر ، ص ١٩٠ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، القرطاس ، ص ١٧٩ (٦شعبان ٥٨٠هـ ١٢ نوفمبر ١١٨٤).

(٦) ابن الاثير ، ج١١ ، ص ٣٣٤ ، ابن خلدون ، العبر، ج٦ص١٩ ، الترجمة ، ج٢ص٨٨-٨٩ (الزركشى ، ص ١١

(٧) ابن الاثير ، ج١١ ، ص٣٣٤ .

، ولكن رد فعل علي لم يتأخر . فلقد تقدم نحو ابى الربيع والتقى به قرب الموضع المعروف باليميلول . وهنا ظهرت قيمة المحاربين الميورقيين من حيث هم قراصنة شجعان ، الى جانب خيانة العرب فى جيش أبى الربيع (١) ، لتفسر هزيمة هذا الأخير ، الذى لجأ بعد الهزيمة الى الجزائر ، ولكنه لما وجد تلك المدينة غير محصنة بما فيه الكفاية ، اتجه بنفسه صوب تلمسان (٢) . واستولى علي على أمواله وممتلكاته وأطفاله الذى أرسلهم الى بجاية ، حيث مقر قيادته . ولم يكن السيد السيد أبو موسى بن عبدالمؤمن ، والي افريقيا السابق ، بأكثر حظ منه . فلقد خرج اليائس من أسر العرب لكى يقع بين أيدى الميورقيين(٣) . ووجد علي الطريق مفتوحا أمامه فسار إلى الجزائر التى أخذها دون صعوبة . ثم انه استولى علي مِليانه ، وأشير ، والقلعة (٤). وبعد هذه الانتصارات المسلسلة والفتوحات ، عاد الى بجاية . ولابن عذارى الحق فى ان يقول ان على بن غانية لما وجد ان هذا الفتح يتعدى ما كان يأمل فيه ، رجع الى بجاية (٥) ومهما يكن من أمر فقد بدأ علي بتنظيم البلاد الخاضعة له ، ففى بجاية عين أخاه يحيى كوال للمدينة ، يعاونه مولاه رشيد (٦) . وعين يحيى نجل أخيه طلحة على رأس ادارة مدينة الجزائر ، أما مليانة فقد آلت ولايتها الي بدّر بن عائشة (٧).

الاعتراف بالخلافة العباسية فى بغداد:

وعندما شعر علي أن عمله تنقصه الشرعية ، اتجه منذ البداية الى الخلافة

---

(١) ابن الاثير ، ج١٢ ، ص ٣٣٤ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص٤٣ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج١٦ ، ص ١٩٠ ، والترجمة ، ج٢ص٢٠٨ .

(٤) رسائل موحُدية رسمية ، النص ص ١٧٣ ، الدراسة ، ص ٢٠٨ .

(٥) ابن عذارى مجهول ، ص ٤٣ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ج٦ ، ص ١٩١ ، والترجمة ، ج٢ص ٢٠٨ .

(٧) ابن عذارى ، نفسه.

الغباسية فهى بغداد . فبإسمها قاد الصراع (١) وتحت رآياتها حشد الأتباع والأعوان . وهكذا رفع الراية السوداء فى المسجد الجامع فى بجاية (٢) ، وفى نفس الجامع أخذ يمين الولاء والطاعه (البيعه) ، وكان من بين المبايعين رؤوس قبائل البربر والعرب الذين أخذوا من مستودعات بجاية الهدايا الثمينة ، من: الملابس والنقود والسلاح (٣) وعندما اعتبر نفسه أميراً شرعيا ، نظم البلاد المفتوحة فأنشأ بها الادارات السياسية والتراتيب الادارية . فاتخذ كاتبا هو الشاعر الشهير عبدالبر بن فرسان الذى كان يكتب باسمه الخطابات الرسمية المشتملة على أوامره لأهل المدن المفتوحة (٤) . وعلى عهد يحيى بن غانية ، فى وقت كان الميورقيون متأكدين من سيادتهم على افريقية ، رفعوا وظيفة الكتابة الى مرتبة الوزارة عند لقب الوزير لعبدالبرّ بن فرسان (٥).

أول مقاومة وردّ الفعل عند الموحدين:

وهكذا عندما وعى علي بما أصبح عليه من القوة استأنف النضال .فاتجه نحو قسنطينة ، وضرب عليهاالحصار ، ولكن دون جدوى(٦). وعن هذه المسألة تقول لنا رسالة رسمية موحدية أن أهل المدينة الراغبين فى البقاء مخلصين للأمر الموحدى ، أفسدوا عليه عمله ، ألحقوا به خسائر ملموسة فى كل مرة خرجوا فيها لقتاله (٧) وهكذا انكسرت آلة الحرب الميورقية لأول مرة فى بلاد المغرب . ومن ناحية أخرى ، فعندما علم المنصور بهذه الأحداث ، لم

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٣) نفس المصدر السابق .

(٤) التجانى والترجمة ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٥) انظر المقرى ، ج٢ ص ٩٣٥ .

(٦) ابن عذارى، مجهول، ص ٤٤ . والمؤلف يذكر انه عندما شوهدت راية علّيّ لم يكن لاهل المدينة ثقة لا فى شرعية امره ولا فى مستقبل دولته .

(٧) رسائل موحدية ، ص ١٧٣ ، والدراسة ، ص ٥٨ .

يتأخر فى الرد عليها (١) وذلك بتقديم المعونة إلى رعاياه من ضحايا ابن غانية فأعد العدة للقيام بحملة ضده ، من : حشد الكتائب ، وتعبئة المقاتلة ، والخدمة العسكرية لجميع المتطوعين وزيادة الأعطيات (البركات) والرواتب وعين رئيسا لهذه الحملة العسكرية السيد : أبو زيد بن أبى حفص ، الحاكم العام للمغرب الأوسط (٢). وكذلك جهزت حملة بحرية لكى تعاون القوات البرية ، وبدأ العاهل المغربى بارسال الطلبة للاشراف ، وإمداد الاسطول بالمعدات ، على أن يكون تصرفهم فى أسرع وقت (٤) . وكان على راس الأسطول أبو محمد بن أبى اسحق بن جامع ، كرئيس أعلى ، ويعاونه أبو محمد بن عَطّوُش الكومى وأبو العباس أحمد الصقلى . ومن القاعدة البحرية فى سبتة خرج الأسطول بعد رسم خطة حربية تهدف الى تحقيق التعاون الوثيق بين الأسطول والجيش (٥) . ومع ذلك فإن الجيش المحتشد فى فاس – قاعدة الحملات المتجهة الى السودان والى المشرق (٦) . استحال عليه الحركة بسبب الأحوال الجوية المضطربة ، من : الأمطار ، والأرض الطينية (٧) .وعندما تحسّنت الأحوال الجوية اتجه أبو زيد نحو تلمسان حيث كان قد تحصن كل من الوالى : السيد أبو الحسن بن أبى حفص ، والوالى السابق لبجاية وهو السيد أبو الربيع (٨) .وفى تلمسان أخذ الجيش حاجته من الميرة ، كما أصلح

---

(١) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٣ . الدراسة ، ص ٥٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص ٤٤ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩١ ، الترجمة ، ج٢ص ٨٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ .

(٤) رسائل موحدية ، النص ، ص، ١٧٣ – ٣٧٤ ، الدراسة ، ص ٥٣ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٤ ، رسائل موحدية ، ص ١٧٤ ، ١٧٦ وقارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩١ .

(٦) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٢٤ .

(٧) ابن عذارى، مجهول ، ٤٤ .

(٨) ابن عذارى، مجهول ، ص٤٥ .

من شأن أحماله وآلاته [١] . وهناك تم اجتماع بين الطلبة قواد الأسطول ، وبين قواد الجيش . وتم الاتفاق على أن يكون لقاؤهم بعد ذلك فى الجزائر [٢] . وعندما تم لقاء الأعداء وجها لوجه ، وقبل ان تبدأ القوات الموحدية العمل . استخدم القائد الموحدى نفس الأساليب التى يستعملها ابن غانية . فقد أنشأ خدمة للجاسوسية أمكنه عن طريقها إعطاء الأمان الى الشعوب الخاضعة لسلطة بنى غانية . وهكذا فبفضل المخابرات الموحدية فى مليانة ، قام أهل المدينة بلفظ سلطة ابن غانية عند اقتراب الموحدين ، مع إعلان الخضوع للموحدين هذا كما ألقوا ، بأنفسهم على "الزنادقة" الذين كانوا فى رأس السلطة ، وقتلوهم أو سلموهم أحياء للموحدين [٣] . وكذلك كان الأمر بالنسبة لبدّر ابن عائشة ، الوالى الميورقى للمدينة ، فقد لجأ أثناء الليل الى قلعة أم العلُو ، فتبعه الناس ، وبعد أن عرضوا عليه الخضوع ، أخذوه بعد قتال استمر طوال النهار . وكذلك أخذت الجزائر فى نفس الوقت بمعرفة البحرية الموحدية . وعندما أتى الأسطول الى ذلك الميناء قبل القوات البرية ، فتح له الأهالى أبواب المدينة ، وقبضوا على ممثلى ابن غانية . وكذلك كان الأمر بالنسبة ليحيى بن طلحة ، ابن أخى علي الذى سُلّم للموحدين . وهكذا اقتيد رؤساء الثوار الميورقيين فى كل من مليانه والجزائر وهم مصفدون بالسلاسل نحو العاصمة ، بينما كانت تسمع أصوات الطبول معلنه أخذ المدينتين فى نفس اليوم [٤].

استرداد بجاية :

إن الخطة التى رسمها رؤساء الأسطول وقواد الجيش فى تلمسان من أجل التنسيق بين جهودهم كان عليها أن تخضع لبعض التغييرات بعد أن تحول

(١) نفس المصدر

(٢) رسائل موحدية . النص ص ١٧٦ ، والدراسة ، ص ٥٨ .

(٣) رسائل موحدية ، النص ص ١٧٥ ، الدراسة ، ص ٥٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ .

(٤) ابن عذارى، مجهول ، ص ٤٥ .

مسار الاحداث شيئا ما . فلقد علم الموحدون في الجزائر ان الميورقيين فى بجاية قد قرروا ان يبعثوا ممثلى الموحدين القدامى فى تلك المدينة الى ميورقة كرهائن ، وكان على أُسطولهم ان يتصرف دون تأخير حتى يفسد هذاالمشروع (١) . وكان الأخوان لعلي ، وهما : يحيى وعبدالله ، واللذان كانا وقتئذ فى بجاية (٢).قد أمرا بعمل اللازم نحو مواجهة حصار محتمل ، فقاما بضرب معسكرهما خارج بجاية ، ورتبا مواضع للرصد فى نهايات الطرف التي تؤدي الى المدينة(٣).وعند اقتراب الأسطول ، خرج السكان عن طاعة الميورقيين وفتحوا أبواب المدينة أمام العمائر الموحدية . ومع ذلك فقد وقع قتال عنيد ، ورغم المقاومة الصلبة والهجمات الحامية التى وجهت ضد الموحدين ، فقد نزلت بالميورقيين الهزيمة ، واضطروا الى الهرب للحاق بعلي أمام قسطنطينة التى كان يحاصرها بقواته (٤). وبذلك عمت الفوض بالمدينة ، وقام البحارة الموحدين ، وبمساعدة كل أنواع المغامرين بنهبها . ولكن قائد الاسطول أسرع باتخاذ إجراءات صارمة تصل الى حد عقوبة الإعدام ضد عصابات التخريب (٥). وانتهى استرداد بجاية . بتحرير أسرى الموحدين ، وكان بينهم أبو موسى بن عبدالمؤمن والى طرابلس السابق (٦) . أما عن الميورّقيين فقد أخذ عدد كبير منهم أسرى ، من بينهم راشد معاون يحيى فى ولاية بجاية (٧) . وفى الميناء تم

---

(١) رسائل موحدية ، ص ١٧٦ ، الدراسة ، ص ٥٨

(٢) ابن الاثير ، ج١١ ، ص٣٣٤ .

(٣) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ، والدراسة ، ص ٥٨ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٧٧ ، والدراسة ، ص ٥٩ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ ، ابن الأثير ، ج١١ ص ٣٤٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩١ ، والترجمة ، ج٢ص ٨٩

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ . والحقيقة ان أعمال العنف التى عانت منها المدينة كان لهُا اثار سيئة على اقتصادها فإذا كان البعض قد رحب بابن غانية عند قدومه كنوع من تغيير السادة الحكام ، فإن هذا التغيير كان حظا سيئاً لمعظم السكان . وحسب قول ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٧ ، فإن المدينة عرفت فترة عصيبة ، حيث افسدت الحقول ، ونهبت البيوت ، وافتقدت الأقوات ، وعندما غادر الناس المدينة ، لم يمكن جباية الضرائب

(٦) نفس المصدر

(٧) رسائل موحدية ، ص ١٧٨ ، والدراسة ، ص٥٩

القبض على الاسطول الميورقى كله برجال بحريته ، وسلاحه وامتعته [١].

ووصلت أنباء انتصار الاسطول الموحدى هذه الى الجيش عند حدود متيجه . وعندئذ أرسل الموحدون فى الجيش الرسائل نحو الأمير يعرفونه بالنبأ السعيد لهذا النجاح [٢] . وفى هذا الوقت كانت قسطنطينة محاصرة من قبل علي الذى استقبل تحت جدران المدينة المحاصرة أخاه يحيى على رأس قوات الميورقيين الذين كانوا ببجاية . وأصبحت القلعة المطوقة بآلات الحصار فى حالة يأس ، ومع ذلك كانت مقاومة المحاصرين تشتد بينما كان أنصارعلي يتركونه شيئا فشيئا [٣] . وعند ظهور جيش الموحدين رأى علي أنه من الحكمة ألا يحاول الدخول فى معركة حاسمة ، فاكتفى برفع الحصار ، تاركا أمتعته الثقيلة ، وذلك قبل ٣ (ثلاثة) أيام من وصول أبى زيد ، رئيس الجيش ، الى رتكلات [٤]. وهناك تم عقد مجلس حرب موحدى من أجل مناقشةالإجراءات التى تتخذ بالنسبة لبنى غانية [٥] . واتفق جميع كبراء الموحدين على الانطلاق فى إثر العدو ، والقضاء عليه نهائيا. وفى بجاية اتخذ إجراء سياسى يهدف الى اجتذاب الميورقيين سلميا الى الأمر الموحدى : فأعطى الأمان الى المحاربين الذين يرغبون فى الانتقال من معسكر العدو الى المعكسر الموحدى . أما عن أولئك الذى يعاندون فى التمسك بالدفاع عن الأمر المفقود ، فقد أدينوا بالموت [٦]. أبو موسى ، بعد ان فرق على الموحدين ما وجد فى بيت يحيى ، لحق بالقوات المحتشدة بتكلات ، وبعد يومين من الراحة ، انطلق الموحدون في إثر الثوار [٧] وهنا بدأت تظهر بشكل لامع قيمة

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) رسائل موحدية ، ص ١٧٩ ، والدراسة، ص ٥٩ .

(٣) المصدر السابق، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٥ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩١ .

(٤) ابن عذارى، مجهول ، ص ٤٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩١ .

(٥) نفس المصدر.

(٦) ابن عذارى، مجهول ٤٦ .

(٧) نفس المصدر السابق.

ابن غانية كقرصان لا يتعب ، عنيد فى الهرب والردّ المفاجيء ، فهذه الصحراء ستقدم له بحراً آخر من الرمال صالح لتحقيق مشاريعه التخريبية التى كان يمارسها سابقا . وعن طريق هذه التسهيلات التى عرضت له يجب تعليل الفشل الذى حاق بالموحدين وهم يقاومون الميورقيين فى أفريقية . ومع ذلك فيجب النظر بعين الاعتبار الى تفسير بن عذاري فى إلقاء التبعة فى فشل القوات الموحدية الى صعوبات فنية يصعب التغلب عليها ، من بينها كبر وكثافة الجيش ، وثقل معداته وأمتعته(١) . وكذلك كان مما سهل الأمر على ابن غانية ، خفة عساكره التى يسهل قيادتها حسبما يريد ، الأمر الذى جعل الموحدين يتابعون بغير جدوى الميورقيين لمدة ستة أشهر فى صحراءافريقية الفسيحة ، الى ان عاد الجيش الى بجاية بعد أن أخذ الجهد منه مأخذه (٢).

إن مأساة بجاية لم تنته بفرار ابن غانية فى بلاد الجريد . بل على العكس من ذلك فقد كان ذلك بداية سلسلة من الغارات المنظمة التى ستنشر البؤس والحزن فى كل بلاد أفريقية . ففى الجريد استغل علي عدم رضاء ، أهل قفصة لكى يستولى عليها (٣). أما عن توزر فإنها حوصرت ولكن همّة علي ثبطت بفضل المقاومة العنيدة التى قوبل بها ، فتركها واتجه نحو طرابلس.

تحالف الغزّ والعرب مع بنى غانية:

ولكى يعّم الأسى ، كانت ثورة بنى غانية تأخذ مع مرور الوقت مظهراً خطيرا جداً ، يهدد بفصل ولاية أفريقية عن الدولة الموحدية (٤). وكانت الظروف مواتية بالنسبة لابن غانية ، فكل العناصر المضطربة أو الساخطة ، من : البدو والغز (الترك) كانت تنتظر اللحظة المناسبة للثورة ، والصيد فى الماء

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٦٩ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٣ – حيث القول بحق ان ذلك كان أول صدع فى بلاد الدولة الموحدية.

الغكر . فمن الناحية الأخرى من افريقية ، فى بلاد طرابلس ، كان هناك مغامرون أخر تحت قيادة أحد الموالى وهو قراقوش ، كانوا قد حضروا لينشروا الحزن فى البلاد . ففى سنة ٥٦٨هـ (١١٧٢ - ١١٧٣م) خرجت من مصر جماعة من المماليك المصريين (الغز) ، تحت قيادة قراقوش وابراهيم بن فراكتين ، وهما اثنان من موالى تقى الدين ، ابن أخى صلاح الدين ، واتجهوا نحو افريقية (١) ، حيث تفرض سلطانها لفترة من الوقت . ومع مرور الوقت سيصبح قراقوش الأكثر شهرة ، كما سيرتبط اسمه بالأحداث التى سوف تقع فى طرابلس وفى افريقية ، كما بتاريخ الدولة الموحدية على عهد يعقوب ، ففى الوقت الذى كان ابن غانية يبدأ أعماله العدوانية ، كانت طرابلس خاضعة تماما لسلطة قراقوش (٢).

والآن تعرض لنا مشكلة خاصة بالمماليك المصريين وماذا كان هدفهم ، والى اين يتوقفون بشكل نهائى ؟، وهو الأمر الذى لا يعرف على وجه التحقيق . بل وربما كان المسئولون الرئيسيون أنفسهم لا يعرفون بسهولة ماذا كان يبغون .والحقيقة أن المسألة تختلط فيها الحقائق بالآراء ، والتخيلات ، والاحتمالات . فهناك فكرة ان يكون قراقوش قد أتى الى طرابلس وافريقية لكى يهيىء ملجأ أمينا لصلاح الدين فى حالة إنتصار محتمل لنور الدين ؟(٣) . واذا صح ذلك فهل يجوز ان يكون قد حضر لمساندة البدو من العرب ، وبنى غانية على إقامة دولة مرابطية تحت إشراف صلاح الدين ، ورعاية الخلافة العباسية ؟ أم ان الرجل اتجه الى هذا البلد بناء على حساباته الشخصية ، ونفقته الخاصة . إن توالى الأحداث يؤكد ان قراقوش الذى كان يوما ضد الموحدين ويوما آخر الى

(١) انظر التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠٢ وما بعدها ، ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ص ٢٨٦ والترجمة ، ج٢ ص٩١ - ٩٢ ، وقارن ، ا . بل، بنوغانية (بالفرنسية) ، ص ٦١ وما بعدها.

(٢) نفس المصادر السابقة.

(٣) التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٠٣، ابن خلدون ، العبر ، ج٥ ، ص ٢٨٦ ، الترجمة ، ج٢ ص ٩١ - ٩٢ .

جانبهم – كان يعمل لحسابه الخاص . والذى نراه ان الرجل ليس بأكثر من هلالى جديد ، أو ابن غانية آخر لا يبحث إلا عن انتهاز الفرص لمصلحته الشخصية (١).

وكان الأمر كذلك بالنسبة لعملهم على أن تسود الفوضى فى افريقيا أو اقتطاع جزء من الدولة الموحدية ، حيث يكون بنو غانية قد وجدوا فى المماليك المصريين حلفاء طبيعيين ، وذلك فى سبيل تحقيق أهدافهم السياسية التى يسهل فهمها . فالمماليك كان من مصلحتهم تأييد نفوذ مصر ، الأسمى على الأقل ، فى تلك المناطق ، الأمر الذى يعنى معارضة تكوين دولة موحدية قوية على الحدود المصرية . ومن ناحية أخرى كان يمكن لهم من أجل تحقيق أهدافهم الأنانية الاستناد الى الأسباب الدينية التى استند اليها الميورقيون ، من حيث الإعتراف بالخلافة العباسية كمرجع شرعى وحيد في بلاد المغرب .

وكذلك كان الأمر بالنسبة لقبائل العرب من بنى هلال وبنى سليم التى كانت مستعدة للتعاون مع أي من الطرفين : المصرى أو الميورقى . فعرب دبّاب ، وهم فرع من سليم ، تعاونوا مع قراقوش فى ولاية طرابلس(٢) . أما عن قبائل جشم والأثبج فإنهم استجابوا لدعوة ابن غانية وانضموا الى صفوف أعوانه (٣).

وكان لقاء علي بن غانية وقراقوش فى طرابلس حيث تم الاتفاق على التعاون المتبادل فيها بينهما ضد الموحدين . ومنذ هذا الوقت تكّون الحلف بين الميورقيين والمماليك وساندهم فى ذلك القبائل العربية من بدو المغرب الشرقى

(١) نفس المصادر . وانظر التجانى والترجمة ، ص ١٠٥ – حيث يقول ان قراقوش وهو يعذب اسيره محمد بن خطاب ، أمير ولاية قُزان ، تركه يموت فى العذاب لاجباره على أن يكشف عن خبيئة امواله.

(٢) التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠٣ ، ابن خلدون ، العبر ج٥ ص ٢٨٦ والترجمة ج٢ص ٩١ – ٩٢ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص٢٠ وما بعدها ، والترجمة ، ج٢ ص ٤٧ و ٤٩ .

مع مساندة بقايا مسوفة ولمتونة من المرابطين (١) . وعن هذا الطريق سقطت افريقية كلها بين ايديهم باستثناء مدينتين فقط ، هما : تونس والمهدية(٢). فقد تم الاستيلاء عنوة على قابس من قبل قراقوش الذى اتخذها قاعدة له . أما قفصة فقد ثارت على حكم ابن غانية ولكنها قهرت . وحوصرت توزر سنة ٥٨٢ (١١٨٦)، وخربت غابتها ، ولكنها أخذت بفضل خيانة عملاء علي ، وعومل أهلها معاملة استبدادية شائنة (٣). أما عن قلعة بَشْرى القريبة من تونس فقد وقعت ضحية الاضطهاد الأعمى من قبل الميورقيين ، فنهبت المدينة ، وجُرِّد أهلها من ممتلكاتهم حتى الثياب ، كما لم يسلم النساء والأطفال من تعدى المغيرين (٤).

ومنذ سيطر ابن غانية على كل البلاد تقريبا ، بدأ فى عملية التنظيم ، وبدأ سياسته بعمل يذكر دائما له ، وهو الإعتراف الرسمى بخلافة بغداد العباسية . وهذا الإجراء لم يكن جديداً ، إذ كان قد سبق له أن رفع الراية السوداء فى مسجد بجاية الجامع . ولكنه فى هذه المرة لم يكتف بذلك العمل الرمزى ، بل أخذت المسألة بجدية واضحه عندما أرسل ابنه بصحبة كاتبه الشهير : عبدالبر بن فرسان ، الى بلاط الخليفة الناصر بن المستعدى (٥). هذه البعثة كلفت بتقدم فروض الطاعة والولاء على الرئيس الزمنى والروحي للجماعة الاسلامية ، مع طلب عونه الروحى ، وارسال خلع التقليد والرايات السوداء (٦).وكان من

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٨٩ ، والترجمة ، ج٢ ص ٩٣ .

(٢) ابن الأثير ، ج١١ ، ص ٣٤٢ .

(٣) التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٤٧ . وقارن أ.بل (A.bel) ، بنو غانية (بالفرنسية) ، ص ٥٣ حيث أعطى علي ويحيى الأمان للسكان الذين ساعدوهم فى أخذ المدينة، وصادروا كل من عداهم ، فأخذوا ممتلكاتهم ونزلوا بهم غرامات مجحفة . وكل من وجد منهم من بشترى حريته أطلق ، وإلا كان يقتل ويلقى بجثته فى البئر.

(٤) ابن الأثير ، ج١١ ص٣٤٣ ، التجانى ، الرحلة، الترجمة ، ص ٢٦ .

(٥) ابن خلدون ، ج٦ ص ١٩٢ ، والترجمة ، ج٢ص٩٣ ، قارن المقرى ، ج٢ ص ، ٦٤٢ - ٦٤٣ .

(٦) ابن الاثير ، ج ١١ص٣٤٣ .

الطبيعى ان يوافق ديوان بغداد على مطالب ابن غانية . وهكذا أصبح على مثل سلطة الخلافة فى افريقية ، وقدر له الديوان كل الميزات التى كان يتمتع بها المرابطون من قبل [١] ، وكان من بين هذه الميزات لقب أمير المسلمين الشرفى ، وهو ما يعتبر حقا أهم ماحصل عليه الميورقى . وهكذا نجحت البعثة من وجهة النظر السياسية نجاحا باهرا . وهكذا ولكى يظهر الخليفة رغبته فى تأييد تابعه الجديد ، أمر صلاح الدين ، ملك مصر ، بتقديم المعونة الى الميورقيين [٢].

ردّ فعل المنصور:

حق ليعقوب ان ينتابه القلق للأنباء المزعجة الواردة من افريقية ، من خضوع بلاد الجريد للسلطة الميورقية ، وأعمال التخريب المنظمة فى البلاد ، وأكثر من ذلك تلك الخطوات التى تمت من أجل إعطاء أعمال عصابات النهب والتخريب شكل السلطة الشرعية . وهكذا كان على المنصوران يقرر المسير بنفسه على رأس جيشه الى افريقية لينقذ الولاية الشرقية ، وفى نفس الوقت ينقذ شرف الدولة الموحدية، وبعد أن دعا الموحدين الى حمل السلاح ، سار الأمير ، كما هى العادة ، لزيارة ضريح محمد بن تومرت [٣].وفى يوم ٣ شوال ٥٨٢ هـ (١٧ ديسمبر ١١٨٦م) غادر مراكش ، تاركا السيد أبو الحسن ، كبير الأسرة المؤمنية ، كممثل مفوض عنه فى العاصمة [٤].واتجه نحو رباط تازا حيث استراح الجيش قبل مواصلة المسير الى قسنطينة .وفى تخوم القيروان بدأ الاتصال بأعدائه ، من: الميورقيين ، والغز ، والعرب من قبائل سليم . وأراد

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٢ ، والترجمة ج٢ص٩٣ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ، ص ٤٨ .

(٤) نفس المصدر . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٣ – حيث النص على ان خروج المنصور من مراكش كان فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧م ، قارن أ.بل ، بنو غانية ، ص ٧٨ .

المنصور ان يبادر بالحرب على حين غره قبل أن يأخذ الخصوم حذرهم ، ولكن مجلس الحرب الذى انعقد بهذه المناسبة لم يوافق على ذلك . وبذلك كان على الجيوش ان توجه أولا نحو تونس التى اتخذت مقراً للقيادة العامة . وهناك أخذ المحاربون الموحدون يستعدون لمعاركم المقبلة (١).

انتصار كبير لابن غانية (ربيع الثانى ٥٨٣هـ / يونيه ١١٨٧م):

أظهر أول لقاء بين ابن غانية ومسانديه من حلفائه وبين الموحدين والذى انتهى بهزيمة هؤلاء الأخيرين ، ان حسابات يعقوب - اذا كانت له حسابات أصلا - كانت خاطئة - وأظهرت الهزيمة فى نفس الوقت ان تقييم الموحدين الحربى مسألة فيها نظر ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنصور بصفته قائدا عسكريا عاما .

فلقد أمر يعقوب حرسه الخاص فى تلك الحملة (٢) .المجتمع فى تونس أن يضع أحماله الثقيلة ، ويجهز مؤونته ويجدد معداته ثم يسير نحو العدو ليقضى عليه . ولقد عين لقيادة ذلك الجيش ابن عمه السيد ابو يوسف بن أبى حفص ، الذى ساعده اثنان من القواد ، هما : أبو الحسن على بن الربرتير(٣) ، وأبو على بن يغمور (٤).

وكان اللقاء بين الموحدين وأعدائهم يوم ١٥ ربيع الثانى ٥٨٣هـ (يونيه ١١٨٧م) ، فى موضع يعرف بـ غَمْرة غير بعيد من قفصة . ونظم ابن الربرتير تكتيك المعركة : فكان الموحدون فى مركز القلب (الوسط) والقبائل

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٩ .

(٢) ابن الأثير ، ج١١ ص ٣٤٣ ، حيث النص على أن رجال الحرس الخاص هؤلاء كانوا ٦٠٠٠ (ستة آلاف) رجل من بين ٢٠,٠٠٠ (عشرين ألفا) هم عدد رجال الحملة جميعاً.

(٣) هذا القائد كان قد أسر وسجن فى ميورقة كما ذكر من قبل ، ولكنه نجح فى الاستيلاء على القصبة (القلعة) بالجزيرة حيلة وتمكن من تغيير نظام الحكم القائم ، انظر فيما بعد (ص٩٠).

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٠ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ١٩٣ ، والترجمة ج٢ ص٩٤ .

(الأخرى) من حاملى السهام والنبال فى الجناحين الأيمن والأيسر (١).

وهاجم الغز الموحدين ، ولم يتردد أبو الحسن بن الربرتير فى الرد بقوة (٢) . ولكنه عندما حمى وطيس المعركة ، اتضح ان الموحدين لا يقدرون على مواصلة القتال . وهكذا انتهى الأمر بأسر أبى الحسن وسط أتون الحرب (٣) . وعندما أرخى الليل ستاره ، كانت هزيمة النخبة والعامة من الجيش الموحدى تامة ، وظن الذين فروا من المذبحة أنه يمكنهم الالتجاء الى قفصة تحت حماية قراقوش وأعوانه ، ولكنه على عكس ما كانوا يظنون قتلوا بحدّ السيف . وسُلّم أبو الحسن وابن يغمور الى على ، فكان التعذيب نصيب الأول ، والقتل نصيب الثانى (٤) . وخشى قطاع كبير من الجيش الموحدى العودة الى تونس ، فتاهوا فى الصحراء . وبذلك انتهت المعركة بخسائر كبيرة للموحدين ، والاستيلاء على مغانم كثيرة من جانب الميورقيين وحلفائهم.

نتائج الهزيمة فى غمّرة:

لم تثبط الهزيمة فى غمرة روح المنصور ، فقد كان من ذلك النوع من الرجال الذين تشد المصاعب من عزائمهم . فقد قرر أن يسير بنفسه للقاء العدو . فبعد أن دعا الرجال الى حمل السلاح ، وأعاد تنظيم الجيش ، غادر تونس متجها نحو القيروان (٥) .ومع ذلك فالظاهر ان الهزيمة الصعبة جعلته أكثر حكمة ، فحاول ان يلاطف خصومه أولا . وهكذا عرض عليهم الخضوع والدخول فى مذهب التوحيد قبل ان يغامروا بالدخول فى معركة جديدة(٦) .

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٠ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٤٩ ، ٥١ - حيث يقول المؤلف ان ابا الحسن سقط بين أيدى النصارى الذين كانوا من العناصر الرئيسية فى جيش ابن غانية - وأغلب الظن انهم من الميورقيين .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٠ ، التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٣١ .

(٥) رسائل موحدية ، النص ص ١٨٤ - ١٨٦ ، والدراسة ، ص ٦٠ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥١ .

(٦) رسائل موحدية ، النص ، ص ١٨٦ ، الدراسة ،ص ٦٠ .

ولما لم يصله جواب ما، عبر خرائب القيروان ، وضرب معسكره قرب الجامع الكبير (١) . وفى اليوم التالى ، طلب من رجاله أن يكونوا على استعداد للحرب ، فانعقد مجلس حرب وعرض على الأمير بالبقاء فى مركز القيادة ، ولكن هذا الأخير أصرعلى ان يقود الصراع بنفسه . وهكذا رفض القرار ، وجهز جيشه ، واضعا أقاربه على رؤس "القبائل" وعقب التفتيش على الجيش ، أخذ كل مزوار (رئيس قبيلة) قيادة قطاعه العسكرى ، وتقدم فى الطريق (٢). واتجه الموحدون نحو قفصة متتبعين خطى العدو ، ولكنه قرر الالتجاء إلى قابس ، تبعه الموحدون إلى هناك (٣) .وفى حامة مطماطة – غير بعيد من قابس – حيث طلب الميورقيون المعونة من عرب سليم فى المنطقة ، ضرب الحزبان معسكرهما كل فى مواجهة الآخر . وفى يوم الأربعاء ٩ شعبان ٥٨٣هـ (١٤ أكتوبر ١١٨٧م) ، بدأ الموحدون بالهجوم ، وبعد معركة حامية ، انتهى القتال بهزيمة الميورقيين . إذ قاتل هؤلاء وهم ينسحبون على طريق قابس ، ولكن عندما تبعهم الموحدون خلال نهار وليلة ، تحملوا خسائر فادحة ، وفى اليوم التالى كان الموحدون أمام قابس ، قصر القيادة العامة لقراقوش (٤) ، التى كانت قطاعات الجيش الأمامية قد ضربت الحصار عليها ليلا (٥) . وخرج أهل قابس الذين كانوا قد خضعوا لقراقوش دون ان يكون لهم رأى فى الأمر ، والتقوا بالموحدين وطلبوا منهم الأمان الذى أعطى لهم فى التو (٦). ورغم ذلك فإن خضوع المدينة لم يكن تاما ، فعائلة قراقوش التى ساندتها عصابة من الاتباع

---

(١) ابن عذارى ، مجهول ،ص ٥٢ .

(٢) ابن عذارى مجهول ٥٠، التجاني ، الرحلة ، الترجمة ١٣١ .

(٣) رسائل موحديه ، ص ١٨٧ ، الدراسة، ص ٦٠ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٨٩ ، الدراسة ، ص ٦٠ ، التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٩٧ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج٢ص٩٤ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ،ص٥٢ ، رسائل موحدية ، ص١٨٨ والدراسة ، ص٦٠ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ١٨٩ ، والدراسة ، ص ٦٠ .

تحصنت فى واحدة من قلاع المدينة . فحوصروا فى التو ، ثم إنهم خضعوا مع الأمان فى أنفسهم . وكان ثأر يعقوب مثالا فى الروعة : فقد صودرت الأملاك ، وتمّ استعباد النساء والأطفال (١) ، وأجلى الجميع الى مراكش (٢) . وهكذا كان القضاء على سيطرة المماليك المصريين فى قابس.

خضوع بلاد الجريد :

بعد هزيمة ابن غانية فى حامة مطماطة هرب وتعمق فى صحراء الجريد . وقام الموحدون بدورهم ، بعد دخولهم قابس الإنطلاق فى إثره . فدخلوا صحراء قابس واتجهوا نحو بلاد الجريد ، عبر بلاد لم يغامر فيها أى مسافر ، حيث يخيّم الخلاء المطلق دون قطرة من الماء (٣) . وهناك رسالة رسمية تعرفنا تفصيليًا بالعمليات العسكرية التى تمت فى الجريد (٤) . وانضم أهل المنطقة الى دولة التوحيد وكذلك الأمر بالنسبة لأهل ولاية قسطيلية (٥) . وأولا بأول مع تقدم الطابور الموحدى خضعت مدن نفزاوة ، وتفيوس ، والحامّة ، ونفطة وكذلك توزر وسلموا الرؤساء الذين كانوا قد وضعوا عليهم بمعرفة الثوار والذين لم يكونوا قد قتلوا حتى ذلك الحين . ومع ذلك فإن عصابة من هؤلاء نجحت فى الهرب من توزر ودخول الصحراء بعد أن تركوا كل أملاكهم ومنقولاتهم التى سقطت بين أيدى الموحدين ومن توزر تابع الطابور الموحدى تقدمه نحو قفصة ، وهى المدينة المحصنة التى ضرب عليها الحصار (٦).

---

(١) رسائل موحدية ، النص ١٨٠ ، الدراسة ، ص ٦٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج١١ص٣٤٣ .

(٣) الاستبصار والترجمة ، ص٨٤ ، ٨٥ ، رسائل موحدية ، ص ١٩٥ والدراسة ، ص ٦١ .

(٤) رسائل موحدية ، ص ١٩١ – ١٩٩ ، الدراسة ،ص ٦١ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٦) رسائل موحدية ، ص ١٩٥ – ١٩٦ ، الدراسة ، ص ٦١ . ولدينا رسالتان (رقم ٣١ ، ٣٣) متعلقتان باخذ المدينة ، الأولى عن بداية الحصار ، وهى مؤرخة ٢ رمضان ٥٨٣ (٥نوفمبر ١١٨٧)، والثانية صادرة من داخل المدينة بمعنى بعد غزوها وهى مؤرخه ١٣ ذو القعدة ٥٨٣ (٠٤ يناير ١١٨٨) . =

استعادة قفصة:

مع حصار قفصة (من بداية شهر رمضان ٥٨٣ / نوفمبر ١١٨٧) ، اتجهت الأحداث وجهة جديدة ، تدل على ان الحظ بدأ يدير ظهره لابن غانية . ففى يوم وصول الموحدين أمام قفصة وصل المنصور رسالة من قراقوش تعرض خضوعه للنظام الموحدى ، وتقديم خدماته للقوات الموحدية . وفى الغد كان رئيس آخر للمماليك يسمى "أبو زيان" ، والذى كان يعمل لحسابه الخاص بعد أن انفصل عن قراقوش ، يعلن هو الآخر انضمامه فى طرابلس الى الموحدين (١) . وحسب السياسة المتعقلة التى اتبعها المنصور بعد تجربة غمرة القاسية ، رأى قبل الدخول فى حصار غير مضمون النتيجة ان يعرض الأمان على المغامرين المتحصنين خلف وسائل الدفاع في المدينة فى نظير خضوعهم ولكن هؤلاء رفضوا باحتقار عرض يعقوب الذى قرر مهاجمتهم (٢) .وبدأ الحصار باجراءات استراتيجية ، فقد اقيمت بالقرب من المدينة مرقبة مرتفعة من الخشب لملاحظة مسرح العمليات (٣).

وأقيمت حول المدينة آلات الحصار والمنجنيقات فى أحسن هيئة . هذا كما أقيم برج من ٧ (سبعة) طوابق فى نفس المكان (٤) . وبعد ذلك بدأت آلات الحصار والمنجنيقات تمطر المدينة يوميا بالأحجار والقذائف المحرقة ، وهكذا أصيبت التحصينات وانهار كثير منها كما دمرت الأسوار والستارة نتيجة

= وهذان التاريخان يدعوان الى الظن ان الحصار استمر ٣ (ثلاثة) أشهر تقريبا (قارن ابن الأثير ، ج١١ ص ٣٤٣) . ولكنا لا نستطيع ان نرتب الأحداث بين هذين التاريخين . ومن الملاحظ ان ابن عذارى (مجهول ، ص ٥٣) يضع هذه الأحداث خاطئة زمنيا فى شهر شعبان .

(١) رسائل موحدية ، ص ١٩٧ ، الدراسة ، ص ٦٢ .

(٢) رسائل موحدية ، ص ١٩٨ ، الدراسة ، ص ٦٨ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ ، رسائل موحدية ، ص ٢٠٢ – ٢٠٣ ، الدراسة ، ص٦٢ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

لاصابتها بالقذائف (١) . وبسرعة وبفضل آلات الحصار أمكن ردم بعض الخندق المحيط بالأسوار ، وزود البرج المتحرك برماة السهام وآلات القتال والرجال المسلحين والرايات والأبواق والطبول (٢) .ودفع الى الأمام السور . وهنا تمكن الموحدون من التقدم ووضع النار فى البرج المسمى "برج ابن رواح" (٣) . وعندما تمت هذه العمليات أصبح الاقتراب من المدينة أمر ممكناً.

وفى اليوم التالى من وضع البرج للعمل ، هاجم يعقوب الموضع بشده ،ومع ذلك كان الاقتراب منه أمراً صعبا . فانحدار الأرض ، وخرابات التحصينات ساعدت بقوة المدافعين . وهكذا استمر هؤلاء الأخيرون فى الصراع ضد المهاجمين فى كل مكان ، فى الحفر ، وخلف الصخور ، وفى حطام السور . وهكذا أوقف تقدم الموحدين واستمر المدافعون طوال النهار مسيطرين على الطرق المؤدية الى مدخل المدينة المحصنة (٤) . ومع ذلك فرغم عودة الموحدين أماكنهم التى انفلقوا منها ، فإنهم لم يلبثوا أن جنوا ثمار جهدهم . فعندما شعر المحاصرون أن سيادة الموقف للموحدين ، طلبوا منهم الأمان شرطاً للخضوع (٥) . وعندما أعطاهم يعقوب الأمان ، استفادوا من الليل ليتفادوا غضب عامة الشعب الخطير ، وخرجوا عن طريق سلالم التحصينات ليستسلموا ليعقوب فى معسكره (٦) . والرسالة الرسمية تذكر ان الأمان أعطى لكل سكان المدينة دون استثناء (٧).والظاهر أنه على أساس هذا الشرط

---

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٠٥ ، والدراسة ، ص ٦٣ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٠٦ ، الدراسة ، ص٦٣ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ ، الاستبصار (حيث برج ابن رواح) والترجمة هـ ٢ ص ٧٠ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٣ .

(٥) رسائل موحدية ، ص ٢٠٥ ، الدراسة ، ص ٦٣ .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٣ .

(٧) رسائل موحدية ،ص ٢٠٦ – ٢٠٧ .

قبل الميورقيون الاستسلام . ولكن بالنسبة ليعقوب لم يكن الأمر كذلك . فإذا كان الأمان أدخل فيه الغز وكذلك كل سكان قفصة والزراع اللآجئون الى الموضع ، فإن الميورقيين كانوا مستثنين من ذلك . فجريمتهم كانت كبيرة بحيث لا يمكن العفو عنهم ، وأن حكم الله يجب ان يكون الموت ، وهكذا قتل الكثيرون منهم بحد السيف (١) . أما عن بقية الأسرى ، من : العرب والغز فقد رّحّلوا الى المغرب الأقصى ، وذلك حسب سياسة مستنيرة افتتحها عبدالمؤمن وتبعها بعده يوسف (٢) . ولكى يقطع يعقوب الطريق على مثل هذه الثورة فى المدينة الثائرة ، هدمت أسوار المدينة وتحصيناتها ، ووقع على كل قبيلة عبء تدمير قطاع خاص بها (٣) . أما عن سكان قفصة ، فقد أعطاهم يعقوب حرية حكم أنفسهم بأنفسهم ، وترك لهم ملكية أراضيهم ، يكن شريطة تقدم نصيب له من المحاصيل (٤).

عودة المنصور الى المغرب ووفاة على بن غانية:

رغم الثمانية أشهر التى قضاها المنصور فى أفريقية فإن تهدين ذلك الأقليم لم يكن كاملاً . حقيقة لقد استنفذ عدد من المدن ، والقلاع المحصنة والمواضع التى كانت خاضعة للثوار ، كما تحمل الميورقيون خسائر فادحة فى الرجال ، ورُحِّل الى المغرب الأقصى أعداد من عرب جُشَم ورياح والأثبج ، وكذلك عدد معين من المماليك المصريين (٥) . ولكن التحالف العدو لم يكن قد قضى

(١) رسائل موحدية ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ ، الدراسة ، ص ٦٣ ، التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٣٢ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٦٠ ، ابن الاثير ، ج١١ص٣٠٩ ، ٣٤٣ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ٢٠ ، ٢١ ، ٢٧ ، ٤٠ ، ١٩٣ . وقارن ج. مارسيه ، العرب فى بلاد البربر (بالفرنسية) ، ص ١٨٤ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ .

(٣) رسائل موحدية ، ص ٢٠٩ - ٢١٠ ، الدراسة ، ص ٦٣ .

(٤) التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ، ١٣٢ - حيث يقول ان المنصور لم يترك لهم الملكية إلا على أساس المساقاة . وقارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ج٢ص ٩٣ .

(٥) رُحّل عرب رياح الى بلاد الهبط ، وجشم أقاموا فى تامسنا ، جنوب وادى أم الربيع ، بين سبته ومراكش ، =

عليه تماما ، ومع ذلك فإن الخضوع الذي كان مصطنعا من قبل قراقوش للمهدية الموحدية ، وعدم تأكد الانتصار النهائي على ابن غانية ، وغياب الأمير الدائم الذى كانت له آثاره السلبية فى العاصمة ، كل ذلك حرّض المنصور على العودة الى مراكش . وهكذا عين من الطلاّب من يشرف على حسن تنفيذ ما أصدره من الأوامر (١) ، وسار من قفصة الى تونس حيث أقر فى الولاية السيد أبا زيد ، الوالى السابق لبجاية (٢) ، التى أصبح على ولايتها الآن السيد أبو الحسن ، ابن السيد أبى حفص (٣) . ثم انه اتجه الى المهدية لكى يعبر هضبة الجزائر المرتفعة ، عن طريق تاهرت وتلمسان بفضل مهارة دليله العباسى بن عطية (٤) . وقبل ان يواصل السير نحو مراكش عزل عمّه السيد أبا اسحق عن ولاية تلمسان وذلك أن هذا الأخير سمح لنفسه بانتقاد ضعف حملة يعقوب وتفاهة النتائج التى حققتها (٥) . وكان الأمر كذلك بالنسبة لأخيه الرشيد : أبو حفص عمر والى مرسية (بالأندلس) ، وكذلك بالنسبة الى عمه أبى الربيع والى تادلا . فقد كان مصير الاثنين وكل من معهما من المتآمرين ، الموت فى الرباط بحد السيف (٦) .

= وسط المغرب الأقصى ، وهذا البلد المحاط بالجبال كان بعيداً عن كل الطرق المؤدية الى الصحراء حتى ان جشم وجدت نفسها محصورة فيه . وبالتالى فإن الاثبج جاءوا الى هناك ليلحقوا بهم (ابن خلدون ، العبر، ج٦ ص ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١) . أما المماليك المصريون فقد استقروا فى مراكش العاصمة لكى يكوّنوا فرقة خاصة من الجيش.

(١) رسائل موحدية ، ٢١٥ ، الدراسة ،ص٦٤ .

(٢) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٣ ، والترجمة ج٢ص٢١١ ، ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٤ .

(٣) ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج٢ص٢١٢ .

(٤) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٤ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٣ والترجمة ، ص ٢١١ .

(٥) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٥ – حيث الاشارة إلى أن الأمير أمر باقتياده إليه دون رعابه . وبعد طرد مطيته سير بعنف على قدميه إلى منزله ، بينما كان الناس يسخرون منه .

(٦) ابن عذارى ، مجهول ، ص ٥٦ ، ٥٧ (قارن ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص ٢٤٤ ، والترجمة ، =

والحقيقة ان عودة هجوم علي بن غانية تؤكد لنا ان نتائج حملة يعقوب لم تكن أكيدة فى افريقية فمنذ ان ترك يعقوب البلاد ، رجع إليها على حيث بدأ يشن الحرب على سكان توزر . ولكنه قضى نحبه إثر جرح أصابه من سهم فى ترقوته (١).

موقف البليار منذ حملة علي حتى وفاته:

تمكن ابو الحسن الربرتير ، مبعوث أبو يعقوب يوسف الى ميورقة ، عقب إلقائه فى السجن قبل رحيل علي الى بجاية (٢) . من السيطرة على الجزيرة ٥٨٢هـ (١١٨٦م) بفضل تآمر المسيحيّين من أتباع بنى غانية (٣) . ونحن ندين لابن عذارى بالمعلومات الطريفة عن هذا الحدث (٤) . فحسب العادة فى ذلك العصر، قام المبعوث الموحدى بتنفيذ خطته يوم الجمعة فى الوقت الذى كان الناس فيه فى المسجد الجامع . وكان محمد بن غانية المخلص لأمر المهدى الموحدى قد صار على رأس السلطة فى امارة البليار . ولكن حدث انقلاب آخر لنظام الحكم ، إذ اضطر محمد الى الهرب وذهب ليلحق بأبى الحسن الربرتير (٥). فى مراكش . وعرف علي بالخبر وهو فى ولاية طرابلس

= ج٢ ص٢١٢، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٠).والحقيقة ان ما آخذ على عمر من التهم كانت عظيمة الخطورة فى ذلك الوقت الصعب الذى كان المنصور فيه مشتبكا مع الأعداء الميورقيّين ، هذا كما أتت الأنباء من الاندلس الى تونس تعلن خيانة أخيه . فهذا الأخير لم يكتف باضطهاد الشعب ، والاستيلاء على أموال التجار ، ووضع يده على المال العام ، ولكنه ذهب فى غيه بعيدا الى حدّ التآمر مع ملك قشتاله ضد أخيه الأمير نفسه .

(١) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٧٦ ، التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٤٨ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٣ ، الترجمة ج٢ ص ٩٥ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٦ – حيث يجعل وفاة على أثناء هزيمته فى موقعة حامة مطماطة ، ويقول لنا انه مات فى خيمة سيدة بدوية إثر ما نزل به من الجراح .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ص٤٢ ، ابن خلدون ،العبر ، ج٦ ص١٩٠ ، ٤٣ ، الترجمه ، ج٨٨ ، ٢٠٨ .

(٣) ابن عذارى ، مجهول ص ٤٨ ، ابن خلدون ، الترجمة ، ج٢ص٩٦ ، ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر السابق .

(٥) قارن ، أ.بل (A.Bel) .، بنو غانية (بالفرنسية)،ص٧٠ .

، ولم يتأخر فى الرد بقوة . فأرسل فى التو واللحظة أخاه عبدالله الى البليار . وبمساعدة مراكب صقلية أعاد الاستقلال الى الجزر [1] . وهكذا ولمرة أخرى تملصت البليار من عبء السيادة الموحدية ، ولكن يعقوب لم ييأس . ففى سنة ٥٨٣ هـ (١١٨٧م) نظم ابو العباس الصقلى هجوما بحريا على جزيرة يابسة ، وأخذها بالقوة ، وأسر ابن نجاح ، وهو ضابط لا ضمير له ، لم يكن قد دخل أمر الموحدين إلا لكى يعود إلى جانب بنى غانية من جديد [2] . ولكن هذه المحاولة لم تكن لم يقدّر ان يكون لها غدّ ، اذ اضطر الموحدون الى ترك غزوتهم العابرة ، وبينما كان يحيى بن غانيه يقود الصراع فى افريقية ، كان يعقوب يتصور أمالاً لا جدوى من ورائها .

الميورقيون على عهد يحيى بن غانية:

يعتبر موت على أمام توزر (٥٨٤ هـ / ١١٨٨م) ، تقريبا فى نفس الوقت الذى كان يرحل فيه يعقوب الى المغرب الأقصى ، خاتمة المرحلة الأولى للصراع بين الميورقيين والموحدين . وذلك أن الأحداث أخذت مساراً غير موافق بالنسبة للأول ، اذ تمثل ذلك فى القطيعة التى لا علاج لها بالنسبة للتحالف المناهض للموحدين . فمن ذلك الوقت كان على الميورقيين ان يقاتلوا وحدهم ضد أعدائهم التقليديين ، كما ضد حلفائهم السابقين من المماليك المصريين .

فقد بدأ قراقوش ، على رأس عصابته من الغزّ ، يعمل لحسابه الشخصى . وفى أول الأمر انضم الى جانب الموحدين سنة ٥٨٣ هـ١١٨٧/م ، ولكنه لم يلبث ان خان خلفاءه الجدد لكى يذهب ناشرا الأحزان مرة أخري فى بلاد افريقية التعسة . ففى سنة ٥٨٦ هـ / ١١٩٠م ، نجح فى أخذ قابس غدراً ، وقتل عدد لا بأس به من السكان ، كما ذبح زعماء عرب سليم من دبّاب ومن

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٤ ، الترجمة ، ج٢ ص ٢١٠ .

(٢) ابن عذارى ، مجهول ، ص٥٣ .

الكعوب بحدّ السيف (١) .تلك كانت أول أعمال قراقوش مستقلاً . ثم انه اتجه نحو طرابلس التى استولى عليها ، لكى يسير بعد ذلك نحو بلاد الجريد التى أخضعها بالسوط والدم . وفى أعقاب هذه الأحداث كان لابد من انفجار الاختلاف بين الرئيسين . فادعاءات كل منهما التى تركزت على نفس الأرض ، كان لابد ان تنتهى بالصراع المسلح . وأكدت اللقاءات الأولى بين الغزّ والميورقيين على تفوق هؤلاء الأخيرين فى حرب الصحراء ، وعندما انهزم قراقوش فى الجريد ، لجأ الى الهضاب الافريقية العليا ، قبل ان يسير الى الصحراء ، ويستقر فى ودّان ، ولكن هذا الموقع أخذ بالقوة بعد قليل من الوقت بمعرفة الميورقيين الذين ساندهم عرب دبّاب الذين أصبحوا الأعداء اللدودين للغزّ . وفى هذا اللقاء قتل قراقوش ، وقام ابنه الذى يعرف بنفس الاسم (قراقوش) أيضا بالدخول فى طاعة الموحدين ، ولكنه لم يلبث إلا قليلا من الوقت حتى أعلن الثورة (٢) . وكان بنو غانية وهم يعملون فى افريقية ، في حالة تعاون تام مع أقاربهم فى البليار . وهكذا أرسل عبدالله مركبين الى أخيه يحيى ، استطاع بفضلها من استرجاع ولاية طرابلس من الغزّ الذين كان يرأسهم من اسمه "ياقوت" . وسقط هذا الأخير بين يدى يحيى الذى أرسله كأسير الى ميورقة (٣).

وبعد طرابلس لقيت قابس التى تركها الغزّ واحتلها الموحدون ، نفس المصير فبعد الحصر الشديد والتخريب التام للمنطقة ، سلم الوالى الموحدى ابن تفراجيى المدينة الى الغزاة ، فى ربيع الثانى ٥٩١هـ / مارس – ابريل ١١٩٥م ، شريطة ان يستطيع الانسحاب مع رجاله ، وخضع أهل المدينة لغرامة فادحة

---

(١) التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ٩٩ ، ابن خلدون ، ج٦ ص ١٩٣ ، الترجمة ، ج٢ ص ١٦ ، وأولئك الذين استلحموا كان عدد ٧٠ رجلا ، ذبحوا فى قلعة العروسين .

(٢) التجانى ، الرحلة ، والترجمة ، ص ١٠ ، ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ١٩٣ ، والترجمة ، ج٢ص ٩٥– ٩٦ .

(٣) التجاني ، الرحله ، والترجمة ،ص١٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص١٩٤ ، والترجمة ، ج٢ص٩٦ .

بلغت قيمتها ٦٠٫٠٠٠ (ستين ألف) دينار [١].

وحوالى نهاية عهد يعقوب ، سادت الفوضى كل افريقية . إذ لم يعد الزمن كما السابق حيث كان يمكن إنزال الهزيمة ببعض القبائل ذات الهيمنة المهتزة ، وبذلك تنتشر الفوضي بين الأعداء ، ويمكن اكتساب سنوات من السلام . لم يكن هناك الكثير من الأعداء التقليديين الذين يسببون الاضطراب للدولة ، أو من الموظفين الموحديين الذين يثورون ضد سلطة الدولة المركزية ، والمثال لذلك محمد بن عبدالكريم الكومى (من قبيلة عبدالمؤمن) أحد قواد الموحدين فى ولاية المهدية . فهذا الرجل عندما شعر بقوته إثر ضبطه للأعراب من البدو الذى كانوا يفسدون الولاية أعلن استقلاله فى المهدية . وبعد أن هزم جماعة من عرب عوف ، استولى على نسائهم وأطفالهم وثرواتهم ، وفرق الغنيمة على العسكر وعهد بالنساء والأطفال الى والى المهدية ، أبو على بن عمر آينتى ، ولكن الأعراب قدموا شكوى الى والى افريقية العام ، أبى سعيد، أخى أبى على حتى يعيد اليهم أطفالهم وأموالهم . وأمر هذا الأخير ابن عبدالكريم بتحقيق مطلبهم . وهكذا لم يجد ابن عبدالكريم التملص من إجابة الأمر إلا الثورة [٢]. وعندما قبض على أبى على (شعبان ٥٩٥ هـ / يونيه ١١٩٩م) لم يطلقه الا نظير فدية مقدارها ١٢٫٠٠٠ (اثنى عشر) ألف دينار[٣] . وبمعاونة ابن غانية [٤] ، استطاع ابن عبدالكريم مقاومة محاولات ابى سعيد غير المجدية فى اخضاع المهدية. وهكذا كان يعقوب المنصور يحتضر وهو يترك المهدية بين

---

(١) التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ٩٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ، ١٩ ، الترجمة ، ج٢ص٩٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٩٦ ، ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ص ١٩٤ ، ج٢ ص ٩٧ ، التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص٢٦٦ ، وما بعدها.

(٣) ابن الاثير ، ج١٢ ، ص٩٦ ، ابن خلدون العبر ، ج٦ ص ١٩٤ / (حيث المبلغ ٥٠٠ دينار – نقلا عن التجانى (الرحلة ، الترجمة ، ص٢٧٠).

(٤) ابن الأثير ، ج١٢ ص ٩٦ .

يدى واحد من المغامرين الجدد . وعندما قام بين الحلفاء الجدد نوعا من الاختلاف حاول ابن عبدالكريم ان يضرب ابن غانية ، فحاصر يحيى فى قابس ثم انه سار نحو قفصة . ولم يكن من الغريب ان نرى ابن عبدالكريم عاجزا عن الوقوف أمام الميورقيين ، وذلك ان هؤلاد تبعوه حتى قاعدة عملياته المهدية ، وانتزعوها منه بل وقتلوه ، وهكذا لا يكون المنصور قد استطاع ان يضع حداً للخطر الميورقى فى افريقية . فعلى العكس من ذلك كان نجاح يحيى هناك أكبر من نجاح علي . فلقد حقق انتصارات رائعة على الموحدين ، وكان على افريقية ان تقع جميعا تحت سلطانه ، بما فيها المهدية وتونس ، الأمر الذى لم يستطع أخوه أن يحققه أبداً .

وستظل ملحمة بنى غانية الى سنة ٦٣١ (٤ - ١٢٣٣) حين تنتهى عقب وفاة يحيى ، حيث لم يكن له وريث . وهكذا تنتهى حوالى خمسين سنة من الانتصارات المبهرة ، والهزائم القاسية ، وأعمال العنف والخراب .

مغزى حركة بنى غانية وأهدافها:

هل كان علي ابن غانية وهو يبحر على رأس حملته الى بجاية ، يسعى الى إعادة إحياء الدولة المرابطية ؟ إن كونه أحد أفراد الأسرة المخلوعة السابقة ، وشاركه بقايا لمتونة ومسوفة فى محاولته ، وتقليد الخليفة العباسى له كأحد ورثة المرابطين الشرعيين بالاضافة الى نجاحه ، الذى كان حقيقة مؤقتا ، كل ذلك يدعو الى الاجابة على السؤال بالايجاب . ولكنه ، رغم هذه الحجج المقنعة حقا ، فإننا إذا نظرنا الى طبيعة الأحداث ، فربما شرحنا الحركة الميورقية بأسلوب آخر.

والحقيقة التى لا تمارى هى ان الغارات على بلاد الكفار من أجل الحصول على المغانم والأسرى كانت قد أصبحت صناعة خطرة بعد تغير موازين القوى البحرية لصالح البلاد الأوروبية ، وخاصة الجمهوريات الايطالية وصقلية

النورمندية فى البحر المتوسط . فهل من المحتمل ان يكون ابن غانية ، من أجل ذلك ، قد توجه نحو "الكفار" الآخرين فى بلاد الشمال الافريقى . ومن ناحية أخرى فهناك حدث مهم قرر مصير الحملة وهو النجاح الأول السهل المتمثل فى أخذ بجاية ، الى جانب الاكتشاف الثانى لحلفاء طبيعيين ، من بدو العرب والمماليك المصريين ، أعداء كل نظام ، وهى الأمور التى فتحت شهية الميورقيين ، وشجعتهم على توسيع حقل تجاربهم أما ما يذكر فى المقام الثالث فهو غياب كل معنى للسياسة فى أسلوب تصرفهم بالنسبة للبلاد المفتوحة ، من : التخريب المنظم ، وأعمال العنف والنهب ، والغرامات الثقيلة ، ومصادرة الممتلكات والمذابح الجماعية للمغلوبين . كل ذلك يثبت ان الأمر لا يتعلق إلا بمغامرة لا مُستقبل لها . ولا أهداف بعيده ، تماما كما هو الحال بالنسبة لأعمال القرصنة .

والموحدون من جانبهم عليهم ان يحملوا جزءا كبيرا من هذه المسئولية الرهيبة . هكذا كان التنظيم غير الذكى للبلاد ، وضعف الحاميات ، وشعور عدم الرضا الواضح فى كل مكان ، وأخيرا ردود يعقوب الضعيفة ، كل ذلك كان من العناصر الموافقة لنجاح ابن غانية ، انه من الأكيد ان يعقوب المنصور احتقر هذ العصابة من قطاع الطرق فى افريقية ، كانت تحبذ قتال "الكافر" الحقيقى فى الأندلس ، ولكن هذه الوجهة كانت منحرفة ، لا تحقق أى نوع من العدالة .

القسم الثانى

النظم السياسية والإدارية

النظم السياسية والإدارية

ان قيام الدولة الموحدية ، مع برنامجها المحدد بشكل دقيق ، من : العودة بالاسلام الى نقائه الأول، مقاتلة "الزنادقة" دون رحمة ، سيادة الخير والقضاء على الشر ، مواجهة العدو "الكافر" ، كل ذلك كان عليه ان يؤدى الى تغييرات عميقة فى معظم نظم الدولة التى كانت تعمل حتى ذلك الحين . ورغم ذلك فالظاهر ان كل تلك التغييرات لم تكن تزويقات بسيطة تطلبتها طبيعة الأشياء المستجدة ، والتى كانت تتم أولا بأول تبعا للاستقرار السياسى الوليد . والحقيقة انه كان من الصعب على الموحدين ، وهم الجبليون البسطاء ، ورقة المرابطين الصحراويين ، أن يأتوا بإصلاحات عميقة فى مجالات الدين ، والاجتماع والسياسية ، وذلك تبعا لمعارفهم المحدوده ، وافتقادهم لطبقة المستنيرين المؤهلين لتحقيق مثل هذا البرنامج . ومع ذلك فقدنجحوا فى بناء دولة ذات طابع خاص بهم ، وان كانت تشبه كذلك فى خطوطها العريضة الدول الاسلامية الأخرى فى العصور الوسطى ، وبخاصة دولة الأمويين فى الأندلس.

ونحاول فى دراستنا بيان الى أى حدّ تختلف عن هؤلاء ، والى أى حدّ كان لها خصوصياتها الذاتية .

ولكى نتحدث عن النظم الموحدية على عهد يعقوب ، يكون من الطبيعى التعرض لها منذ بداية الدولة المؤمنية ، والاشارة الى التطورات التى ألمت بها على مرّ الزمن.

خصائص الخلافة الموحدية:

تعرف الخلافة تاريخيا بأنها السلطة العليا ، روحيا ومدنيا ، المعطاة الى رجل يسمى خليفة ، هو الذى يرعى المؤمنين بصفته نائبا عن النبى ، ورئيسا لجماعة المسلمين.

فبعد وفاة النبى أعتبر أقاربه الخلافة وكأنها إرثا أبويا ، أو تركة خاصة لهم الحق الذى لا ينازع فيها . وهذا الادعاء هو السبب فى كل الخلافات بين المسلمين ، وهو الذى أدى الى قيام "الفتن" . وهكذا نفهم كيف ان التطور التاريخى لم يكن موافقا ، فى البداية على الأقل ، لمطالب خلفاء النبى الشرعيين .

فلقد استفاد الأمويون من الظروف المناسبة واستولوا على الخلافة واحتفظوا بها مدة طويلة . ومع ذلك فلقد قلبهم العباسيون ، وأنشأوا خلافة جديدة ، باسم آل النبى مباشرة . وعلى نفس الأساس كان مطلب الشيعة ، أتباع العلويين رغم أن هذا المطلب مخالف لروح السنة الاسلامية . وحتى الخلافة العباسية كانت السلطة العليا لخليفة النبى ، أمير المؤمنين ، واحدة لا تتجزأ ، كما كانت مطلقة على جميع المؤمنين فى كل العالم الاسلامى . وعلى هذه النقطة يتفق العلماء ، والفقهاء بدون تحفظ . ولكنه بعد ذلك سوف يحدث تغيير مطرد على مفهوم الخلافة الواحدة هذا ، والتى يعترف بها الجميع . والحقيقة ان بعض مدعى الخلافة لجأوا الى الولايات المتطرفة وهم يحملون ادعاءاتهم وأفكارهم ، وكلها معارضة لآراء أعوان الخلافة الموجودة فى الحكم . وهكذا وجدوا أرضاً مناسبة فى الولايات حيث انتشرت الاتجاهات المنفردة والانفصالية الواضحة ، الأمر الذى أدى إلى إنشاء رئاسات خلافية جديدة . وهنا كان على الفقهاء ان يعملوا على تغيير الأسس الشرعية التى تنبنى عليها الخلافة لتتواءم مع مقتضى الأحوال المستجدة (١) .

أن خلفاء الفاطميين الشيعة لم يعترفوا حقيقة أبداً بأى خلافة بعيداً عن سلالة علي . وكذلك كان الأمر بالنسبة لخلافة قرطبة التى ادعت وراثة خلافة

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج١ ص ١٥٩ وما بعدها . وقارن السنهورى ، الخلافة (بالفرنسية) ، ص ١٢٥- ١٢٦ .

دمشق الاموية . وباستثناء الخلافة الموحدية ، كانت كل خلافة انفصالية تدعى أنها السلطة الشرعية الوحيدة فى عالم الاسلام.

وسنحاول ان نشرح ، فى ضوء الاحداث التاريخية ، غياب هذا الأساس الشرعى عند الموحدين . كانت الدولة الموحدية استمراراً للدولة المرابطية . كما كان مؤسسا الدولتين البربريتين مصلحين دينيين متساويين فى السلطة وفى مساحة البلاد . والاختلاف الوحيد بينهما يتمثل فى ان المرابطين اعترفوا دائما بخليفة المشرق ، على الأقل فيما يتعلق بالمسألة الروحية، فبإسمه كانت تتم خطبة صلاة الجمعة . ونحن لا نعرف إذا ما كان قيام الخلافة الجديدة قد صاحبه اعلان احتفالي مثل الأخريات . فالحقيقة ان عبدالرحمن الثالث الناصر كانت قد أعلنت خلافته احتفاليا ، كما ان الناصريين جردوا هشام الثانى المؤيد من سلطاته . فكيف يفسر اذن السكوت الذى يحيط بإعلان الخلافة الموحدية ؟ هل كان بسبب غياب الوثائق أو افتقادها ؟ هذا ممكن ولكن من الواضح ان المؤلفين المعاصرين يمدوننا بمعلومات دقيقة عن أحداث أقل أهمية من ذلك . ومن الواضح ان الدولة الموحدية لم تكن شيعية .حقيقة ان ابن تومرت اقتبس ، بين أشياء أخرى ، فكرة المهدية أو الإمام المعصوم من الشيعية ، ولكنه من الواضح أيضا ان الدولة الموحدية كانت الى حدّ كبير سنية المذهب . ان مؤسس الدولة الجديدة ، محمد بن تومرت ، لم يتخذ لنفسه أبداً لقب الخلافة ، وهكذا لما لم يكن لدى عبدالمؤمن ادعاآت شرعية فى الخلافة ، فإن ذلك هو ما يفسر عدم الاحتفال بإعلان الخلافة . ولما أراد عبدالواحد المراكشى ان يفسر كيف كانت البداية الأولى لهذا اللقب عند الموحدين ، يقول

أن عبدالمؤمن اتخذ اللقب صدفة أثناء احتفال أدبى(١). وهذا الحدث يعبر عند المؤلف عن فكرة ان عبدالمؤمن يأخذ اللقب فى احتفال علنى رسمى ، وهذا يدعوا الى الظن بأن اتخاذ اللقب الخلافى لم يكن سوى عملية اغتصاب دون أساس شرعى.

وتبعا لما تركه المؤلفون المعاصرون من الوثائق وكذلك المتأخرون ، فإن الخلافة الجديدة ، وكذلك إمارة المؤمنين ، لا تعبر إلا عن كيان شديد الخصوصية تماما .إنها ليست أبدا الخلافة الواحدة أو إمارة جميع المؤمنين . إذ أن لقب الخليفة لم ينتحله الأمير الجديد إلا بصفته اللغوية من حيث كان خليفة لابن تومرت : الإمام . أما عن لقب أمير المؤمنين فهو يرجع الى كونه الرئيس العسكرى لجماعة الموحدين ، الذي عرفوا – دون غيرهم عند ابن تومرت بهذا اللقب ، كناية عن إخلاصهم ونقاء عقيدتهم (٢).

---

(١) فى سنة ٥٥٦هـ / ١١٨١م عبر عبدالمؤمن العدوة لكى يقيم فترة فى جبل طارق حيث كبار الشخصيات والأدباء من العدوتين (الاندلسية والمغربية) . وقام أحد الشعراء الذى يسمى الطليق وأنشده قطعة شعرية ، وعندما انتهى الرجل قال عبدالمؤمن معجباً :"هكذا يمدح الخلفاء ، وبذلك منح نفسه اللقب . انظر المعجب ، ص ١٥٨ والترجمة ص١٨٥ . ومن البيّن هنا ان الأمر يتعلق برواية قصصية . فالحقيقة ان عبدالمؤمن كان يحمل اللقب الخلافى كما يظهر فى الرسائل الرسمية ، وكذلك لقب أميرالمؤمنين" . وفوق ذلك فابن صاحب الصلاة يسترسل طويلا بمناسبة ذلك الاحتفال ، ويعرض الأشعار التى قيلت بهذه المناسبة . وهو يورد القطعة الخاصة باسم الطليق ، ولا يذكر إلا ارتياح عبدالمؤمن وكذلك كاتبه ابن عياش. وعلى العكس من ذلك وأثناء الاحتفال قام أحدهم ويسمى أبو بكر بن المنحل الشلبى الذى سمى فى خطابه عبدالمؤمن بالخليفة (ورقة ١٣ وجه) . ورجل آخر هو ابو العباس أحمد بن سيّد الاشبيلى قال لعبدالمؤمن ان خلافته هى الوحيدة الباقية ، وأن غيرها ليست بشىء (ورقة ١٨ ظهر) . ولقد بالغ الرجل فى مديحه حتى سمى عبدالمؤمن بخليفة الله (ورقة ٤وجه) وهكذا لا يجب الوثوق كثيرا بالوثائق الأدبية ، حيث نجد فى كتاب ابن صاحب الصلاة ان يوسف بن عبدالمؤمن كان يسمى خليفة عند الشعراء قبل ان يحمل اللقب بشكل رسمى (ورقة ٤٩ وجه)

(٢) انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص١٣٧ والترجمة ص ١٦٦ – حيث النصُّ على انه جعل عبدالمؤمن رئيسا لهم ، وهو يقول لهم : انتم "المؤمنون" وان هذا "أميرهم" ، وانه منذ هذا الوقت حمل عبدالمؤمن لقب "أمير المؤمنين" ، وانظر ابن الاثير ، ج١٠ ص ٤٠٧ ، وقارن : فان برشم ، ألقاب الخلافة فى الغرب ، المجلة الأسيوية (journal Asiatiques) ، باريس ، ١٩٠٧ ، ج٢ ص ٢٧٩ .

والخلاصة التى نخرج بها هى : أن الخلافة الموحدية كانت كما يمكن ان نقول ، خلافة محلية جديدة . وذلك أن ادعاءاتها فى السلطة لم تكن تتعدى حدود الدولة ، كما يقول ابن خلدون ، أى حدود "الأمة الموحدية" (١). ففى كل الرسائل الموحدية الصادرة باسم الأمراء من ديوان الانشاء ، يكون ذكر عبدالمؤمن بصفته النائب والممثل للمهدى الموحدى : ابن تومرت (٢) .

أما عن خليفة عبدالمؤمن ، وهو ابنه يوسف فإنه بسبب معارضة أخوته لم يحمل فى بداية ولايته إلاّ لقب "الأمير" فقط (٣) . ومما يسترعى الملاحظة ان ابن الأثير ، وهو المؤرخ الشرقى ، لا يتكلم عن الحكام الموحدين كخلفاء ، الأمر الذى يدعو الى الاعتقاد فى أنه كان ينظر إليهم على أنهم "متغلبون"(٤). أما ابن خلدون فيسميهم أحيانا بـ"السلاطين" (٥) .أما عبدالواحد ، والحميرى ، وابن الخطيب فيسمونهم بالامراء أو بملوك المغرب (٦) .من هذه الأحداث ، والتى ربما لم تكن من الكثرة بما فيه الكفاية ، يمكن ان نستخلص أن الأمر

---

(١) العبر ج٦ ص ١٢٧ – ١٢٨ والترجمة ج١ص٢٥٤ – حيث النص على ان عبدالمؤمن نجح فى تقوية سلطته الزمنية والروحية كخليفة للأمة الموحدية .

(٢) انظر : الرسائل الموحدية . وانظر معاهدات السلام والتجارة الموحدية ، فى كتاب أمارى فى الوثائق العربية (Diplomi Arabi).

(٣) انظر ابن صاحب الصلاة ، ومايليها ، وعن اتخاذ لقب أمير المؤمنين ، وما يليها . القرطاس ، ص ١٣٧ والترجمة ، ص ٢٩٦ – حيث النص على انه اكتفى فى البداية بلقب "أمير" ، وأنه لم ياخذ لقب أمير المؤمنين إلا بعد ان تم الأعتراف بأوامره فى كل مكان.

(٤) الكامل .

(٥) العبر، ج١ ص ٢٩٠ ، المقرى ، النفح ، ج٢ص١١٩٠ ، ابن الابار ، التكلمة ، ج١ص ٣٣ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ ، ٢٧٣، ٢٧٨ ، ٣٢٠ ، ج٢ص ٥٢٩ .

(٦) المعجب ، ص ١٧٥ ، الروض المعطار ، النص ص ١٠٨ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١٣٧ وهو ما ينقله السلاوي فى الاستقصا ،ج١ص١٨٣ ، الاحاطة ، ج١ص٣٩ ، واعمال الاعلام ، ص٣٠٥ . ٥٠٩ ، وانظر ايضا ابن خلدون ، العبر ، ج١ص٢١٣ ، ورقم الحلل ، ص٣٤ .

يتعلق بفكرة جديدة عن الخلافة وامارة المؤمنين ، طبقت فى دولة الموحدين بخاصة .

ومع ولاية يعقوب المنصوريتحول مجرى الأحداث الى طريق آخر . فبفضل ظهوره كحاكم مطلق ، وجهوده ضد النصارى بالأندلس أمكن تأكيد حقه فى لقب الخليفة ، الأمر الذى أتى انتصار الأرك (ألاركوس) فى سنة ٥٩١هـ (١١٩٥م) ليؤكد حقيقة شرعيته الواقعية . وهكذا كان على المعارضة الصماء الآتية من المشرق ، والتى ظهرت الى العلانية أثناء ثورة بنى غانية فى افريقية(١) . أن تبدأ فى الخمود . ولم يكن أمام صلاح الدين الذى كان يأمل فى استقبال معونة بحرية من المغرب ضد الصليبيين فى المشرق ، إلا أن يقبل الأمر الواقع . وإذا كانت الرسالة الرسمية (٢) .الموجهة من ديوان الانشاء المصرى الى يعقوب لا تلقى بالضوء على موقف صلاح الدين بالنسبة الى الاعتراف باللقب الخلافى فى المغرب ، فإن سفيره الى المنصور ، وهو ابن منقذ ، لم يتردد فى إضفاء لقب أمير المؤمنين على بطل الاسلام المغربى . ففى قصيدة شعرية ألقاها ابن منقذ فى حضرة يعقوب ، يقول :فمنك أمير المؤمنين ولم نزل بحضرتك الغراء تأتى الرواحل؟ (٣).

والحقيقة انه عقب الحملة المظفرة فى سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) كان على يعقوب ان يحمل بجدارة ولأول مرة ، بخلاف ما كان الحال عليه ايام والده

(١) انظر فيما سبق .

(٢) قلقشندى ، ج٦ص٥٢٦ . وانظر جودفروا ديمومبين ، رسالة من صلاح الدين ، منوعات (Melanges) هـ. باسيه ، ج٢ص ٢٨٠ وما بعدها .

(٣) أبو شامة .ج٢ص١٧٤ – حيث اللقب فى نفس الشعر "أمير المسلمين" ، بينما هو عند السلاوى فى الاستقصا (ج١ص١٧٥) "أمير المؤمنين" وانظر كتاب الاستبصار حيث مؤلفه الموحدى المخلص يعتبر ان رسالة صلاح الدين تعتبر علامة خضوع من جانبه "لأمير المؤمنين" يعقوب ، واعترافاً بالخلافة المغربية (الاستبصار).

وحده ،اللقب الخلافي "المنصور بفضل الله" (١). وبعد هذه الحملة المظفرة بدأت الخلافة الموحدية تفقد صفتها المحلية لكى تأخذ شكل الخلافة الواحدة التى لها السلطة على جميع المؤمنين فى عالم الاسلام . وهكذا كشف المنصور الى المقربين منه من رجال الحاشية ، عزمه على المسير الى المشرق ومصر(٢) . وحتى بعد اضمحلال الدولة الموحدية وتفككها كان مدّعوا الخلافة الموحدية عادة ما ينتسبون مباشره اليه (٣).

وهكذا يمكننا القول فى الختام ان الخلافة الموحدية بعد ان أخذت فى البداية ، تحت حكم الأميرين الأولين ، شكلا محليا كان يعاكس شرعيتها ، فإنها انتهت على عهد المنصور بالمطالبة بالنسبه لجميع العالم الاسلامى ، بحقوق كانت تزداد أكثر فأكثر.

---

(١) من الصحيح ان عبدالمؤمن رأى ان يحمل اللقب الخلافي :"القائم بأمر الله" (انظر دى ساس ، مذكرات عن بعض النقود العربية الذهبية للموحدين ، فان برشم ، القاب خلافيه بالمغرب ، الملة الآسيوية (J.A) ١٩٠٧ ،ص ٢٧٩) ، ولكن لا الرسائل الرسمية ، ولا المؤرخون تعطيه هذا اللقب .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٦ . وفى نظر ابن جبير الذى كان فى مصر على عهد يعقوب كانت جميع الدلائل تشهد على انه سيضم مصر والمشرق الى الدولة الموحدية ، وان المصريين أنفسهم كانوا ينتظرون بفارغ الصبر وصول المؤمنين الحقيقيين .وكل ذلك يعبر عن أمانى ابن جبير كموحدى متعصب لمذهبه التوحيد المغربى (الرحلة ، ص ٥٣ ، ٧٨ ، ٧٩)

(٣) هكذا كان من يسمى ابن وجّان يعبر عن أساه ، بالنسبة لبنى جامع وهو يقول للعادل بن المنصور :"أرى أنهم أبعدوا من الامامة أبناء سيدنا المنصور" (الروض المعطار ، ص ٦٨) وكذلك كان الأمر أثناء الصراع بين المأمون بن المنصور ، وابن أخيه يحيى بن الناصر ، إذ انتسب كل من المتنافسين الى المنصور مباشرة . وكذلك كان الأمر بالنسبة للشاعر عرابى عبدالله محمد بن الصفار الذى هاجم المأمون وهو يوجه الكلام الى يحيى قائلا : اذا كانت وراثة المنصور موضع خلاف من أحد القرابة ، فقل :" ان ابن نوح (اشارة الى ابن المنصور : المأمون) هلك فى قمة المنكر " وانه: إذا كان (المأمون) يقول :" أنا عمك " فرد عليه ان "عم النبى هو من غير شك ابو لهب " (المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج١ ورقة ١٠٢ ظهر).

نظام الحكم فى الدولة

السمات العامة:

ان الذى يميّز الخلافة الموحدية ، كما هو الحال بالنسبة لأية خلافة فى ذروة قوتها ، هو الحكم المطلق فى ممارسة سلطات الإمام أو أمير المؤمنين من ناحية ، والمركزية المفرطة ، التى يترتب عليها ان تؤول الى بلاط الأمير القسم الأكبر من شئون الدولة ، من ناحية أخرى . وبفضل السلطة الكلية التى يمتلكها الخليفة ، فهو الذى يقرر وحده الأمور بشكل نهائى . ويدل مسار الأحداث على ان مجلس "العشرة" ، ومجلس "الخمسين" وكذلك "الطلبة" أو "الحفّاظ" ، لم يكونوا رؤساء الحكومة أو الهيئات الرئيسية فى ادارة الدولة ، وذلك أن مجالسهم أو مؤتمراتهم تحت رئاسة الأمير ، كانت تقتصر فى كثير من الأحيان على الموافقة على القرارات التى اتخذها العاهل بنفسه.

قصبة مراكش أو القصر الخلافى :

لما كان كل شىء فى الدولة يعود الى الخليفة ، كان من الطبيعى ألا يكون لديه من أجل معاونته فى ممارسة سلطاته إلا إدارة بدائية نوعا ما . وهكذا ، فليس من المستغرب ان يكون القصر أو المسكن الخلافى مختلطا بمركز الحكم ، حيث لا تفرقة بين خدمة الخليفة الشخصية والخدمة العامة فى الدولة.

ففى وسط مدينة مراكش الخلافية التى تعرف بقصبة مراكش أو قلعتها ، والتى كانت قد أنشئت من أجل يعقوب المنصور ومن أجل حاشيته اللصيقة به ، كان يوجد قصر الخلافة . والى هناك كان الخليفة يذهب كل صباح ، مبكراً ، فهناك كانت توجد خادمية البلاط . وهناك كان يوجد أيضا بناء آخر مخصص لوزير الجند ، ومكتب لرئيس الشرطة ، وجامع ، كما كان يوجد

معسكر الحامية (١).

لما كان الخليفة وهو على رأس قواته يقود الحملات من افريقية الى الاندلس ، كان القصر الخلافى يتوقف وقتئذ عن ان يكون مركز الحكومة ، فهذا المركز كان يتنقل عندئذ مع صاحب الأمر. وبناء على ذلك ، كان يحدث ان يكلف بالسفارات وحتى بالخدمات النظامية المحيطون بالأمير من رجال الحاشية ، من : الأبناء ، والأقارب أو الخدم ، ممن كانوا يتبعونه فى الحرب أو يحرسونه فى جولاته المختلفة.

ومن أجل أداء الأعمال المختلفة ، كان تحت يد الأمير عدد الادارات الحكومة التى يمكن تصنيفها فى ثلاث طبقات ، هى :

١ – حاشية المقربين من الخليفة ، وتتكون من الحجاب والوزراء ، والكتاب.

٢ – مجالس الدولة المكونة من رؤساء الموحدين ، من : المشايخ والطلبة والحفاظ.

٣ – الهيئات التى يقع على عاتقها الادارة العامة للدولة ، مثل : ادارات الشئون الدينية ، والقضائية ، والعسكرية ، والمالية ، وغيرها.

ومن بين هذه الهيئات كانت المجموعة الثانية وحدها ، التى تعتبر ابتكاراً أصيلا لابن تومرت الذى أعطى الدولة الموحدية طرازها الخاص بها ، حيث تظهر سماتها المميزة فى أجلى مظاهرها.

الحجابة:

لا يوجد أى شبه هنا مع مرتبة الحجابة السامية لدى الأمويين الأسبان . ففى

(١) رواية ابن سعيد ، كما توجد فى مسالك العمرى ، الترجمة ، ص١٧٩ ، ٥٩٩ – حيث القصبة (القلعة) عبارة عن مدينة حكومية حقيقة ، حيث توجد مكاتب الادارات العامة المختلفة ، وهى ابتكار موحدى فقد كان يوجد منها فى كل مدينة كبيرة ، حيث يكون للحاكم قصبة فى عاصمة الاقليم . تحوى مسكنه ومساكن الحاشية (هيئة حكومته) ، والمكاتب الرسمية ، والمسجد الجامع ، ومعسكر حامية المدينة . قارن د.برونشفيج ، بلاد البربر الشرقية على عهد الحفصيين ، ج١ص ٣٤٢.

الأندلس كان لقب الحاجب يعادل لقب "رئيس الوزراء" على أيامنا هذه . وهكذا كانت مرتبة المنصور بن أبى عامر الذى كان يحمل هذا اللقب ، عالية حقا .

وعند الموحدين لم تكن الحجابة مصنفة بوضوح بين غيرها من الرتب ، ولكن من المحتمل انها لم تكن رتبة بين الوظائف العليا . وفى البداية لم تكن الأسرة الحاكمة فى حاجة الى حاجب ، ولكن تطور الدولاب الحكومى أملى على الأمير اتخاذ واحد دون ابطاء . فعلى عهد يوسف الثانى من بين الامراء ، ظهرت وظيفة الحاجب لأول مرة . وأول حاجب اتخذه يوسف هو "كافور الخصى" (١) ، وكان للمنصور بدوره حاجبه "عنبر الخصى" ، ثم "ريحان الخصى" ، وأخيرا ابنه هو نفسه : أبو عبدالله محمد (٢)

وحقيقة ان المنصور عهد بهذا المنصب الى خصيانه ، كما كان الحال بالنسبة لوالده ، وكما سيكون الحال على عهد خليفته ، كل هذا يدعوا الى الظن ان هذا المنصب لم يكن مصنفا بين الوظائف العالية . وهكذا تكون وظيفة الحجابة قد فقدت صفتها كوظيفة عامة على عهد الموحدين ، لكى تصبح وظيفة خاصة بخدمة الأمير أو بمعنى آخر خدمة القصر ، وذلك أنه كان من المعروف ان الخصيان كانوا يقومون بالخدمة الخاصة فيما يتعلق بالشئون المنزلية فى قصر الأمير.

ويمكن القول أنه على عهد يعقوب المنصور وخلفائه لم تكن واجبات الحاجب من أعلى مخصصات الدولة ، وذلك أنها كانت تقتصر على عدم

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ . ومما يلاحظ ان صاحب القرطاس (ص٢٣٥ والترجمة ، ص ٢٩٠ - ٢٩١) يخطىء عندما يستخدم مصطلح "حاجب" الأندلس عندما يعطيه للسيد أبى حفص عمر ، أخى يوسف ووزيره ، والحقيقة ان هذا الأخير كان يشغل وظيفة الوزير منذ حياة عبدالمؤمن ثم علي عهد خليفته وأخيه أبو يعقوب يوسف . انظر ابن صاحب الصلاة ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٢ ، ١٧٣ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٠ .

السماح بالدخول الحر أى غير المنظم على الأمير. ومن المؤكد ان هذه الرتبة كانت أقل شأنا من رتبة الوزير ، وكذلك أقل من رتبة الكاتب ، والدليل على ذلك هو مايلاحظ من اسناد وظائف الوزارة والكتابة التى كانت موجودة الى جانب الحجابة ، كانت تسند الى رجال من ذوى الكفاءات المتخصصة حقا(١).

الــوزارة:

أما عن لقب الوزير فهو من الألقاب الموحدية منذ خلافة عبدالمؤمن(٢). وفى البداية أسند عبدالمؤمن هذا المنصب الى أبى حفص عمر أصناج حتى الوقت الذى بدأ يحقق فيه استقرار دولته . ،وهنا يمكن التأكيد على أن الوزارة ، فى نظر عبدالمؤمن ، كانت أسمى وظائف الدولة ، من حيث كان أبو حفص واحدا من أكبر شخصيات الموحدين . وبعد ذلك رفع عنه هذا العبء الذي اعتبره غير لائق بمقام الرجل ، وعهد به الى أبى جعفر بن عطية الذى جمع بين وظيفتى الوزير والكاتب ، الأمر الذى أدى الى اختلاط كل من المنظمتين . وهذا الأمر يمكن أن يفسر بندره الرجال من أهل الأدب والثقافة ، وذلك أنه بعد فتح بجاية ، عهد بالكتابة الى أحد سكان تلك البلدة ، وهو : القَلَمى .وظلت الوزارة بين يدى أبو جعفر بن عطية حتى قتله عبدالمؤمن (٣).

وعلى عهد يعقوب لم تكن اختصاصات الوزير واضحة المعالم . والمنصور نفسه كان يمارس وظيفة الوزير فى حياة والده . فكان يعالج كل أعمال الدولة ، من : مراقبة الولاة ، وجباة الضرائب وإدارة القضاء .. الخ (٤) . أما عن

---

(١) ولهذا السبب ينكر ابن خلدون حتى وجود تلك الوظيفة لدى الموحدين (العبر ، ج١ ص ٢٠١).

(٢) انظر فيما سبق ، ١٠٨ وهـ٢، البيدق ، ص ١١٩ وما بعدها.

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٢ . وعن ابن عطية ، انظر ليفى-برفنست ، رسائل موحدية رسمية ، الدراسة ص٥ والهوامش.

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٥ ، ١٨٩ .

الشخصيات الذين مارسوا هذا المنصب على عهده ، فمنهم : أبو بكر يحيى الذى صحب الأمير الى الأندلس ، ورفع راية الجهاد ، واستشهد فى ميدان القتال فى معركة الأرك (١) . وهذا الحدث بالغ الأهمية اذ يظهر لنا كيف ان واجبات الوزير يمكن ان تتعدى الأمور المدنية الى المهمات العسكرية فالوزير يتبع الأمير دائماً فى اجتماعات المجالس، وفى المواكب الاحتفالية ، ومهمات التفتيش ، والصلوات الاحتفالية .. الخ (٢) . وحقيقة ان هذه الوظيفة كانت واحدة فقط ، الى جانب طبيعة الحكم المطلق من قبل الأمير، كل ذلك كان يبين تعدد اختصاصات الوظيفة من مدنية وعسكرية (٣).

الكتابة:

بعد وظيفة الوزارة تأتي وظيفة الكتابة (أو الكاتب) وهى أقدم الوظائف فى تاريخ الاسلام.

وعلى عهد عبدالمؤمن ، اختلطت هذه المنظمة أو الخطة أولا ، كما سبقت الاشارة بالوزارة ، وذلك عندما أخذ أبو جعفر بن عطية الذى كان كاتبا لقب الوزير أيضا . ولكنه عندما أعفى ابو جعفر من الكتابة ، أصبحت هذه الأخيرة

---

(١) نفس المصدر ، ص ١٨٩ ، ٢٠٥ ، وانظر فيما سبق ،ص ٤٨ ، ونفس الوزير كان صاحب الشرطه ، انظر فيما بعد ، ص ١٤٦ .

(٢) حسب الرسوم الموحدية ، كان الأمير يقوم عقب كل احتفال بالدعاء ويؤمن عليه الوزير - عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٩ ، ٢٥١ .

(٣) وكل ذلك يدعو الى الظن ان لقب الوزير لم يكن حكراً خالصا لصاحب اللقب فى العاصمة : مراكش . فقد كان هناك من رجال الدولة من يحملون اللقب فى الولايات . فابو بكر بن زهر ، الطبيب الخاص بالأمير والذى كان يقضى معظم وقته فى الأندلس كان يحمل لقب وزير (القرطاس ، ص١٣٣) . وكبار الموظفين الذين كانوا يعاونون أبناء عبدالمؤمن فى حكم الولايات كانوا يسمون بالوزراء (انظر هامش ١ص١٥) . ومن هذا الامر يمكن ان نستنبط أنه باستثناء وزير مراكش ، كان الأمير معتاداً على اعطاء اللقب الى بعض الرجال من كبار العاملين فى الولايات ، وان هذا اللقب لم يكن إلا شرفياً.
ومع مرور الوقت تطورت هذه المنظمة وأخذت شكلا آخر . فعند اضمحلال الدولة الموحدية ، نجد فى الدولة الحفصية ٣(ثلاثة) وزراء أحدهم هو وزير الجند ، رئيس المنظمة العسكرية ، والثانى هو وزير الاشغال المختص بالادارة المالية ، والثالث هو الوزير كاتب الدولة حقا ، رئيس ديوان الانشاء ، ورئيس الشرطة . انظر ابن خلدون ، العبر ، ج١ ص ٢٠١ ، ج٦ ص٣٧٥ ، والعمرى ، المسالك ، الترجمة ، ص ١١٧ .

خطة مستقلة من جديد .

وعلى عهد يعقوب المنصور نلتقى بنوعين من الكتاب ، أولهما كاتب الدولة (الانشاء) حقيقة ، والآخر كاتب الجند الذى يختص بالامور العسكرية تماما (١).

ويجب البدء أولا بتحديد الاختصاصات المائعة لاحد الديوانين وهو ديوان الانشاء . ونشاطه من حيث المبدأ هو اصدار الرسائل الرسمية.

فالخليفة من حيث كونه رئيس أعلى للجماعة الاسلامية مطالب حسبما تقضى وظائفه باصدار الوثائق التى تعبر عن سلطاته السيادية . وهذه الوثائق التى تصنف تبعا لطبيعتها المختلفة تبعا لمحتواها ولطبيعتها القانونية ، وهى عادة ما تسمي بمصطلح "الكتب أو الرسائل" ، وهو المصطلح الذى ليس له قيمة رسمية . فاصدارها من اختصاص الديوان . ولكى ندرس هذا الديوان على عهد المنصور ، يجب دراسة عدد من الوثائق الرسمية ، المنشأة بإسمه والصادرة عن خدمات الديوان . وفى هذا المقام ،فإن مجموعة الرسائل الموحدية (٢) ، الى جانب غيرها من الرسائل المعروفة من قبل (٣) ، تجعل الأمر من السهولة بمكان ، ففيما يتعلق بتنظيم الديوان ، من جهة ، كالقواعد المتبعة بدقة من أجل إنشاء الرسائل الرسمية ، ومن ناحية أخرى ، من حيث دراسة الرسم : الشكل أو المضمون القانونى.

والرسالة تصدر دائما باسم الأمير الموحدى ، بصفته أمير المؤمنين ، دون إشارة محددة الى اسمه أو كنيته أو لقبه . بعد ذلك يأتى إسم الموجهة إليهم ، ثم التسليم تتبعه الحمدلة والتصلية على شرف النبى والدعاء للمرسل اليهم ، وتحديد مكان الكتابة وبعض عبارات تعبر عن عمل اللطف والطاعة للألوهية . وبعد ذلك يأتى القسم الهام من الرسالة ، ويشتمل مرة أخرى الدعاء

(١) هذه الخطة المزدوجة بدأت على عهد يوسف أبى يعقوب . انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ .

(٢) أ.ليفى – بروفنسال ، الرباط ، ١٩٤١ ، والدراسة ، باريس ، ١٩٤٣ .

(٣) انظر ما سبق ، المقدمة ، ص٦ .

للمخاطبين ، والهدف من الرسالة . وأخيراً تأتى الخاتمة ، والتى تنتهى عادة بتأكيد الوحدانية الإلهية تتبعها عبارة السلام. ويظهر تاريخ الإنشاء فى النهاية تماما . هذا ، ويمكن ملاحظة بعض الخصائص ، مما أشار اليه أ.ليفى- بروفنسال (١) ، مثل :

أ – استخدام صيغة الجمع فى الخطاب.

ب – كثرة العبارات الاستعطافية فى صلب الرسالة.

ج – الأسلوب المبهرج والعبارات الطنانة.

واعتبارا من عهد يعقوب المنصور ، تدخل عبارة جديدة فى صدر الرسالة ، بعد ذكر مكان الإنشاء ، إنها الوصية (٢).

ولكى تأخذ الرسالة شكلها النهائي ، فيجب عليها أن تحمل إشارة تسمى العلامة ، يجب ان توضع على أصول الرسائل التى يصدرها ديوان الانشاء . ففى سنة ٥٦١هـ (١١٦٥ – ١١٦٦م) يقول لنا ابن صاحب الصلاة ، أنه اتفق على ان يكتب الأمير أبو يعقوب ، ابن الخليفة أمير المؤمنين ، بيده هو "العلامة المباركة" ، وهى عبارة :"الحمد لله وحده" ، وأن الأوامر الأميرية العليا لن تكن نافذة إلا بتلك الاشارة (٣) . ويضيف ابن خلدون الذى ينقل نفس الرواية ، ان تلك الاشارة كانت تضاف بمعرفة المهدى فى بعض إصداراته ،وأنها استخدمت بعد ذلك كعلامة للموحدين حتى نهاية الدولة (٤). وفى عهد أبى يوسف المنصور كان الأمير يكتب العلامة بخط يده نفسه (٥) ، ولكنه

(١) الرسائل الموحدية، الدراسة ص ١٥ وما بعدها.

(٢) رسائل موحدية ، الدراسة ، ص١٧ .

(٣) المنى بالامانة .

(٤) العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٩ ، والترجمة ، ج٢ص١٩٧

(٥) ويذكر مؤلف القرطاس (ص١٤٣ ، ابن أبى دينار ، ص ١١٤) ان يعقوب كان أول من كتب العلامة بيده هو نفسه .

يملك فى نفس الوقت خاتما ، حيث نقش فيه : "على الله توكلت" ، وهى الجملة التى كانت رمزا للموحدين (١) . وأضاف الناصر ابن المنصور الى ذلك : "هو حسبى ونعم الوكيل" (٢) . ولكننا نظن ان هذا الخاتم كان مجرد شعار للأمير ، وانه لم يستخدمه فى ختم الأوراق الرسمية أبداً (٣).

مجالس الدولة :

الى جانب تلك المنظمات الحكومية ، من الوزارة والحجابة والكتابة التى تعطى الدولة شكلا مركزيا مطلقا ، كان الأمير يتصرف فى عدد من المجالس أو المجامع التى تساعده فى حالات الضرورة التى تتطلب الإجماع الوطنى.

مجلس العشرة :

ولنتطرق أولا إلى مجلس العشرة الذى يعرف باسم "أهل العشرة" أى مجمع العشرة . هؤلاء العشرة يمثلوا حاشية المقربين من الأمير الموحدى . وهم يكونون العشرة الأوائل الذين اعترفوا برسالة المهدى : ابن تومرت . وكان لعبدالمؤمن الذى كان عضوا فى هذا المجلس مكانة خاصة . فقد كان المهدى يسميه "صاحب الوقت" (الوقت المناسب). وكان له وحده امتياز ركوب حصان أسود (٤) . ونحن نلاحظ أن المؤرخين لا يتتبعون تطور هذا المجلس عبر الزمن ، ولكنهم يكتفون بذكر العشرة : أصحاب محمد بن تومرت . ومع ذلك فكل الدلائل تشير الى أنه كان لهذا المجلس مكانة هامة طوال الوقت ، كما كان على عهد ابن تومرت ، وأنه كان واحدا من أعلى المنظمات فى الدولة الموحدية . وعلى عهد الحفصيين كان ذلك المجلس ينقسم الى جماعتين

(١) القرطاس ، ص ١٤٨ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٣ ، وقارن ج.ديمومبين ، مقدمة كتاب المسالك للعمري ، ص ٣٨ من ترقيم المقدمة .

(٣) البيدق ، ص ٣٣ والترجمة ، ص ٤٨ .

(٤) البيدق ، ص ٣٣ والترجمة ، ص ٤٨ .

، الأولى فى رتبة أعلى من الثانية ، وكانت تتكون من ٣ (ثلاثة) شيوخ ، وكانت الجماعة الثانية ٧ (سبعة) أشياخ . واذا كانت المعلومات التى يقدمها الكتاب عن مجلس العشرة ليست واضحة تماما ، فإنه يمكننا على الأقل تقرير أن وجود جماعتين فى داخـــل ذلك المجلس أمر يعود الى بداية الدولة الموحدية (١).

مجلس الخمسين :

والمجلس الثانى هو مجلس الخمسين (٢) . ولهذا المجلس أهمية خاصة من حيث أنه يتكون من رؤساء القبائل ، وأعيان أهم القبائل الذين يسودون كل جماعة التوحيد . أنه اشبه ما يكون بالمجلس الوطنى فى الدولة الحديثة أو بالمجلس التنفيذى لأحد الأحزاب القوية ، حاليا .

ان عدد الممثلين للقبائل المشاركة فى هذا المجلس يختلف حسب الأهمية لكل قبيلة . وهكذا كان عدد أعضاء قبيلة أهل تينملل ، مهد الدولة الموحدية ، كان يتراوح ما بين ١٤ (اربعة عشر) أو ١٩ (تسعة عشر) (٣) ، بينما كان عدد مندوبى القبائل الأخرى يصل الى ما بين واحد وثمانية (٤) . ان مجلس الخمسين ، رغم انه يتكون من رؤساء القبائل الموحدية ، فإنه من حيث الطبقة أقل من مجلس العشرة . والمهم ان الخليفة ، فى آخر الأمر ، دوالذى يقرر وحده كصاحب الكلمة الأخيره ، على أساس أنه صاحب

---

(١) انظر العمرى ، مسالك ، المقدمة ، ص ١٣ ، ١٤ والترجمة ، ص ١٨٥ .

(٢) يلاحظ أن المؤلفين عندما يقدمون عدد أصحاب هذا المجلس يختلفون فى تعداد ما بين ٤٠ (اربعين) و ٥٠ (خمسين) فردا . البيدق ، ص ٣٣ ، الترجمة ص ٥١ ، والتاريخ المجهول فى منوعات ر.باسيه ، ١٩٢٥ ص ٣٤١ ، القرطاس ، ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٩ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٥ – ١٣٩ .

(٣) المؤرخ المجهول (حسب ابن صاحب الصلاة) ، منوعات ر.باسيه ١٩٢٥ ، ص ٣٤١ ، البيدق ، ص٣٣ والترجمة ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر .

السلطة العليا(١).

الطلبة والحفاظ:

أما عن الطبقتين التاليتين ، فهما طبقة الطلبة (ومفردها طالب) وطبقة الحفاظ (ومفردها حافظ) . ولقب الطالب أعطاه ابن تومرت الى أتباعه والى رؤساء الجماعات الذين التفوا حوله لتعلم مذهب التوحيد . ولما كنا نعرف ان عبدالمؤمن كان واحداً من أوائل اتباع ابن تومرت ، فتستطيع القول أنه كان واحداً من أوائل من حملوا لقب "طالب" . أما بالنسبة لبقية أتباع ابن تومرت من ابناء الشعب الذى اعترفوا بإمامته الروحية ورئاسته الدنيوية فقد سماهم "الموحدون" . وهكذا لا ينبغى ان نستنتج أن "الطلبة" كانت لهم مهمات محددة أو أنهم كونوا فى بداية الأمر تنظيما خاصاً له خصائص معينة . فحسب اشتقاق الكلمة كان الطلبة هم الذين يدرسون علوم التوحيد ، ويعرفون كتب الدين ، ومجموعات كتب الحديث التى ألفها المهدى لأتباعه . وهم يمكن ان يكونوا أعضاء فى مجلس العشرة أو مجمع الخمسين . وكانت اختصاصاتهم تتنوع حسب مقتضى الحال ، من العمل : بالدعوة ، أو حكومة الأقاليم أو القيادات العسكرية من برية وبحرية (٢).

ولكنه على عهد عبدالمؤمن أصابت هذه الطبقة تغييرات أساسية . لقد

(١) ان التاريخ المجهول المعنون بالحلل الموشية (ص٥٨) ، يقرر بمناسبة التدرج الموحدى الطبقى فى حالة الحرب ، أن الطبقة الثالثة التى تأتى بعد أهل خمسين كانت "مجلس السبعين" ، وكانه من المحتمل ان تكون هناك طبقة على ذلك النحو . والظاهر ان صاحب الحلل يأخذ معلوماته من التاريخ المجهول المؤلف لها الذى حقق ونشر بمعرفة أ.ليفى • بروفنسال (منوعات ، ر. باسيه ، ١٩٢٥ ، ص ٣٤١) وهنا نجد موضعا للقول ان ابن الخطيب فى جزئه المسمى رقم الحلل (ص٥٤) يذكر تلك الطبقة من أهل سبعين ، فى الطبقة الخمسين .

(٢) من ذلك أن من يسمى : أبو محسن وسّنار أو أبو حفص عمر بن تفراجين اللذين كانا على التوالى والبين لمراكش ، كانا عضوين لكل من مجلس العشرة ومجمع الخمسين . انظر ، البيذق ، ص ٥٢ ، ١٩٦ والهامش ، رسائل موحدية ، الدراسة ، ص ٣٣ .

أصبح الطلبة يكونون طبقة الولاة والرؤساء العسكريين . والحقيقة ان عبدالمؤمن جمع حوله أبناء رؤساء الموحدين ، وعمل على تربيتهم مدنيا وعسكرياً حسب برنامج تربوى خاص ، وجعلهم يخلفون آباءهم فى الحكومة ، فخلق منهم نوعا من الطبقة الادارية الحسنة التأهيل ، والأكثر طاعة والأقل خطراً (١).

وهؤلاء الطلبة حملوا فى أول أمرهم لقب الحفاظ (ومفردها حافظ) : نسبة الى حفظ القرآن ، أول خطوات التعليم وقتئذ . وهكذا انقسمت طبقة الولاة الى طبقتين ، هما : الحفاظ فى بداية التدريب المهنى ، ثم الطلبة ، وهم الأكثر ارتقاءً فى مراتب التنظيم ، والتى يرتقى اليها طبقة الحفاظ ، بعد فترة زمنية محددة ، أو حسب الظروف بعد تقديم خدمات مرموقة.

وهنا يمكن ان نلاحظ ان طبقة الطلبة تنقسم الى صنفين :"طلبة الموحدين، "طلبة الحضر". حدث ذلك بعد أن أخذت قبائل مصمودة لقب"الموحدين" ، فقسم عبدالمؤمن الطلبة الى هذين الصنفين (٢) . وهذا التقسيم كرّس التفرقة بين كل من طبقتى "طلبة الموحدين" ، وغيرهم علماء القبائل الأخرى ، ممن كانوا من الأحلاف أو من أبناء البلاد الخاضعة (٣).

أجهزة الدولة الأخرى:

لما كان بناء الدولة قائما على الأسس الدينية لم يكن من المستغرب ان تكون الأمور الدينية دائما ، موضع اهتمام الأمير المباشر . فعن طريق الرسائل التى كان يصدرها الأمير من وقت الى آخر ، والموجهة الى كل ولايات الدولة ، كان الأمير يلح على الواجب الضرورى على كل الرعية الموحدية فى احترام

---

(١) انظر ابن الأثير ، ج١١ ص ١٤٠ ، الحلل الموشية ، ص ١٢٥ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٤ .

(٣) نفس المرجع .

تعاليم مذهب التوحيد . وهكذا كان حريصا على ادارة السياسية الدينية بنفسه مباشرة .

إمامة الصلاة :

كان ابن تومرت قد اتخذ عادة الإنابة عنه فى أمامة الصلاة بسرعة ، فقد كان يوكل عنه لإمامة الصلاة أحد أصحـــابه ، وهو : الشيخ أبو زكريا الدّرعى (١) . واستمر هذا الأخير فى شغل وظيفة الامام على عهد الخليفة عبدالمؤمن ، وعلى عهد يوسف أيضا .

ولكنه ، وفى بداية عهد أبى يوسف يعقوب المنصور ، إلا يركن الى الإنابة فى أدارة الصلاة باسمه ، بل أراد السير على نهج الخلفاء الراشدين فى إمامتهم للصلاة بانفسهم . ومع ذلك أفلم يكن من الأمور الصعبة للأمير المثقل بمهام الدولة الزمنية دون الحديث عن مهامه الشخصية ، ان يقوم بنفسه باداء المهام الدينية التى يمكن ان يعهد بالقيام بها الى غيره ؟ ان توالى الأحداث أثبت بحق أنه افتقد حسن التصرف ، ووضوح الرؤية بالنسبة لهذا الأمر ، وبالتالى فإنه اضطر الى تغيير توجهه فى هذا المجال(٢) .

ونحن ندين لعبدالواحد فى وصفه للاحتفال بصلاة الجمعة حسب قواعدها وشكلياتها الرسمية (٣) . فبعد صلاة قصيرة ، يجلس الإمام (٤) . ويقوم أحد خدمة الجامع بقراءة ١٠ (عشر) آيات من القرآن . وعندما يأزف وقت الصلاة يطلب رئيس المؤذنين السماح للخطيب بالصعود الى المنبر . وعندئذ تبدأ الاحتفال برسوم الصلاة الشكلية ومضامينها الشرعية . فيدعو ٣ (ثلاث) من المؤذنين الى الصلاة الواحد بعد الآخر ، ثم يقوم الخطيب ويبدأ

(١) البيدق ، ص ٣٧ ، والترجمة ، ص٥٨ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص٢٠٧ ، ص٢٤٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٤٩ وما بعدها .

(٤) فى هذه الصلاة يقوم الأمير بأداء ركعتين، عبدالواحد ، ص ٢٥٠ .

الخطبة بالحمدلة تتبعها الإستعاذة . ثم تأتى بعد ذلك الشهادة ، يتبعها الدعاء للحضور . ثم بعد ذلك يقرأ سورة قاف (١) . جميعها ، حيث ينتهى القسم الأول بين الخطبة .وبعد فترة يقف الخطيب لالقاء النصف الآخر من الخطبة التى تبدأ بحمدلة ثانية تتبعها استعاذة أخرى ، وشهادة ثانية . ثم تأتى التصلية ، واستنزال الرحمة على النبى والبركة ، وعلى آله وصحبه ، وكذلك على الإمام ابن تومرت : محمد بن عبدالله (٢) ، القرشى ، الحسنى ، الفاطمى ، المحمدى (٣) ، وعلى وريث شرفه ، الإمام عبدالمؤمن ، وعلى أبى يعقوب خليفته ، وعلى "المجاهد فى سبيلك " ، الخليفة الامام أبو يوسف بن أمير المؤمنين ، وولى عهده . وبعد ذلك يأتى دعاء من أجل الخليفة ، يتبعه آخر من أجل الموحدين ، وبه تنتهى الخطبة . وينزل الخطيب ، ويؤم الصلاة . وبعد الصلاة يقوم الأمير نفسه بدعاء أخير ، ويؤمن على دعائه الوزير بصوت مرتفع .

وهكذا يذكر رسم الخطبة وشكلها القانونى بالخطابات الرسمية الموحدية(٤) . فى خصائصها التقنية .

---

(١) السورة ٥٠ من القرآن ونفس هذا التقليد ، المنسوب إلى يعقوب سيستمر على عهد الحفصيين بإفريقيا قارن ، ر. برونشفنج ، ونفس بلاد البربر الشرقية . على عهد الحفصيين ، ج٢ص٢٢ .

(٢) نفس اسم الرسول وهو الأمر الذى لا يثبت امام التحقيق الدقيق . فهو لم يتخذ هذا الاسم إلا عندما صار إماماً مهديا ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٣ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ص٢٢٥ ، الترجمة ، ج٢ص١٦١ ، الحلل ، ص ٨٤ ، وانظر البيدق ، ص ٢١ ، ٣٠ والترجمة ص ٣٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، القرطاس ، ص ١١٠ ، الزركشى ، ص ٢ ، ابن أبى دينار ، ص ١٠٧ ، وقارن أ.ليفى – بروفنسال ، ابن تومرت وعبدالمؤمن الكتاب التذكار لـهـ. باسيه ، ١٩٢٨ ، ص ٢١ .

لما كان ابن تومرت من أصل بربرى فإنه اضطر من أجل اتخاذ المهدية ان يصطنع لنفسه نسبا علوياً ، انظر فيما بعد ، ص ٢٠٤ .

انظر فيما سبق ، ص ١١٣ .

تنظيم الجيش وخدماته :

بعد الأمور الدينية تأتي حسب ترتيب الأهمية الأمور العسكرية . وكما هوالحال فى الدول الاسلامية الأخرى ، من الصعب رسم خط فاصل بين المنظمات المختلفة . وذلك أنها تختلط بعضهابالبعض وخاصة مع الإرتفاع فى السلم الوظائفى فى الدرجات العليا . والمثل على ذلك ، ودون البحث بدقة فى العلاقات بين مختلف المنظمات ، فليس من الغريب ان نجد وزير يستشهد في ميدان القتال ضد النصارى وان نجد "طالباً" أو "حافظا" يمارس وظيفة عسكرية.

واذا كان كل موحّد بمعنى كل عضو فى جماعة الموحدين ، له مكانه الخاص "بالأمر الواقع" فى سلم التنظيم العسكرى ، فلا يجب ان نستخلص ان كل واحد من رعيه الدولة كان موحّدا ، فالموحدون فقط هم أنصار المذهب القدامى ، من الأشخاص أو القبائل . فالعرب مثلا والأسبان (الأندلسيون) الذين خضعوا فيما بعد للدولة الموحدية لم يعتبروا أبدا من الموحدين ، رغم وجود كثير من المتعاطفين منهم لنظام الموحدين.

والخليفة هو القائد الأعلى للقوات المسلحة . فهو الذى يسير على رأس الجيش عندما يتعلق الأمر بعملية عسكرية خطيرة الشأن ، ولكنه فى الأحوال العادية ينيب أحد المخلصين من رجاله فى القيادة.

وفى قمة سلم الوظائف العسكرية يأتى مجلس "العشرة" ، ومن بعده مجلس "الخمسين" . أما عن دورهم بالضبط ؟ فمن الواضح أنهم كانوا أول من يتقدم أمام الخليفة فى يوم العرض (العام) (١) . وفى أثناء العمليات العسكرية كان يعهد إليهم بقيادات قطاعات أخرى من الجيش ، فى حالة عدم بقائهم فى مركز القيادة فى معية الأمير.

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٤ .

وأخيراً نأتى الى تكوين هيكل الجيش الحقيقى ، الذى يتكون من ٦ (ست) قبائل موحدية ، هى : قبيلة الأمير والقبائل الحليفة الرئيسية . فهى التى تكون النواة العسكرية . وكان من المنطقى ان تكون هرغة ، قبيلة محمد بن تومرت مؤسس الجماعة ، صاحبة المكان الأول فى التنظيم العسكرى وهنا نجد أنفسنا على أرض صلبة من حيث اتفاق كل الوثائق التاريخية على تفوق قبيلة الامام ، وهو سياده شرفية بطبيعة الحال ، منذ إمارة عبدالمؤمن . ومن الطبيعى أيضا ان تكون قبيلة عبدالمؤمن رأس الأسرة المؤمنية ، وهى كومية فى المكان الثانى منذ وصوله الى سدّة الحكم . وهكذا إذا أخذنا هذا التطور الزمنى بعين الاعتبار ، فإن الاختلافات بين الشواهد التاريخية تصبح غير ذات موضوع . والذى نراه هو أن المؤلفين الذين لا يذكرون قبيلة كومية بين قبائل الموحدين ، على أساس أنها ضمن القبائل الحليفة إنما يشيرون ، حقا ، الى الفترة السابقة على عهد عبدالمؤمن (١) . وعلى العكس من ذلك يتفق المؤرخون على أن يكون المركز الثانى "لأهل تنملل" ، مهد الدعوة ، والذين يكونون عدداً من القبائل المختلفة.

وفيما يتعلق بترتيب القبائل الأخرى ، فالأمر ليس أكيد أبدا ، من حيث عدم اتفاق الوثائق وهنا يمكن ان تكون قبيلة هنتانة هى التالية ، فى أغلب الظن ، لأهل تينملل (٢) . وحقيقة ان عبدالمؤمن كان يسعى الى اكتساب

---

(١) عبدالواحد (المعجب ، ص ٢٤٤) وابن أبى زرع (القرطاس ، ص ١٣١) هما المؤرخان الوحيدان اللذان يضعان كومية بين قبائل الموحدين ، فى المركز الثانى ، بعد هرغة . وحسب صاحب القرطاس فإن عبدالمؤمن استدعى قبيلته الى مراكش سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢م ، لكى تصنف فى الطبقة الثانية ، وتكون الحرس الخاص للأمير . أما البيذق (النص ، ص ٤٤ والترجمة ، ص ٦٦) فيضع كوميه فى المركز السادس . وقارن ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ٢٤٤ ، والترجمة ج٢ ص ٢٥٤ .

(٢) حيث تحظى تلك القبيلة عند اغلب الكتاب الموثوق بهم بالمركز الثالث : عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ ، البيذق ، ص ٤١ والترجمة ص ٦٢ ، ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ٢٢٤ ، الترجمة ، ج٢ص ١٥٩ .

حلف تلك القبيلة عن طريق الزواج من ابنة أبى حفص رئيس هنتانة ، الذى كان من الممكن أن يخلف عبدالمؤمن ، يأتى ليساند فكرة تفوق هؤلاء الأخيرين على قبيلة "جدميوه" (١) . فهنتانة تتكون من ٩ (تسعة) أفخاذ(٢) ، وبعدهم تأتى جدميوه ، ولها ٤٦ (ستة واربعون) فخذا (٣). وأخيراً تأتى قبيلة جنفيسة (٤).

تلك القبائل الست كانت تمثل العناصر الموحدية التى تكون نواة الجيش النظامى ، والذين كان يسجل محاربوهم فى ديوان الجيش كأصحاب رواتب منتظمة .

والى هذه القبائل الست يجب ان تضاف غيرها من الطبقات الأخرى ، وهى القبائل ذات الأهمية الأقل ، من حيث أنها لا تكون طبقة خاصة فى الجيش ، والتى كانت تتجمع معا لتكون طبقة واحدة ، وهى التى كان يطلق عليها معاً اسم "القبائل" (٥) . وبناء على هذا التجميع يمكن احتساب قبائل

(١) وهؤلاء يساندهم فى التفوق مؤلفون آخرون ، مثل : صاحب "الحلل" (ص٦٨) والعمري (المسالك ، الترجمة ، ص ١٨٥ ، وصاحب التاريخ المجهول (منوعات ر.باسيه، ص ٣٤٠) .

(٢) البيدق ، ص ٤١ والترجمة ، ص٦٢ ، ١٩٩ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٤١ ، الترجمة ص ٦٢ ، وعبدالواحد هو الوحيد الذى يضع جنفيسه قبل جدميوه ، وهو يقول : ان بعض أفخاذ تلك القبيلة كان من الأحلاف . المعجب . ص ٢٤٦ .

(٤) وهى القبيلة ذات اللسان البربرى السليم ، تبعا لعبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ .

(٥) ابن خلدون : الذى يثير مشكلة خاصة بقبائل مصمودة . فبعد القبائل الخمس التى أشير اليها فيما سبق ، دون كومية ، يصنف تسع قبائل أخرى ، هى : أوريكه ، رجراجة ، هزميره ، دكّاله ، أسادن ، بنوقزجيت وعيلانه(هيلانه) (العبر ، ج٦ ، ص ٢٢٤ ، الترجمة ج٢ ص ١٥٩ ، ١٦٠). ولكنه لا يبين أى اختلاف بالنسبة لطبيعة هذه القبائل الأربعة عشر ، داخل الجيش ، إلا فيما يتعلق بترتيبها التدريجى . بينما نجد عند عبدالواحد (المعجب ، ص ٢٤٨) وفى البيدق (ص ٤٣ ومابعدها و الترجمة ص ٦٦ وما بعدها) بعض هذه القبائل مرتبة ضمن القبائل الحليفة . وهكذا يكون هناك ما يدعو إلى الظن أن القبائل التسعة يجب أن تصنف بين القبائل الحليفة — التاريخ المجهول ، منوعات ر.باسيه ، ص ٣٤٠ ، البيدق ، ص ٤٣ ، وما بعدها ، الترجمة ، ص ٦٦ وما بعدها ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٨ .

هسكورة ثم جزء من قبائل صنهاجة (١) .

وفى بداية ولاية يعقوب المنصور ، كانت القوات المسلحة تتكون من ٣ (ثلاثة) عناصر ، هى : الموحدون السابقون الأولون ، والقبائل الحليفة ، والعرب من البدو (أى العربان) . وكان دخول العرب فى خدمة الجيش يرجع الى عهد عبدالمؤمن (٢) . وعلى مرّ القرون أصبح العرب عنصراً أساسيا فى القوات غيرالنظامية (المطوّعة) . فكان لهم شرف القتال فى مقدمة المجاهدين بالأندلس ضد القوات المسيحية . وفوق ذلك فقد كان لهم دور يزداد كثافة عند تغير الإمارة وتحولها من حاكم الى آخر . وهكذا فبمناسبة الولاية أصرّ يعقوب المنصور على أن العرب الذين يصفهم "بإخوة" الموحدين ، كانوا قد طالبوا بتعيينه ولياً للعهد ، فى حياة والده (٣).

ودخل حدث جديد على القوات المسلحة على عهد يعقوب ، وذلك هو السماح لفرقة من "المماليك" المصريين بالعمل بالجيش الموحدى – بعد فترة الاضطراب التى أثاروها بمعاونة العرب فى افريقية – وهؤلاء عرفوا باسم "الأغزاز" أو "الغزّ" .

وكان هناك فرقة أخرى مكونة فى أغلب الظن ، من العبيد السود الوافدين من السودان . وكان هؤلاء يطلق عليهم أسم "العبيد" (٤) ، من حيث أنهم

---

(١) نفس السابق.

(٢) بعد العمليات الحربية الأولى – الخاصة بتهدين افريقية ، ضحية اعمال عصابات البدو من عرب رياح ، وجشم و الأثبج وزغبة ، على يد عبدالمؤمن – أتى فخذ من رياح من الذين يعرفون ببنى محمد يعلنون الخضوع والطاعة للموحدين ، ويعرضون خدماتهم من أجل الجهاد . ومثل ذلك فعلت قبائل جشم التى أتت تعلن الخضوع للجيش الموحدي . وهنا قرر الأمير إقرارهم جميعا فى المغرب ، وإدخالهم فى خدمته . رسائل موحدية ، النص ص ١١ ، والدراسة ، ص ٤٨ وانظر ج.مارسيه ، العرب فى بلاد البربر ، ص ١٨٤ – ١٨٥ ، وانظر فيما سبق ، ص ٨٨ وهـ٣ .

(٣) رسائل رسمية موحدية ، النص ، ص ١٦١ ، والدراسة ، ص ٥٥ .

(٤) القرطاس ، ص١٤٧ .

من المماليك . وكان عمل هؤلاء يتلخص فى الخدمة فى حرس الأمير الخاص (١) ، كما كان عليهم خدمة الأمير المنزلية فى القصر ، كما كان المعتاد فى ذلك العصر. وان هؤلاء السودان هم سلالة الطبقة التى عرفت باسم "أهل الدار" على عهد محمد بن تومرت (٢) . وكان هؤلاء من موالى الأمير ويقومون بخدمته ليل نهار . والى جانب كل ما ذكر من فرق الجيش المختلفة ، تأتى جماعات المتطوعة ، الوافدين من كل أقاليم المغرب(٣) .

والجيش الموحدى فى بداية الأمر لم يكن يتكون إلا من عناصر افريقية خالصة . ولكنه كما كانت العمليات العسكرية الكبرى تدور دائماً فى الأندلس ضد المسيحيين فإن هذا الواقع أملى ضرورة تكوين جيش اندلسىّ صرف ، كان يلحق دائما بالقوات الموحدية عندما تعبر المضيق من أجل الجهاد . وهذه القوات العربية الاسبانية كانت مقسمة حسب قبائلها الأصلية ، وكانت مجمعة حسب مواطنها فى البلاد الأندلسية . والظاهر يدعو الى الظن ان هذه الفرق كانت مستقلة ، وأن رؤساءها كانوا من الأندلسيين ، وانها كانت ذات ترتيب خاص بها ، وفوق ذلك فإنها لم تكن توضع أبداً فى خدمة الأمير خارج الأراضى الأسبانية .

تنظيم ديوان الجيش وأسلوب عمله :

يلاحظ أنه ابتداء من عهد يوسف تتحدث المصنفات التاريخية عن التفرقة بين ديوان الدولة للانشاء وديوان الجيش الذى أصبح أمينه معروفاً "بكاتب

---

(١) فى المعارك الكبرى كان هؤلاء العبيد يكونون الحرس الخاص للأمير – انظر القرطاس ، ص ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٧ ، ١٥٨ ، ابن عذاري ، المجهول ، ص ٥١ ، ٦٤ .

(٢) التاريخ المجهول ، منوعات ر.باسيه، ١٩٢٥ ، ص ٣٤٠ ، البيدق (مقتبس) ، ص ٢٥ .

(٣) فيما يتعلق بمعركة الأرك (الأركوس) يقول ابن خلدون أن جماعات المتطوعة هذه ، التى كانت تعادل نصف قوات جيش يعقوب المنصور ، كان يقودها محمد بن أبى حفص ، بينما كان أخوه يحيى يقود بقية القوات (العبر ، ج٦ص٢٤٥ ،الترجمة ، ج٢ص٢١٢ .

الجيش" . ويجب ان يفهم من ذلك أنه وجدت سجلات خاصة تدون فيها اسماء العساكر النظاميين الذين تصرف لهم رواتب شهرية أو على فترات منتظمة . ومقر هذه السجلات ، كما رأينا ، كان في القصر الخلافي مع مجموع المكاتب الخاصة بالحكومة المركزية (١) . وهي لا تحوى في قوائمها الى العساكر النظاميه ، الأمر الذي يعني انهم من الموحدين الخلص(٢) . وهؤلاء العساكر كانوا يسمون "الجموع" ، وكانوا من ذوى الرواتب فهم اذن من "المرتزقة" أى المحترفين ، الذين يخدمون أبدا تحت العلم بمراكش العاصمة . أما جماعات العساكر الأخرى ممن يسمون "بالعموم" (العامة) فكانوا مستقرين في بلادهم ، فلا يحضرون الى مراكش الا وقت التعبئة (٣) . وهنا يمكن المقارنة بين هذا التقسيم ، الى : محاربين موحدين وغير موحدين وبين التفرقة بين شاميين وغير شاميين على عهد الأمويين الأندلسيين ، بالنسبة لديوان الجيش ، حيث لم يكن الديوان إلا من أجل الشاميين وحدهم (٤) .

والى جانب تسجيل المحاربين ، ودفع الرواتب ، فمن المحتمل ان يكون أمين ديوان الجيش هو المسئول عن العرض الذى يعنى التفتيش الدورى العام الذى يحضره الأمير ، الى جانب عمليات إمداد الجيش والتموين ، وأخيرا توزيع المغانم حيث يعاونه وقتئذ بعض المختصين الذى ربما كان القاضى . ومنظمة ديوان الجيش هذه التى بدأت متواضعة على عهد يوسف ، والتى ازدهرت على عهد يعقوب ، ستتطور الى أن تصبح من أهم دواوين الحكومة على عهد

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٠٧ .

(٢) انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٤٦ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٨ – حيث تقدير عدد العسكر النظّامى (أجناد) فى مراكش بعشرة آلاف ، دون حسبان أولئك الذين يستقرون فى الولايات.

(٤) قارن أ.ليفى – بروفنسال ، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ، ص ١٩ ، دوزى ، بحوث (Recherches) ، ج١ ص ٨٨ .

الحفصيين (١) .

التسليح والمعدات :

ان تجهيز القوات الموحدية وتسليحها سواء كانت نظامية أوغيرها من القوات المساعدة ، لم يكن يختلف كثيرا عن غيرها من القوات الاسلامية الأخرى ، خلال كل العصورالوسطى . وهنا نأسف لندرة الوثائق التاريخية ، وافتقاد الوثائق الأيقونوغرافية (التصويرية) تماما ، من : النحت أوالحفر ، والنقش والنقود والرسم وغيرها .

وكما هى العادة فى تلك العصور كان الحصان هو آلة الحرب بالامتياز ، فقد كانت الخيالة هى التى تقرر مصير المعركة فى نهاية الأمر (٢) . فالفارس كان المحارب الحقيقى في المعركة ، وهو الذى يركب الحصان ويتسلح بالسيف والدرع (٣) . أما المشاة الرجالة فلم يكونوا أكثر من قوات مساعدة ، إذ ليست لهم أهمية كبيرة عند الكتاب . وهكذا عندما يتكلم عبدالواحد ، بمناسبة المحاربين العرب فى الأندلس على عهد عبدالمؤمن ، يقول : أنه كان هناك منهم حوالى ٥ (خمسة)آلاف "فارس" ، بينما يهمل تعداد الرجالة(٤) . ومن المحتمل ان يكون استخدام الجمال كفرقة للخيالة ، كما كان الحال عند المرابطين – على الأقل فى المغرب والصحراء (٥) . وليس فى الأندلس ، كان

(١) قارن ، العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٨٣ .

(٢) ولا بأس من الاشارة هنا الى ان المصطلح العسكرى الدارج فى تلك العصور ، هو: "الخيل والرجال" اى الفرسان والمشاة ، حيث كانت كلمة حصان تعادل كلمة فارس.

(٣) قارن . أ– ليفى – بروفنسال ، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ، ص ١٤٤ – ١٤٥ .

(٤) المعجب ، ص ١٦٠ .

(٥) أما ما يقوله ابن خلكان (٢ج٢ص ٤٥٢ – ٤٥٣) – وما ينقله عنه المقرى (ج٢ص١١٧٥) من استخدام المرابطين للجمال فى موقعة الزلاقة الشهيرة بالأندلس – حيث كان الفضل للجمال التى لم يكن قد رآها الاسبان المسيحيون قبل ذلك ، سببا فى القاء الرعب فى قلوبهم ، وهو ما أدى الى هزيمتهم ، فمن الواضح أنها رواية تخيلية وحيدة، ليس لها ما يسندها ، كحديث الآحاد – إذا صح التعبير.

أمراً وارداً (١) .

أما عن الرجالة (المشاة) فكانوا حسب صنفهم يحملون الترس أو الرمح الطويل أو النشاب (المزراق) القصير (٢) . أما عن رماة السهام أو النبالة فكانوا يحملون أقواسهم ونبالهم (٣) . وكان للموحدون من بين مقاتليهم ، قطعة حربية من حاملى الحجارة فى المخالى (٤) ، وهو السلاح البدائى الذى تم الاستغناء عنه بمجرد تحسن قواهم الحربية .

والآن تعرض لنا مشكلة التجهيز والتسليح وهل كانت على حساب الدولة أم على حساب المجاهدين ؟ إنه من المؤكد ان الدولة كانت تقدم عادة السلاح والملابس للمقاتلين (٥) . وهناك فقرة فى ابن صاحب الصلاة تدلنا فى الحقيقة على أن الدولة هى التى كانت تقدم السلاح ليس للموحدين فقط ، بل وأيضا

---

(١) ابن عذارى ، المجهول ، ص ٦٢ . أما ما قيل عن عبور الجمال مع يوسف بن تاشفين من أجل إرهاب النصاري ، كما حدث فى الزلاقة ، فالظاهر انها كانت من أساليب الحرب النفسية . التى شنها المرابطون على الاسبان – انظر للمؤلف ، تاريخ المغرب العربى ، ج٤ (عن المرابطين) ، ص ٣٠٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ص ٧١ وجه.

(٣) كان للسهام والنبال فى الجيش وقتئذ ما للبنادق والرصاص حاليا فى الجيوش الحديثة . فعن طريقها كان يمكن الوصول الى العدو من بُعد قبل الالتحام وجها لوجه . وفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م – ١١٦٢ أهتم عبدالمؤمن بالانتاج الكثيف للنبال – إذا أمر بإنتاجها فى كل أرْجاء الدولة الفسيحة ، حتى بلغ الانتاج عشرة قناطير فى اليوم الواحد (القرطاس ، ص ١٣١ ، ابن أبى دينار ، ص ١١٢).

(٤) الحلل ، ص ١٠٨ .

(٥) فيما يتعلق بالحملة التى كان يعدها عبدالمؤمن للمسير الى الاندلس يذكر ابن صاحب الصلاة (المخطوط ، ورقة ٣٨ وجه) من بين المعدات : الخيل ، والسيوف ، والتروس ، والملابس ، والثياب ، والعمائم والبرانس . ولكنه من ناحية أخرى ، فإن ما فعله يعقوب المنصور بعد معركة الأرك من السماح للمقاتلة بالاحتفاظ بالغنيمة باستثناء السلاح الذى ينبغى ان يعود الى الدولة يثبت ان السلاح كان من ممتلكات الدولة وليس غيرها . وهذا الرأى يؤكده رواية البيذق (المقتبس ، ص ٤٨) التى تذكر ان الناصر (محمد بن المنصور) سمح لرجال الدين ببيع اسلحتهم والاحتفاظ لأنفسهم بتملك الثمن .

لفرق غير الموحدين ، من : مسوفة ولمتونة وكذلك العرب (١). هذا ولو ان الأمر هنا يتعلق بحملة صغيرة . أما فى العمليات الواسعة النطاق حيث تأتى الأعداد الكثيرة من المقاتلين من كل الأفاق ، فنحن نظن ان مخازن السلاح فى الدولة لم تكن تكفى لتزويد كل الرجال بالسلاح . وهنا كان على الرجال من غير الجند النظامى ان يدبروا تزويد أنفسهم بالسلاح على حسابهم الخاص . وكان لكل منهم مكانه فى الجيش حسب نوعية تسلحه ، سواء كان فارسا أو مشاة أو من المتطوعة . فبالنسبة لهؤلاء الرجال كانت الحرب صناعة رأس مالها السلاح.

والى جانب الأسلحة الفردية تجب اعتبار الأسلحة الجماعية ، وخاصة من آلات الحصار . ومن ذلك النوع تذكر السلالم الطائرة ، والابراج المتحركة ، والمنجنيقات التى تصب وابل الحجارة وغيرها من القذائف المحرقة (٢) . وكان المعتاد بناء معظم آلات الحصار تلك فى ساحة القتال .

رواتب العساكر وأعطياتهم :

كان لجميع العساكر ، مثل غيرهم من الرتب الأخرى ، الحق فى رواتب محددة . وتختلف تلك الرواتب تبعا لطبيعة الخدمة ونوعيتها . وفى البداية يحسن البدء بالكبار من أصحاب الرتب ، من المشايخ ورؤساء القطاعات المختلفة ، وهى الأفراد الذين يكونون نواة الجيش ، والذين كانت منافعهم المباشرة تحقق اخلاصهم فعلاً . ولما كان الأمير يعرف هذا الأمر فقد كان من المعتاد ان يقدم لهم قطعا من الأرض الزراعية وهى القيمة الوحيدة التى كان يسهل نقلها ، والتى كانت تدفع الرئيس الى الخضوع طوعا للأمير ، وتدفعه الى القيام بما كان يقع على عاتقه من الواجبات العسكرية . وكان إعطاء

(١) المخطوط ص ٢٩ ظهر .

(٢) رسائل رسمية موحدية ، النص ، ص ٢٠٣ وما بعدها ، الدراسة ، ص ٦٣ .

الممتلكات الزراعية هذه فى سبيل القيام بالأعباء العسكرية ، هى التى عرفت "بالإقطاع " . (١) . ونظام الاقطاع هذا يختلف عن نظام الاقطاع الذى عرف فى اسبانيا على عهد الأمويين الأوائل ، والذى كان قائما على قاعدة إقطاعات الحدود البيزنطية حيث كان سكان مناطق الحدود يتمتعون بالإستفادة من استغلال الأرض الزراعية فى نظير المشاركة فى الدفاع عنها .

والى جانب الاستفادة من الأرض ، كان لكبار رجال الدولة رواتب منتظمة تعرف "بالبركة" (٢) ، التى كانت تقدم ٤ (أربع) مرات فى السنة ، بمعنى أنها كانت فصلية كل ٣ (ثلاثة) أشهر (٣) . ومن بين كبار رجال الدولة تتميز طبقتان ، احداهما يأخذ أفرادها من الاقطاع والراتب ضعف الطبقة الأخرى (٤) .

وفيما يتعلق باستفادة رؤساء العساكر غير الموحدين مثل العرب والأغزاز ، فمما يستحق الاشارة انهم كانوا يتمتعون بإقطاعات ورواتب أكبر من تلك التى كانت لرؤساء الموحدين (٥).

وهنا ، من المعروف ان المنصورعندما ادخل المماليك المصريين فى الجيش ،

---

(١) العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٢٣ ، القلقشندى ، ج٥ ص ١٤٦ .

(٢) القلقشندى ، ج٥ ص ١٤٠ ، ابن عذارى ، المجهول ص٦١ ، ٦٩ .

(٣) قارن عبدالواحد ، ص ٢١٠ ، ٢٣٣ من حيث يقول انها كانت تصرف ٣(ثلاث) مرات فى السنة (مرة كل ٤ أشهر) . وهنا يقتبس عبدالواحد كلمة "جامكية" والجمع جوامك من مصر ، وذلك ان الرواتب تعرف فى المغرب بالبركة . انظر دوزى ، ملحق القواميس العربية (بالفرنسية) ، ج١ص ١٦٨ .

(٤) العمرى ، مسالك ، الترجمة ص ١٢٦ (القلقشندى ، ج٥ص١٤٠) وهنا نشيرالى ان المؤلف يصرّ على القول بأن الجيش الموحدى كان متمسكا بنظامه الأول الذى يرجع الى عهد ابن تومرت ، الأمر الذى تمسك به عبدالمؤمن وأبناؤه.

(٥) القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٥ ص ١٤١ ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ .

فإنه ميّز رؤساءهم برواتب واقطاعات لم يتمتع بمثلها أحد من أشراف البلاد من قبل (١) . هل كان تمييزهم عن الموحدين كرماً وعطفاً فحسب ؟ هذا ما قاله رداً على الأخيرين على الأقل عندما أثاروا مسألة بعدهم عن بلادهم والصعوبات المادية التى كانوا يواجهونها . أم ان المسألة ربما كانت خوفا من تلك العناصر التى كانت المنفعة الخاصة وحدها هى التى تضمن إخلاصها ، والتى كانت مؤامراتها خطيرة بالنسبة لهدوء الأمير ؟ ولا شك ان تجربة وقوفهم الى جانب العرب وبنى غانية فى افريقية كانت تثير في نفسه ذكريات أليمة(٢) . وهكذا فأغلب الظن أنه حاباهم بالنسبة لغيرهم من أجل أن يضمن إخلاصهم له .

أما عن الجنود النظاميين - المسجلين فى ديوان الجيش - كانوا يتناولون بركاتهم (رواتبهم) كل حسب درجته ، وطبيعة المهام التى يقوم بها ، فارساً كان أو من الرجالة (٣) . أما العساكر الذين يحشدون من أجل حملة معينة فكانت لهم "بركاتهم" طالما ظلّوا فى خدمة العلم . وهنا أيضا تظل رواتب المحاربين الأجانب أكثر ارتفاعا من أجور الموحدين (٤) .

والى جانب الرواتب كان للعساكر الحق الذى لا يمارى فى المغانم المؤخوذة من العدو . وكان نصيبهم دائما هو أربعة الأخماس (٥) . وكانت الغنيمة من الأسباب الرئيسية على تحريض المجاهدين ، فى حربهم ضد الكفار . والحقيقة

---

(١) انظرعبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ .

(٢) انظر فيما قبل ، ص ٧٥ .

(٣) كان راتب الفارس ٣(ثلاثة) امثال الرجال ، البيدق (كتاب الانساب) ، ص ٥ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١٠ ؛ القلقشندى ، ج٥ص١٤١ .

(٥) وهنا لا بأس من الاشارة الى أنه فى كثير من الأحيان ما كان الأمير يتنازل عن نصيبه فى الغنيمة لصالح المحاربين ، تحريضا لهم على حسن القتال قبل لقاء العدو . ومثل هذا كانت حالة المنصور فى كثير من المناسبات . انظر ما سبق ، ص ٤٨ .

أنه كثيرا ما كانت أهداف الحملات الحربية فى أرض العدو ، هى الفكرة من أجل العودة بالأسرى والمغانم .

الربط (على الحدود):

ويمكن ان يرتبط بالجيش نظام الرباط ، وهو نوع معسكرات العباد على الحدود (الثغور) ، وكان ازدهار الربط فى ذلك الوقت ، ليس إلا نتيجة لمفهوم الحرب الجهادية لدى الموحدين . ففى القرون الاسلامية الأولى بعد الفتح العربى للمغرب كانت أهم الربط فى بلاد افريقية . وهذه كانت هدفا للهجمات البيزنطية وكذلك الانتفاضات الشعبية ، وفى هذا المقام لم يكن بناء القيروان كرباط إلا ردّا على مثل هذه الاحتمالات (١) . والحقيقة ان افريقية حافظت لمدة طويلة على تلك السمة ، وخاصة على عهد الأغالبة ، حيث بلغ الأمر الى حدّ توجيه نشاطاتها الجهادية ضد ايطاليا مقر البابوية (٢).

ولكنه بعد ردود الفعل من جانب النورمان فى صقلية (نهاية القرن ٥هـ/ ١١م، وبداية القرن ٦ هـ/ ١٢م) ، واحتلال الشاطىء الافريقى ، فقدت هذه الرباطات أهميتها ، وعرفت فترة من الاضمحلال .

وعلى العكس من ذلك فإن تلك الفترة عرفت العصر الذهبى للربط فى المغرب ، وذلك بفضل انتصار المرابطين ، وهم أصل الربط التي قامت ضد برغواطة ، زنادقة البلاد المراكشية ، وضد المسيحيين فى الأندلس (٣) .

---

(١) انظر كتاب الاستبصار ، (ص٤) الذى ربما اقتبس رواية البكرى ، حيث النص على صفة الرباط الذى التصق ببناء مدينة القيروان التى بناها عقبة بن نافع.

(٢) انظر البكرى ، جغرافى بلاد المغرب بالامتياز فى القرن ال(٥ هـ / ١١م)، حيث تعداد عدة أربطة افريقية مزدهرة فى ذلك الوقت ، مثل : رباطات سوسة ، التى كان من أشهرها رباط المنستير (الدير – ص ٣٥ – ٣٦) ، رباط أبى سليمان قرب قرطاج (ص٤٤) ، ورباط جبل زعفران (ص ٤٦) ورباط قلاع بنزرت (٥٧) .. الخ.

(٣) مما يسترعى الانتباه انه منذ بداية الفتوح الاسلامية فى المغرب ، ظهر عناد برغواطة فى هرطقتهم ، الأمر الذى أدى الى انشاء مدينة رباط سلا ، من حيث كانت تتجه الحملات الحربية الواحدة بعد =

ومع مجيء الموحدين الى الحكم ، كانت الربط الغربية هى التى تجذب الانتباه بالنسبة للجماعة الجديدة . فكان على هذه الأخيرة ان تحقق هدفا مزدوجا ، هو : القضاء التام على برغواطة الزنادقة ، ثم الصراع العنيد ضد اسبانيا المسيحية . وهكذا كان أول ربط الموحدين هو رباط تازا الذى انشىء فى سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٣م) (١) . على يدى عبدالمؤمن ، من أجل ان يخدم ، على ما يظن ، كنقطة استراتيجية تعمل على سهولة الانتهاء من غزو اقليم المغرب . وعلى عهد عبدالمؤمن أيضا بدأت مدينة رباط الفتح ، التى انشئت فى مقابل سلا (٢) . فى الازدهار ، أولاً كقاعدة للعمليات الموجهة ضد برغواطة ، ثم كقاعدة لحشد القوات الموجهة نحو الأندلس . ولقد كبرت هذه المدينة على عهد يوسف ، لكى تصبح على عهد المنصور من أعظم الأربطة التى شيدت على الأطلاق (٣) .

والأربطة الشرقية ، رغم قلة أهميتها كانت تتمتع بمقدار لا بأس به من الازدهار . حقيقة أنه بعد طرد النورمان ، لم يحاول هؤلاء استرداد أماكنهم القديمة هناك ، ولكنه إذا أخذنا برواية صاحب الاستبصار الذى يكتب فى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م ، فإننا نلاحظ حقيقة ان الربط الافريقية كانت

= الأخرى حتى القضاء عليهم تماما على عهد الموحدين . انظر تراس وأ.ليفى بروفنسال ،سلا ، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ٦ ومابعدها ، ج.مارسيه ، منوعات ر.باسيه ، ١٩٢٥ ، هامش عن الربط فى بلاد البربر ، ص ٤٠٤ وما بعدها.

(١) القرطاس ، ص ١٢٢ ، الاستبصار ، حيث يقول المؤلف ان هذا الرباط يمثل نقطة – استراتيجية تربط المغرب بالمشرق ، وأنه شيدّ فى الوقت الذى كان يعيش فيه (حوالى ٥٨٧ / ١١٩١) لكى يقرر بعد ذلك انه بنى فى سنة ٥٦٨ هـ/ ١١٧٢ – ١١٧٣ م.

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ج٣ص١٠٩ ، أبو الفدا في النص ١٢٣ ، والجغرافيا ، ج٢ ص ١٨٣ .

(٣) قارن عبدالواحد ، ص ١٩٢ – ١٩٣ ؛ القرطاس (١٥١) حيث يرجع المؤلف بناء المدينة (رباط الفتح) الى عهد المنصور ويربط اسمها بانتصار الأرك (أ.ليفى – بروفنسال، رسائل رسمية موحدية ، الدراسة ، ص ٣٦) . وانظر فيما بعد ، ص ٢٨٠،٢٧٩ .

مزدهرة مرة أخرى . فبالقرب من سوسة كان يوجد المحرس الشهير ، المعروف بالمنستير . أنه عبارة عن قلعة مرتفعة ، حيث يحيا رجال من الزهاد حياة عسكرية ، بعيداً عن أسرهم ، وأصدقائهم ، حيث كان القريبون منهم يقدمون لهم الزكاة (١) . وبالقرب من هذا المحرس ، كان هناك خمسة محارس أخرى ، وثيقة البناء يسكنها الزهاد . هذه الأربطة كانت مواضع خلوة لمن يريد ان ينقطع الى حياة الزهد لفترة من الوقت ، بقصد البعد عن أحوال الدنيا ، والعمل من أجل إحياء الأمان والخير . ولذلك كان يلزمها نوع من الدعاية من أجل حشد المرابطين . وفى ذلك ظهرت أحاديث مصطنعة عن الجهاد فى افريقيا ، تقول : ينقطع الجهاد من كل البلاد ولا يبقى إلا فى افريقية ، ورغم شدة البرد فى تلك البلاد ، فإن جزاء الله أعظم (٢) . ان الاعتقاد فى كرامات المرابطين وفي قداسة الأربطة – وهي الاعتقادات التى تعبر عن نوعية الأفكار السائدة فى تلك الفترة – كانت تحبذ على الإقامة بتلك الربط . فكل من يسرق أويرتكب ذنبا فى الرباط القريب من ندرومة ، على ساحل تلمسان ، لا يلبث ان ينزل به العقاب ، وكل الناس متفقون على ذلك بفضل العناية الإلهية(٣) . وفى روطة ، وهى موضع رباط فى جنوب غرب شريش (Jerez) ، وعندما يأتى الناس من كل الجهات لكى يقضوا حياة زهدية ، ترتفع مياه الآبار هنا ، وعندما ينصرفون ينزل مستوى الماء (٤) . وهذه القصة تريد تفسير زيادة الماء وقت مجيء المرابطين للاقامة بأنها حدث يعبر عن الرضاء الإلهى على هؤلاء الأتقياء ، فكأنها تفسر غيبيا ذلك الحدث الطبيعى . والمحتمل أن حامية رباط روطة كانت تتغير موسميا ، ربما فى فصل الربيع أو فى فصل الصيف . ولما كان أهل المنطقة يعتقدون فى تلك الفكرة المعجزة ، فانهم

(١) الاستبصار .
(٢) الاستبصار ؛ البكرى ،ص ٣٢ والترجمة ص٤٤ .
(٣) البكرى ، ص ٧٩ .
(٤) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٢ ، والترجمة ، ص ١٨٥ .

كانوا يقدمون صدقاتهم للضيوف العباد .

التخطيط الحربي وادارة المعركة وفن الحصار :

فيما يتعلق بالفن العسكرى فإنه من المحتمل جداً ان يكون الموحدون قد اقتبسوه من المدرسة الأندلسية ، وخاصة بما يتعلق بالاستراتيجية والتكتيك . والشبه مثير للانتباه بين نصّين تاريخيين ،احدهما يتعلق بالتكتيك الذى طبقه الموحدون فى معركة منداس (١) ، والآخر متعلق بادارة المعارك فى الأندلس بشكل عام (٢).

فى النص الأول اختار الموحدون أرضا مستوية ، حيث اتخذوا فى وصفهم شكل المربع ، وفى كل ضلع اصطف الناس فى خطوط بعضها وراء بعض . وفى الخطوط الأولى وقف المشاة (الرجال) ومعهم الحراب الطويلة فى أيديهم ، وكذلك الطوارق المانعة (المقاييس) . وخلف هذا الصف اصطف حملة الدرق (دروع الجلد) والمزاريق ، وخلف هؤلاء حملة المخالى المليئة بالحجارة ، وبعدهم رماة السهام ، وفى وسط المربع تقف الخيالة . فعندما تهاجم خيالة العدو لا تجد أمامها سوى الرماح الطوال المرفوعة ، والمزاريق والأحجار والسهام ، وعندما تحارب منسحبة تخرج الخيالة الموحدية من بين الفتحات المعدّة بين الصفوف ، وتلاحق العدو . فإذا عاد العدو الى الهجوم يعود فرسان الموحدين الى مواضعهم السابقة ، وسط غابة الحراب . والنص الثانى يوضح نفس التحركات . لقد كان تكتيكاً عبقريا ، كانت الأندلس ، من غير شك ، مدرسته المعلمة . ولكنه كان تكتيكا دفاعيا أكثر منه هجوميا ، أملاه الموقف فى اسبانيا الاسلامية المقطعة الى إمارات الطوائف فى مقابل الدول المسيحية

(١) الحلل الموشيه ، ١٠٨ .

(٢) أ.ليفى – بروفنسال ، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ، (بالفرنسية) ، ص ١٤٦ . حيث نص مقتبس من أبى بكر الطرطوشى الذى عاش فى أواخر القرن الخامس الهجرى (١١م) (سراج الملوك ، ص ١٧٩ .

التى كانت تزداد قوة من يوم الى آخر . ولم يكن الموحدون فى موقف أفضل من موقف خصومهم المرابطين . ومع ذلك فإذا تطرقنا الى ما كانوا يحسنونه من هذا الفن مع مرور الوقت ، فمن الواضح أنه رغم استمرار القتال بشكل دائم ضد المسيحيين فى اسبانيا ، فإن خطط القتال ظلت على ما هى عليه تقريبا دون تغيير . فكان القتال يعنى الغارة على أراضى الأعداء ، وتخريبها ، وقطع الأشجار ثم العودة الى الوطن بالأسرى والمغانم ، وهى الأحوال التى لم تكن مواتية لتقدم الفن الحربى .

وهكذا يمكن تفسير عدم نجاح ابى يعقوب يوسف أمام حصن وبذه (Huete) بسبب المطر الطارىء الذى ملأ آبار المسيحيين وأطال مدة مقاومتهم (١) . وعلى إثر فشله فى حصار شنترين كان عليه ان يدفع حياته ثمنا لذلك . وإذا كان يعقوب قد ظهر ماهراً امام قفصة (٢) ، وكذلك أمام شلب (Silve's) (٣) ، فإنه ظهر عاجزاً عن الأخذ بثأر والده من شنترين ، هذا كما لم يستطع أبداً الاستيلاء على طليطلة رغم انتصاره الكبير فى الأرك . وإن استئصال الجيش الموحدى ، رغم تفوقه العددى ، فى حصن العقاب (LasNavas de Tolosa) على عهد الناصر ، الأمر الذى انهارت إثره اسبانيا الموحدية كقلعة من ورق كما يقال ، كل ذلك أتى ليؤكد فشل الاستراتيجية والتكتيك الموحدى.

الأسطول:

على عكس القوى الاسلامية الأخرى فى ذلك العصر ، كان للدولة الموحدية قوة بحرية برية فى نفس الوقت . ومن أجل تحرير افريقية من الوصاية

---

(١) عبدالواحد المعجب ، ص ١٨٠ .

(٢) انظر فيما سبق ،ص ٨٥ وما بعدها.

(٣) ما سبق ، ص ٣٣ .

الصقلية، وجب مواجهة الاسطول الصقلى القوى الذى فرض سيادته على حوض المتوسط الأوسط . ومن أجل إتمام غزو الأندلس ، وجب بناء عمارة بحرية لنقل القوات الى ما وراء المضيق (العدوة) . والى جانب ذلك ، يجب إضافة القرصنة ، التى أصبحت منذ وقت طويل منظمة حقيقية ، لها كيانها.

واثناء الصراع ضد الصقليين سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م، كان هناك ٧٥ (خمس وسبعون) سفينة فى انتظار عبدالمؤمن أمام تونس (١) . وفى مياه المهدية ، كان على الاسطول الصقلى نفسه ، الذى بلغت قوته ١٥٠ (مائة وخمسين) مركبا ، الفرار امام القوات البحرية الموحدية (٢). وبعد طرد الاسطول الصقلى من افريقية ، كان عليه ألا يعود أبداً خلال الفترة الموحدية . وهكذا حوّل نشاطه الى الحوض الشرقى للمتوسط ، كما حدث بالنسبة لبعض المدن المصرية(٣) . أما عن الحملة الضخمة المخصصة لفتح الأندلس ، فقد تطلبت بناء ٤٠٠ (اربعمائة) سفينة ، منها : ١٢٠ (مائة وعشرون) فى مرسى المغمور بالقرب من سلا ، و١٠٠ (مائة) فى طنجة ، وسبته ، وباديس ،

---

(١) ابن الأثير ، ج١١ ، ص١٥٩ (ابن خلدون ، الترجمة ، ملحق٢ ، ص ١٩٠ .

(٢) ابن الأثير ، ج١١ ، ص ١٦٠ (ابن خلدون ، الملحق للترجمة ، ج٢ص٥٩٢)؛التجانى ، الرحلة ، الترجمة ، ص ١٦١ ، ١٦٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج٥ص٢٠٦ .

(٣) وكانت أجرأ غارات الاسطول الصقلى تلك التى شنها عل مدينة الاسكندرية سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤م ، باسطول قوامه ٢٨٢ (مائتين وأثنين وثمانين) مركبا تحمل الرجال والخيل والعدد والذخيرة . ولم يكن لدي المصريين ما يدافعون به سوى القوات البرية . انظر ابن الاثير ، ج١١ ص ٢٧٢ ؛ الاستبصار ، أبو شامه (ج١ص٢٣٤) الذى ينقل رواية ابن الأثير ، والذى يعلق على ذلك قائلا : ان الأسطول الصقلى سبق ان هدد ابن عبدالمؤمن ، أمير المغرب ، وكذلك الأمبراطور البيزنطى ، ولكن ما هو أكيد ، أنه منذ هزيمة الاسطول الصقلى فى المياه الافريقية سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩-١١٦٠م، لم يحاول ان يجرب حظه مرة أخرى . وفى سنة ٥٧١ هـ/ ١١٧٥ كان دورتنيس . وبعد حصار المدينة لفترة من الوقت كان على الاسطول الصقلى ان يغادر المكان . ولكنه فى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م ، أتت اربعون مركبا من نفس الأسطول ونجحت فى الاستيلاء على المدينة . المقريزى الخطط ، ج١ص ١٨٠ .

وغيرها من موانى الريف ، و١٠٠ (مائة) فى افريقية ، فى : هنين ، ووهران ، وفي الأندلس (١).

ان الاسطول الذى ولد على عهد عبدالمؤمن أصبح عند وفاته قوة يخشى بأسَها ، وعلى عهد يوسف يصل إلى ذروة قوته . والحقيقة ان حادثا طارئا حمل على رأس الأسطول الموحدى رئيسا مؤهلا ، تكون فى المدرسة البحرية الصقلية ، هو المغربى (البربرى) المسمى بـ"أحمد الصقلّى ، وأصله من مدينة جربة بالقرب من قابس ، والذى كان قد أسره النورمان ، ونشأ بعد ذلك فى خدمة الاسطول ، تحت رعاية الملك روجر الأول . وعندما توفى روجر الأول اختلف أحمد مع روجر الثانى ، وهرب الى تونس ، ومن هناك وصل الى مراكش حيث أحسن يوسف استقباله ، وعهد اليه بقيادة الاسطول (٢) . "وعلى عهد يوسف بلغ الاسطول الاسلامى ، من حيث العدد ، والقيمة الحرفية ، درجة لم يبلغها ، حسب معرفتنا ، لا قبله ولا بعده " (٣) .

وعلى عهد المنصور حافظ الاسطول على تفوقه . ففى كل من حوضى المتوسط ، الغربي والأوسط كان له التفوق ، حيث طرد الاسطول الصقلى نحو المشرق : بلاد الشام ومصر . وهكذا لم يستطع بنو غانية بقوتهم البحرية المحدودة الدخول فى حرب مفتوحة ضد الموحدين (٤) . وهكذا كان على ملك قشتالة فى خطابه المصطنع من غير شك ، ولكنه يعبر عن الفكرة السائدة فى تلك الفترة- ان يطلب من الأمير الموحدى ان يبعث اليه المراكب والشوانى والطرائد والمصطحات ، حتى يعبر اليه بالمغرب (٥) .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، والمخطوط ، ورقة ٣٦ ب القرطاس ، ص ١٣١ .

(٢) ابن خلدون العبر ج١ ص ٢١٣ .

(٣) ابن خلدون العبر ج١ ص ٢١٣

(٤) ما قبل ، ص ٧١ وما بعدها .

(٥) ما قبل . ص ٤٢

ن المشرق الاسلامي أو على الأقل شرقي البحر المتوسط ، كان يعترف سميا بتفوق البحرية الموحدية على عهد المنصور ، في غربي المتوسط . وهكذا كان على صلاح الدين أن يحاول اقناع المنصور بمد هذا التفوق على لحوض الشرقي للمتوسط ، والذي كان مهدداً من قبل الدول المسيحية الأوروبية (١) .

العدالة والشرطة :

بالمقابلة مع الموضوعات السابقة ، فإن المعلومات الخاصة بالعدالة والشرطة بما كانت مفتقدة تماما . والحقيقة ان الوثائق التاريخية لا تمس إلا من بعيد تلك المسائل ، وبمجرد كلمة من وقت لآخر.

إن ابن تومرت الذى كان يمارس وظيفة الحكم(٢) ، ولكنه كان من المعتاد ينيب فيها أحد أصحابه (٣) . وبعد ذلك ومع كبر الدولة على عهد عبدالمؤمن ، اتخذ القاضى الذى كان قد استقر فى الحضرة الخلافية مراكش لقب "قاضى الجماعة" تماما كما كان الحال بالنسبة لقاضى قرطبة على عهد الأمويين (٤) . فكان الأمير هو الذى يعينه بشكل مباشر ، كما كان يمكنه عزله حسبما يشاء

ومع ذلك فعلى بداية عهد المنصور، الذى كان يتطلع الى الكمال والاتقان ، حاول ان يجعل من القضاة نماذج يقتدى بهم ، كما كان الحال على عهد خلفاء الراشدين ، فخلال بعض الوقت أخذ بنفسه إدارة القضاء بين يديه ٥). وجعل الأمير تحكيمه فى متناول الجميع، دون مراسم خاصة أو شكليات قانونية . ولكنه عزف عن ذلك بسرعة بسبب تفاهة الموضوعات التى كانت

١) ماقبل ، ص ٣٦ .

٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٨ .

٣) البيذق ، ص ٣٣ ، والترجمة ، ص ٤٢ .

٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٦ .

٥) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

تعرض عليه. هذا، كما غير ما كان قد قرره من اتخاذ بعض المجالس فى ايام معينة من الاسبوع لبعض الموضوعات المحددة، اكتفاء بالعهد لغيره بالإشراف على القضاة. وفى بعض الأحيان، ومن وراء ستار (١)، فكان يستمع الى إعلان الأحكام، وربما تدخل فى الوقت المناسب.

وكيف يعين القاضى؟ من الواضح ان الأمير هو الذى يعين فى هذه الوظيفة بالأشخاص الذين يتميزون بصفات خاصة، مثل: العلم، والورع، القيمة الأدبية العظيمة (٢). ولكنه اختلافا مع القاضى الأموى (٣)، لم يكن للقاضى الموحدى أية سلطة فعلية على قضاة المدن الأخرى فى الولايات، فهؤلاء كانوا مسئولين أمام حكام ولاياتهم الذين كان عليهم أن يقدموا الحساب، أو التوضيحات للأمير (٤). وهنا لا ينبغى استخلاص ان نفوذ القاضى كان ضعيفا أو هامشيا، وذلك ان طبيعة الوظيفة الدينية كانت تعطى لصاحبها قوة روحية قد تمتد الى الأمير نفسه. وهكذا حدث ان أخت المنصور اختلفت مع زوجها، وهو الشيخ القوى والوزير: أبو محمد عبدالواحد بن أبى حفص، وأن هذا الأخير من أجل أن يطلب بعودة زوجته التى كانت فى كنف أخيها الأمير لم يوجه خطابه إلى يعقوب ولكن إلى:

---

(١) انظر عبدالواحد، (المعجب، ص ٢٠٧) - حيث يقول المؤلف ان المنصور عندما عين إبا القاسم بقى بن مخلد قاضيا، طلب منه ان يعقد مجلسه بحيث يمكنه سماع كل الاجراءات القضائية.

(٢) على عهد يوسف شغل وظيفة القاضى من يسمى حجاج بن ابراهيم التجيبى، وأصله من مدينة أغمات. وعرف الرجل بأنه زاهد، ورع، صوفى. وكان عالما بالفقه والأحاديث النبوية. كما عرف بالنقاء والطهارة. وكان صلبا فى الحق الى حدّ ان كثيرا من أعيان الناس تضرروا منه وانتقدوه لدى ابى يعقوب. ولكن هذا التصرف لم يعمل الا على زيادة قدره، وثقة الأمير فى شخص قاضيه والتعاطف معه (عبدالواحد، المعجب، ص ١٧٧).

(٣) قارن أ.ليفى - بروفنسال، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر، ص ٨٢.

(٤) عبدالواحد، المعجب، ص ٢٠٠، ٢٠٧. وفيما يتعلق بعمر الرشيد، أخى الأمير، ووالى مرسية، يقول المؤلف انه قتل قاضى المدينة.

قاضى الجماعة ابى عبدالله بن علي بن مروان (ت ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ - ١٢٠٥م) . ولما لم يحصل القاضى على أية جواب ، قدم استقالته الى الأمير طالبا قبولها إذا لم يوافق عل طلبه . وأمام إصرار القاضى وعناده ، اضطر يعقوب الى إجابة مطلبه ، ورجعت الأميرة العروس الى بيتها . واذا كان لهذه القصة أثرها الشديد على ابن خلكان (١) ، فيجب الاعتراف بأن الأمر هذا لم ينقصه السبب . فالحقيقة ألم تكن أمراً يستحق التنويه ، من حيث انه فى مواجهة : أمير مثل المنصور ، معروف بالورع والتفهم ، ولكنه صاحب سلطان مطلق ، كان يمكن ان يقف قاضي محترم ولكنه عنيد فى الحق بالنسبة لأميره هذا ، بحيث أن هذا الأخير كان يمكن ينحنى ، ويستجيب لمطالبه .

وكما هو الحال بالنسبة لخدمات الحكومة المركزية ، وباسلوب آخر البلاط الخلافى ، كانت محكمة القاضى تنعقد فى احدى القاعات الملتحقة بالقصر الملكى .

---

(١) وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ٣٨٠ ، وعن هذا القاضى انظر ابن الآبار ، التكملة ، ج١ص٣٧٤ ؛ المراكشى ، الذيل والتكملة ، مخطوط ، باريس ، ورقة ٥٧ وجه .

اختصاصات القاضى :

لا يجب نسيان ان القاضى كان ممثلا للدولة الخلافية ، وأنه يوجد فيه تداخل بين القوى الدنيوية والروحية ، وأنه بالتالى ينبغى ان يجمع فى اختصاصاته الأمور الدينية ، مثل : الصلاة ، والزواج ، والوراثة ، وشرب الخمر وغيرها ، والأمور المدنية أو الجنائية . ومن الصعب رسم خط فاصل بين الشئون المدنية والجنائية ، أى بين اختصاصات القاضى واختصاصات "صاحب الشرطة" ، مدير الأمن . وعندما كان يعقوب يدير أمور العدالة بنفسه ، بصفته قاضى الجماعة ، كا ن صاحب شرطته وزيره : يحيى الذى كان يحضر مجلس القاضى (١) ، وهذا الأمر يدل على أنه يوجد تعاون بين القاضى ومدير الشرطة ، وأن الثانى كان فى درجة تابعة للأول . وهنا تظهر مشكلة أخرى ، وهى ماذا تعنى وظيفة الوزير صاحب الشرطة ؟ ومن الواضح ان الأمر ليس إلا حالة خاصة لتداخل السلطان فى الادارة العليا لمنظمات الدولة ، وهى تابعة لشكل السلطة المطلقة التى يتمتع بها الأمير . وهكذا كان يمكن للوزير ان يضيف الى وظائفه تلك الخاصة برئيس الشرطة .

المحتسب :

والى جانب القاضى ورئيس البوليس نلتقى بالمحتسب . ويظهر ان هذه الوظيفة الموحدية (٢) . تقترب من وظيفة المحتسب فى القرن الثامن الميلادى (٢هـ) أكثر من وظيفة محتسب القرن العاشر (٤هـ) . إن محتسب القرن العاشر (٤هـ) أصبح صاحب السوق المكلف بالتفتيش على الأسواق والأوزان والمكاييل(٣) . ان محمد بن تومرت عندما طبق شخصيا مبدأ الأمر بالمعروف

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

(٢) البيدق ، ص ٤٧ والترجمة ، ص ٧٠ .

(٣) ج - ديمومبين ، النظم الاسلامية ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ، أ.ليفى بروفنسال ، أسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر ص ٨٧

والنهى عن المنكر فى أول دعوته ، كان أشبه ما يكون بمحتسب القرن الثامن (٢هـ) ، من حيث مراقبة الاخلاق العامة ، فقد كان يسكب آنية الخمر ، ويكسّر آلات الموسيقى (البو) ، كما كان يتصدى بشكل عنيف لسيدات البلاط البرابطى غير المحجبات .

والظاهر ان المحتسب الموحدى ورث تراث ابن تومرت لمراقبة الاخلاق العامة، والحقيقة هذا الاختصاص يأخذ شرعية من أحكام الفقه الاسلامى(١) .

الولايات والإدارة المحلية:

ونأتى الآن الى موضوع التنظيم الحكومى فى مراكش - وهنا تحسن دراسة تنظيم الولايات التى كانت تنقسم اليها الدولة الأمبراطورية . وتحديد عدد الولايات أمر صعب نظراً لندرة الوثائق . أما عن اتساع تلك الولايات فربما اختلف تبعا للكثافة السكانية وأهمية الإقليم . وكل عاصمة إقليمية ، مثل : فاس وسلا ومكناس ، وتلمسان وبجاية وتونس إشبيلية وقرطبة وغرناطة ، بمساجدها الجامعة ، وقصبتها ، وأسواقها تعطى شكل العاصمة مراكش ، فكما كان لمراكش خليفتها كان لكل ولاية حاكمها (الوالى) ، ممثلة على رأس الحكومة المحلية ، الأمر الذى كان يعطى للولاية حكما ذاتيا يكاد يكون كاملاً .

فالوالى يمثل الدولاب الرئيسى لآلة الحكم الادارية ؛ وهكذا كان الأمير يختاره بكل حذر . إنه الممثل الشخصى للأمير فى كامل اختصاصاته الادارية . انه ينشر الرسائل والأوامر الرسمية ، ويعمل على تنفيذها . وهو يدير الأعمال العامة ويسير على اقرار النظام وضمان سيادة العدل . وهو الذى يجمع الحشود العسكرية ويقودها . وأخيراً فهو الذى يتلقى ايمان الطاعة والاخلاص من الرعية للأمير . والوالى قابل للعزل كما يمكن للأمير تبديله

(١) جولدزيهر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٨٥ - ٨٦ .

بالنقل من موضع الى أخر حسبما يشاء ، وكما هو المعتاد فى ذلك العصر . وعلى عهد يعقوب كان يمكن ان يخلف الوالى أفراد عائلته ، وتلك كانت حالة الحفصيين فى افريقية . وكان يمكن لواحد من الولاة ان يرأس مجموعة من الولايات حسبما كانت تقضى الضرورات الادارية أو العسكرية لذلك الضم . هذا ، ولو أنه كانت العادة ان يرأس الوالى وحدة إدارية واحدة .

وفى جميع الأحوال كان على الوالى ان يبقى خاضعا للأمير الذى عينه بشكل وثيق . فعلى عهد يعقوب كان الوالى الذى يسمح لنفسه ببعض الحرية التى تقدر خارجة عن المعتاد ، لم يكن يعرّض ولايته وحدها للخطر بل رأسه أيضا (١) . والحقيقة ان الخليفة كان يحدد حرية تصرف الولاه – وكلاؤه فى الحكم – عن طريق ارسال التعليمات الخطية فى شكل رسائل دورية ، وكذلك عن طريق الدعوة الى المجىء الى الحضرة الخلافية لتقديم الحسابات أو إعطاء المبررات (٢) . هذا ، كما يمكنه أيضا أن يتحرى عن ادارتهم باستقبال الوفود الآتية من كل ارجاء الدولة ، وتسلم الشكاوى ممن يقدمها ، وعن طريق اشراف المندوبين فى الولايات ، ممن يشبهون المفتشين الخاضعين مباشرة اليه .

وكان للوالى الذى يظهر فى ولايته كخليفة صغير على رأس مملكة أقليمية ، حاشيته المحيطة به هو الآخر كما الحال فى مراكش . وأول أتباعه هو الوزير أو الكاتب ، المستشار بالامتياز ، والذى عادة ما يعينه الخليفة ، ثم يأتى افراد ديوانه الصغير ، من حيث تصدر صور للخطابات الخليفية أو الأوامر المحلية الصادرة للولاية . وأخيرا يأتى القاضى الذى تمتزج فيه الأمور المدنية والدينية بشكل لا ينفصم .

ومن وجهة النظر العسكرية فالوالى لا يمثل الخليفة دائما ، لأنه كان يحدث

---

(١) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٨٠ ، وانظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١١ ، ٢٠٤ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

ان يعين هذا الأخير نائبا أو قائدا للقوات المرابطة فى الولاية . وكان ذلك أجراءً عبقرياً لضبط ولاء الوالى الذي كان اخلاصه موضع الريبة فى كثير من الأحيان .

وفيما يتعلق بالأمور الماليه نظن ان العامل أو كاتب بيت المال ، وهو المسئول عن جباية الضرائب ، لم يكن مسئولاً أمام الوالى ، بل أمام الكاتب الذى كان يقدم الحسابات مباشرة الى الخليفة (١) .

القبيلة : وحدة ادارية :

فى قلب الدولة الموحدية كان للقبيلة مركز فى المقام الأول . فالقبيلة كانت النواة بالنسبة لنظم الدولة . وحياة القبيلة كانت ، كما هوالحال دائما وفى كل مكان ، حرة مستقلة ذاتيا ، وكانت غيورة دائما على الحفاظ على تلك الحرية خالصة غير منقوصة ، على الأقل فيما يتعلق بشئونها الداخلية .

ترتيب القبيلة الموحدة :

كانت القبيلة الموحدية مقسمة إلى أفخاذ ، كل واحد منها له رئيس ، هو : المحتسب (٢) . ولكن يمكن أن نميز فى داخل القبيلة جماعتين مختلفتى الأعضاء . الجماعة الأولى تتكون من الموحدين حقيقة، وهم السابقون الأولون

---

(١) انظر ابن عذارى ، المجهول ، ص ٥٦ ، ٧٥ . كان أحد الاتهامات التى وجهت الي عمر الرشيد ، أخى المنصور ، حاكم الولاية الشرقية من الأندلس (مرسيه) ، أنه كان يتدخل فى الشئون المالية . ولقد اتهم بالاستيلاء ، بغير حق علي أموال التجار ، وكان يطالب جباة الضرائب ، ويستولى على نقود بيت المال التي كانت تحت أيديهم (ص٥٦) . وفى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦-١١٩٧م وأثناء إقامة المنصور فى اشبيلية بدأ يدقق فى حسابات أبى سليمان داود ، رئيس الجباة . وبعد عمل استمر ٦ (ستة) أشهر اتضح ان حساباته ليست صحيحة ، وأنها أظهرت عجزا يزيد على ١٥٠ ألف دينار ، وهو المبلغ الذى اتهم بالاستيلاء عليه . وبعد ذلك تم القبض عليه ، وصودرت أملاكه لحساب الدولة . وفى نفس الوقت اتهم من يسمى أبو على عمر بن أيوب ، المسئول عن النفقة بالاستيلاء على جزء كبير من ا لأموال التى كانت فى عهدته .. وهكذا صودرت أمواله وحبس مع ابن داود الى ان عفا عنهما الأمير (ص٧٥) .

(٢) البيدق ، ص ٤٦ ، الترجمة ، ص ٧٠ .

. والجماعة الثانية ، هم المتأخرون الذين التحقوا بالقبيلة ، وهم الذين أخذوا ، على عهد المنصور اسم "الغزاة" (أى المجاهدين فى سبيل الله) (١) . وكان لكل جماعة منهما رئيس هو "المزوار" (٢) ، ممثل الخليفة لدى القبيلة ، باستثناء قبيلة هرغه ، قبيلة ابن تومرت ، التي لا تكوّن الا جماعة واحدة ، والتى ليس لها إلا مزوار واحد (٣) . وهذا التنظيم القبلى الذى كان دارجا على عهد المنصور لا ينطبق إلا على القبائل التى تمثل العنصر الحربى الدائم فى الدولة الموحدية .

القبيلة العربية:

وفيما يتعلق بالقبائل البدوية الوافدة أصلاً من افريقية فإنها كانت تتمتع بما يشبه الاستقلال الذاتى التام ، وذلك فيما يتعلق بتنظيمها الأول الذى لم يدخل عليه تغيير ما فى العصر الموحدي .

والتنظيم الاجتماعى الذى كان يتفق مع حياة البداوة كان بطبيعة الحال بدائيا ، وافراد القبيلة مرتبطون نظريا ، ان لم يكن فى الحقيقة الواقعة ، برابطة القرابة والدم ، وهم يضعون على رأسهم زعيما يسمى "السيد" أو "الشيخ" (٤) ، الذى يظهر كرئيس أو حاكم مطلق ، وان كان فى خدمة الجماعة . والقبيلة العربية لم يكن لها ممثلون لدى الأمير ، فى قلب مجالس الدولة ، مثل القبائل الموحدية . والرابطة الوحيدة بالأمير كانت تتمثل فى يمين الطاعة والولاء الذى كان يتراوح ما بين الإخلاص وعدمه ، أو رباط الحلف ،

---

(١) البيدق ، ص ٤٧ ، والترجمة ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر ، السابق . وعن لقب مزوار قارن ر . برونشفيج ، بلاد البربر الشرقية ، على عهد الحفصيين (بالفرنسية) ، ج٢ص ٤٨ ، ٥٩ .

(٣) نفس المصدر السابق.

(٤) لقبا السيد والشيخ هنا ليس لهما هنا ، كما هو الحال عند الموحدين ، قيمة رسمية . فلقب سيد عند الموحدين يطلق على أفراد العائلة الملكية ، أما لقب شيخ فيطلق على كبار رجال الدولة .

بمعنى الوعد بتقديم العون العسكرى الأمر الذى يزيد الاخلاص فيه أويقل . وفى دراستنا هذه عن الادارة الأقليمية ، التي اتضح لنا أنها فى مقابلة للإدارة المركزية بالعاصمة ، وبالتالى فإن تنظيم القبيلة كان بالنسبة بدائيا .

الخزانة العامة:

ويتبقى لنا الآن اختيار التنظيم المالى للدولة . وتبعا لقانون أزلى تتميز الشئون المالية بأهمية عظمى . فالمشروعات الكبرى العديدة على عهد يعقوب زادت من أهيمتها يوما بعد يوم . فالنفقات كانت ثقيلة ، من : الحروب المستمرة ، وزيادة الترف الخلافى ، وفخامة الانشاءات المعمارية ، كل ذلك كان له ثمن غال ، وكان الأمير يصادف الكثير من الصعوبات فى موازنة الدخل والنفقات (١) . ومن الواضح أن الدولة كانت فى حاجة الى تنظيم مالى معتبر من أجل ادارة الوارد والمنصرف مما كانت طبيعته مختلفة على قدر تنوع أساليب الجباية.

والنظام المالى ، كما يظهر ، لم يكن أكثر من تقاليد الماضى الحية للدولة الاسلامية ، بمصادر دخلها المختلفة مما كان يجمعه الأمير بخاصة الى جانب الدخول العامة للدولة .

دخول الخليفة الخاصة:

من بين مصادر الدخل المختلفة التي كان يمكن للأمير الاعتماد عليها ، كان استغلال الضياع الخاصة يأتى فى المقام الأول . ونظراً لافتقاد الوثائق ، يفترض ان تكون الممتلكات التى كان يتصرف فيها يعقوب ضخمة وموزعة على طول امتداد الدولة . وكان ينبغى ان تكون كتلة عظيمة متماسكة فى منطقة

---

(١) القرطاس ، ص ١٥٢ ، الترجمة ، ص ٣٨٥ . حيث يذكر المؤرخ ان المنصور كان يأسف على عدد من المشاريع التي قام بها ، من بينها : بناء مدينة رباط الفتح (الرباط) . وهنا نشير الى ان هذا الشعور ، يعتبر مقياساً للرأى العام فى ذلك الوقت بالنسبة لسياسة العمران البنائية التى أرهقت الدولة إقتصاديا .

مراكش ، بناء على مصادرة ممتلكات الأسرة المرابطية مما تم لحساب عبدالمؤمن ويوسف ثم يعقوب الذين كانوا يهدفون إخصاب تلك المنطقة (١) . وأغلب الظن أن الأمر كان كذلك بالأندلس ، في منطقة اشبيلية ، حيث كان الأمير يقضي جانبا كبيرا من وقته ، وحيث كان والده قد أقام كوال في حياة عبدالمؤمن(٢) . هذه الضياع ، كانت كما هو الحال أراضي زراعية ، وسهوب أو حدائق مما بقي بعضه تحت الادارة المباشرة للأمير ، بينما كان الأغلب قد أعطى كإقطاع الى رؤساء الموحدين أو العرب أوالغزّ (٣) . ان حقيقة وجود أمناء من أجل الاشراف على الاستغلال ، وصيانة الممتلكات المنقولة والثابتة - كما هو الحال في الضياع الكبيرة ، من : الماشية ، والمساكن والزرائب والاصطبلات والطواحين - يثبت انه كان من مصلحة الأمير ان يحقق لكل ذلك ادارة كاملة ولا شك أن حاجته إلى المال كانت تضطره الى مراقبة "أمين الضياع" مراقبة لصيقه - تمتد الى الجباة أيضا(٤) .

وعلى عهد المنصور كان من يسمى "ابو بكر" ، وهو ابن كاتب "ابن تومرت" سليمان آحضري ، يشغل منصب أمين الضياع الخلافية بينما كان أخوه يعقوب كاتبا للخليفة (٥) ، الأمر الذي يوحي بأن ادارة الضياع الأميرية

---

(١) الإدريسي ، ص ٦٨ - ٦٩ ؛ الاستبصار ، والمخطوط ، ورقة ٨٠ ظهر ، والترجمة ، ص ١٨٠ وما بعدها ، وانظر فيما بعد ، ص ٥٩ ومابعدها .

(٢) لقد كان في شهر صفر ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ م حينما قام يوسف ببناء قصوره المعروفه بالبحيرة (البستان) ، والتي غرست حولها عشرات الآلاف من اشجار الزيتون المختاره ، وحيث صدرت الأوامر أيضا بالمجيء بمختلف اشجار الفاكهة ، مثل : الكمثرى ، والتفاح وكل ذلك على حساب الخزانة العامة . ابن صاحب الصلاة، ص ، والمخطوط ، ورقة ١٦٠ ظهر ، ١٦١ وجه ، و١٦١ ظهر ، والمستخلص من انطونيا (Antun'a) ، ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب . حيث يقول المؤلف ، ان يعقوب أعطى من يسمى شعبان ، من زعماء الغز ، عددا من القرى (المزارع) في الاندلس ، مما كانت غلته تصل الى ٩ (تسعة) آلاف دينار .

(٤) انظرهـ ١ص١٥٠ .

(٥) البيدق ، المقتبس ، ص ٤٠ .

لم تكن أقل أهمية فى نظر الأمير عن رئاسة "ديوان الانشاء" .

الدخول العامة للدولة:

يرجع الفضل الى عبدالمؤمن الذى كان أول من حقق فى المغرب جباية الضرائب حسب أسلوب حسن التنظيم ، فلأول مرة قُيّمت مساحة الأراضى فى كل بلاد الشمال الافريقى ، من تخوم برقة حتى بلاد نول فى السوس الأقصى . واستثنى عبدالمؤمن الثلث غير المنتج من المساحة ، من : الجبال والغابات ، والأنهار ، والسباخ والطرق ، فأعفاه من الضرائب . وفرضت ضريبة الأراضى على الباقى ، فكان على كل قبيلة ان تدفع حصتها ، إما نقداً وإما عيناً (١).

وكانت ضريبة الخراج (على الأرض) هى المورد بالامتياز لدخل الخزانة العامة (٢). كانت الدولة الفسيحة مقسمة الى عدد من الولايات المحددة المساحة التى تتفق مع مسمياتها الادارية . وأخيراً ، كان مندوب الأمير الذى يحمل لقب "عامل" مسئول عن جمع الضرائب وكل الأموال المقررة للأمير فى حدود ولايته . وهذا الجابى هنا كما فى كل البلاد الاسلامية الأخرى ، كان مستقلا عن الوالى ، وعادة ما يكون معينا من قبل الخليفة الذى تؤدى اليه حسابات الجباية . وإذا كانت المصادر المتوفرة لدينا لا تحدثنا عن هذه المسألة ،باستثناء عبدالواحد الذى يتكلم عن الخراج بشكل عام تماما (٣) .الذى

---

(١) قارن القرطاس ،ص ١٢٨ (ابن أبى دينار ، ١١٢) .

(٢) هذا ما يظهر من رواية عبدالواحد ، عندما يعرض وان كان بشكل عام لضريبة الأرض الخراجية فى الولايات المختلفة (المعجب ، ص ١٨٣) .

(٣) البيدق ، ص ٤٧ ، الترجمة ، ص٧١ .

يتحدث عن سك النقود (١) . وهكذا يجب الاعتقاد فى ان دخل الدولة كان متعدد المصادر ذوات الطبيعة المختلفة . وبناء على ذلك كان المسلمون يخضعون الى "الزكاة" (٢) . وفى المدن كان السكان من غير المسلمين وخاصة اليهود ، مضطرون الى دفع ضريبة "الجزية" . ومن المحتمل جدا ان الضريبة المفروضة على اليهود الذين تعرضوا على عهد المنصور الى اجراءات صارمة ، كانوا يمثلون مصدرا مهما بالنسبة لخزانة الخلافة العامة . ولما كان الأمير فى صراع دائم مع النصارى الاسبان ، كان "الخمس" من الغنائم يكون مصدراً شبه منتظم للدخل العام.

ان مختلف الضرائب التى ذكرناها تمثل الضرائب الشرعية المقننة بالنصوص الدينية . ومع ذلك فلنا ان نتساءل إن كانت هناك ضرائب أخرى موازية لهاممّاقد يعتبر من الضرائب غير الشرعية . فالمعروف أنه كانت توجد على عهد المرابطين ضرائب مبيعات على كل ما يباع أو يشترى من كبير الثمن أو قليله . ولكن مصمودة وضعت نهاية لذلك التقليد ، فكان يحكم بالموت

---

(١) ان معلوماتنا عن سك النقود محدودة . فنحن نعرف ان قطع النقود كانت ، فى العادة ، مربعة ، وهو ابتكار يعزى لابن تومرت . وكانت تضرب من الذهب والفضة ومن سبائك غنية أو فقيرة فى المعادن الثمينة . وكانت القطعة الذهبية تحمل على الوجه العبارة التى تؤكد ؛ التوحيد الإلهى والرسالة النبوية والاعتراف بمحمد ابن تومرت إماما معصوما . وعلى الوجه الآخر (الظهر) كنا نقرأ احيانا اسم الأمير مع لقبه "أمير المؤمنين" والقاب والده وجده .قارن دى ساسى ، مذكرات عن بعض النقود العربية ، مستلة من المجلة الآسيوية (J.A) ١٨٣٧ ، ص ١ ومابعدها . والقطع التى لم تكن من الفضة لا تحمل أبدا اسم الأمير ، ولكن العبارة التى تؤكد قاعدة المذهب (التوحيد) (أ.بل ، إضافة الى دراسة الدراهم الموحدية ، هسبيريس ، ١٩٣٣ ، ص ٨ ، ١٠) ومن بين هذه القطع الصغيرة يوجد بعض الدراهم ، ونصف الدرهم ، والربع ، والثمن بل وواحد على ستة عشر من الدرهم ، الأمر الذى كان يسهل شراء الاشياء الزهيدة الثمن (عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٤٨ والترجمة ص١٧٩ .

(٢) رسائل رسمية موحدية ، ص ١٦٧ ، الدراسة، ص ٥٧ .

على من يزاوله مهما كان شخصه (١) . وهكذا وعلى عهد يوسف ، كانت الضريبة المعمول بها هى ضريبة الأرض وحدها بدون "مظالم" ، وهى التى ازدهرت الدولة بها حيث كانت المصدر الكبير لدخل الدولة (٢) . ومع ذلك فنحن نلاحظ ان الدولة كانت تقتضى فى هذه الفترة ضريبة مقدارها ١٠٪ (عشرة بالمائة) على جميع البضائع المباعة فى الموانى الموحدية بمعرفة التجار المسيحيين (٣) . وماذا يمكن ان يقال عن هذه الضريبة ونحن نرى أنها يمكن ان تفسرعلى أساس الاستثناء فيما يتعلق بالعلاقات التجارية مع النصارى ، مما كانت تنظمه المعاهدات الخاصة . أما عما منعته مصمودة عن جباية ضريبة المبيعات أياً كانَ قدرها وهل بقى ذلك الى عهد المنصور ؟ فليس من الممكن الفصل فى ذلك الأمر ، المعروف هو ان المؤرخين يصرون على أن يعقوب لم يبن قصبة وجامع مراكش وكذلك رباط الفتح الا من المال الحلال المأخوذ من خمس الغنائم . وهو الأمر الذى يؤدي الى التفكير فى أنه كان من بين الجبايات المختلفة التي تدخل خزانة الدولة ، انواع اعتبرت غير شرعية ، مثل المكوس ، والغرامات ، وحق المرور على الطرق والقناطر ، وحق الدخول والخروج ، وضرائب الأسواق مما كان يجبيه عمال الخزانة فى المدن الكبيرة وفى الموانى والأسواق .

من دراسة النظم الموحدية هذه يمكن استخلاص بعض الخطوط العريضة . من عرض تاريخ تلك النظم أمكننا الاشارة الى انها ظهرت فى حالة بدائية ، تماما كما كان الحال فى المجتمع الاسلامى الأولى على عهد النبوة والخلفاء الأوائل ، وذلك المجتمع كان النموذج الذى اقتدى به محمد تومرت . ولاحظنا بعد ذلك التطور الذى ألم بتلك النظم مع مرور الوقت وتغيرّ الأحوال الى أن

(١) انظر الارديسى ، ص ٧٠ .

(٢) القرطاس ، ص ١٣٥ (ابن ابى دينار ، ص ١١٣) .

(٣) انظر فيمابعد ، ص ١٩٦ .

بلغت ذروة الإزدهار على عـهـد يعـقـوب . هكـذا كـان الأمـر مع الخـلافـة وخصـائصـهـا الأولية المحلية ثم تحولها نـحو العالمية ، وكـذلك الحال بالنسبة للوزارة وخطة الكتـابة . وخـلال تلك التطورات الأخـيـرة ركـزنا على الروح الموحية التى قامت بها بلاد الأندلس.

ومن بين النظم الموحدية حقيقة تعرفناعلى مجالس الدولة ، مثل : مجلس العشرة ، ومجلس الخمسين ، "والطلبة" : الابتكار الخاص بابن تومرت حقيقة . وعـرفنا أيضـا الخـصـائص الفـريدة لتنظيـم الجـيش ، أهم المنظمـات على الاطلاق.

وأخيراً فهناك خاصية تـنفرد بها تلك النظم . حقيـقة انهـا كانـت متنوعة ، وذات اختصاصات مختلفة ، ولكنا لاحظنا ان هنا نوعا من المزج أوالتداخل الذى يكثر أو يقل فيـما بينهـا ، وخاصة فى الدرجات العليا ، وهذه الصـفـة المميزة تابعة توجهات الحكم المطلق عند الأمير الذى كان يود ان يجمع بين يديه كل مقدرات الدولة .

القسم الثالث
الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية:

من أجل رسم خريطة للاقتصاد الموحدى ، علينا ان نرجع الى الجغرافيين العرب ، وخاصة كتب البكرى والإدريسى ثم كتاب الاستبصار لمؤرخ مجهول.

ولما كانت قاعدة هذا الاقتصاد زراعية ، فهو يظهر وكأنه اقتصاد متوقف منذ دخول البلاد تحت مظلة الاسلام ، وان كان النشاط الصناعى غير مفتقد بطبيعة الحال . وهكذا سنعرض لهذين المظهرين من ثروات البلاد ومن ناحية أخرى فقد عرفنا ان الدولة الموحدية تنقسم الى ثلاثة أقاليم سنعرض لها جميعا هنا نظرا للتأثيرات التى كانت تمارسها على كل منها الخصائص المختلفة لكل واحد من تلك الأقاليم .

الزراعة ومنتجات البحر

أ - المغرب :

لما كانت بلاد المغرب هى نواه الدولة ، ومقر الخلافة الموحدية ، كان المغرب دائماً موضع عناية الأميرالخاصة . وهنا يمثل كتاب الاستبصار وثيقة ممتازة عن الحالة الاقتصادية للمغرب على عهد المنصور ، من حيث ان مؤلفه كان من المعاصرين.

فمنطقة مراكش التى كانت جدباء الى حد الاعتقاد فى أنها كانت مكونة من طبقات من الحجارة المتوالية ، أصبحت بلداً عجيب الخصب بفضل أعمال الرى الذكية (١) ، التى سمحت لأهلها بحياة أكثر سهولة . ان ضواحى العاصمة وضواحى المدينة كانت تكثر فيها البساتين والرياض . وفيها كانت تقوم بالحراثة والزراعة كل من قبائل دكّالة ونفيس (٢) . ويرجع الفضل

---

(١) الاستبصار ؛ الترجمة ، ص ١٨٠ .

(٢) المصدر السابق .

لعبدالمؤمن فى تحقيق هذا العمل فهو الذى أثبت عن طريق حراثة هذه المنطقة وزراعتها واستغلال ثرواتها ، أنه إذا كانت تلك الناحية قد عانت من الفقر فى السابق فإنما يرجع الى عجز ادارتها وقتئذ . والحقيقة ان أعمال الرى التى قام بها هذا الأمير هى التى حققت الخصب والرخاء لذلك الإقليم . فمنابع المياه المحلية وكذلك الآبار الواسعة لم تكن كافية لإمداد المراكز النامية بالمياه . فوجب استغلال مصادر أخرى للماء ، وحفر آبار جديده فى الأطراف المجاوره ، وحتى فى الجبال البعيدة . وهكذا جلبت المياه من انهار جبال درن ، وحفر صهريجين كبيرين خارج المدينة لاستقبال تلك المياه (١) . وبذلك اقيمت بحيرة (حديقة) كبيرة فى غرب المدينة بالقرب من اقليم نفيس . كما أقام يوسف هو الآخر حدائق وبساتين مخصصة للزراعة بفضل أعمال مائية أخري أكثر أهمية من السابقة (٢) . ولقد أمر أبو يوسف يعقوب بحفر قناة أخرى تمر فى وسط المدينة من الجنوب الى الشمال . وعلى طول هذه القناة التى كانت تمير قصره بالماء ، بنى أحواض الماء لسقيا الخيل والماشية ، والتى كانت تخدم الناس أيضا (٣) .وظلت هذه السياسة مستمرة على عهد يعقوب حتى أصبحت المنطقة من أغنى المناطق غنى بالحدائق والرياض ، حيث وجد بها

---

(١) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨١ . ولا بأس من الاشاره هنا الى ان عبدالمؤمن وأبناءه لم يعملوا أكثر من الاستمرار فى الأعمال المائية التي كان قد بدأها المرابطون ، بناة مدينة مراكش .وفى البداية كانت الآبار المصدر الوحيد لإمداد المدينة بالماء . وكان على بن يوسف بن تاشفين أول من حقق أعمال جلب المياه من مسافة أميال بعيدة . وعهد بهذا العمل أولا إلى من يسمى عبدالله بن يوسف ، وهو مهندس ، ولكن الأعمال هذه لم تتم فى عهد على . فمصمودة هم الذين أكملوا الأعمال وادخلوا المياه الى المدينة بعد استيلائهم عليها (الادريسى ، ص ٦٨ - ٦٩).

(٢) انظر الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٠٢ - حيث الاشارة الى ان دخل الحديقة (البحيرة) التي اقيمت فى سنة ٥٤٣ هـ فى مراكش كان ٣٠ (ثلاثين) ألف دينار (الحلل ، ص ١٢١).

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٢ .

الكثير من اشجار الزيتون ، والكرم والفواكه من كل لون ، وذلك فى نفس المكان ا لذى كان العصفور ، كما يقول صاحب الاستبصار ، يقع فيه ميتا قبل ذلك من شدة الحرارة والعطش (١) .

وكانت منطقة نفيس فى غرب مراكش منطقة زراعية هى الأخرى ، حيث كانت غنية بالقمح وأشجار الفاكهة ، وكانت الكرمة هناك تعطى أنواعاً مختلفة من العنب الذى كان يجفف الى زبيب (٢). وكذلك كان الأمر بالنسبة لمنطقة أغمات التى كانت مركزا زراعيا وتجاريا فى نفس الوقت . ففى أفروجى ، على مسافة مرحلة من مراكش ، كان الماء لا يفتقد أبدا . وكانت المنطقة منتجة للفواكه وغيرها من المواد الغذائية (٣) .

وكانت منطقة وادى سبو موضع إهتمام الأمير أيضا . ومدينة فاس التى تقع على ٣ (ثلاثة) أميال من النهر ، بعدوتيها (حييها) : عدوة الأندلسيين وعدوة القرويين اللذين يفصلهما وادى فاس ، رافد وادى سبو ، كانت أكبر مدن المغرب وأكثرها ازدهارا (٤) . وإذا كانت مراكش هى العاصمة الرسمية للمغرب ، فإن هذا الأخير كان فخورا بفاس ، على اعتبارها العاصمة الحقيقية . فعندما وصل ابن منقذ سفير صلاح الدين الى يعقوب المنصور ، يقول انهم صحبوه خارج فارس ليتنزه فى بستان يسمى العجيبة ، يصل ثمنه الى ٤٥ (خمسة واربعين) ألف دينار . وهو يقول انه كان هناك حدائق ورياض أعظم من ذلك وأكبر (٥) . وفى داخل المدينة كان هناك ٣٠٠ (ثلاثمائة) طاحونة (٦) .تدور بالسوانى « القنوات » التى تجرى فى المدينة ، وعددها ٣٦٠

---

(١) نفس المرجع السابق ، الترجمة ، ص ١٣٧ .

(٢) الادريسى ،ص ٦٣ ، وقارن الاستبصار.

(٣) الاستبصار.

(٤) نفس المصدر ؛ عبدا لواحد ، المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ١٦٠ ، القلقشندى ، صبح ، ج٥ ص ١٥٧ .

(٦) عبدالواحد ، المعجب ص ٢٦١ .

(ثلاثمائة وستين (١) . والتي تمر بمعظم منازلها) والاقليم الذى يعتبر من اخصب بلاد المغرب ، وأكثرها امدادا بالماء ، كان غنيا بالحدائق ، والفواكه ، والنباتات ، والمزروعات من كل الأنواع ، وخاصة على عهد المنصور(٢) . فالقمح هناك رخيص السعر ، والفواكه موجودة بكثرة وفى قرية قلعة زياد ، غرب عدوة القرويين ، كان يكثر الزيتون (٣) . وحسب مقالة عبدالواحد (٤) ، كانت المدينة زاخرة بكل شيء ، ولم يكن ينقصها إلا العطر الهندى . ومع ذلك ، ورغم غنى المنطقة الزراعية ، فإن مؤلف الاستبصار يرى أن المنطقة كان يمكن ان تكون أكثر ازدهارا لو أن الحكومة أتت بالماء من وادي سبو فى السهول المجاورة من أجل تأكيد الرى المنتظم ويرى المؤلف انه كان من الممكن تسهيل تحقيق هذا المشروع فى عدة مواضع وانه يعتقد ان تنفيذها لن يتأخر كثيرا .

وغير بعيد من فاس ، كان أهل صفروى منصرفين تماما الى زراعة الأرض . والمنطقة بها الماء الوفير ، وأهلها فى معظمهم من الفلاحين ، أصحاب الماشية ودواب الركوب (٥). وتكثر الكرمة فيها وكذلك الفواكه ، واللوز الذى كان يصدر الى اسواق فاس (٦) . أما مغيلة القاط ، وهى قرية فى نفس المنطقة ، فكانت تمير فاس بالتين الجاف (٧) . ومنطقة مكناسة الزيتون لم تكن أقل غنى فى زراعاتها ، فقد كانت المركز الرئيسى لشجر الزيتون ، ومنها أخذت المنطقة اسمها :"مكناسة الزيتون" . وهذه المدينة تحوي ٤ (اربع) مدن، أهمها

---

(١) الاستبصار .

(٢) الادريسى ، ص ٧٥ .

(٣) الاستبصار ، ص ٧٤ .

(٤) المعجب ، ص ٢٦١ .

(٥) الاستبصار ، ص ١٩٣ ، والترجمة ، ص ١٤٧ ؛ الادريسى ، ص ٧٦ .

(٦) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٤٧

(٧) نفس المصدر.

تقرارات (تجرارات) وهي كلمة تعنى المعسكر (١) . وفى هذه المنطقة ، التى عرفت بخصبهاأنشأ المنصور حدائق واسعة جلبت اليها الماء النهر (الوادي) . وأمر ان يغرس فيها شجر الزيتون واشجار الفواكه (٢).

ومنطقة تازا على التخوم الشمالية الشرقية للمغرب الأقصى ، مع مركزها مدينة رباط ثازا أو مكناسة تازا ، التى بنيت حديثا بمعرفة عبدالمؤمن (٣) ، كانت هى الأخرى مزدهرة، كما كانت غنية بأشجار الفاكهة ، من : التين والكرم وخاصة شجر اللوز (٤) . وفى الجبال كان شجر الأرز ، كما وجد بها أنواع من النباتات الطبية . وخيل تلك البلاد شهيرة بماشيتها ودوابها ، اشتهرت بشجاعتها ومقدرتها على العمل (٥).

واشتهرت بلاد غمارة بفلاحة أرضها ، من : القمح ، والشعير ، والحبوب ، والفواكه والعسل وغيرها (٦) .فمدينة بصرة كانت تسمى : بصرة "اللبان" (الحليب) وبصرة "الكتان" ، لكثرة هاتين الغلتين (٧) وقصر عبدالكريم المعروف بقصر دنهاجة تطور بالتالى الى مركز تجارى . وبنى فيه المنصور فندقين عجيبين ، وبذلك أصبح يفد على هذا المركز التجار من كل البلاد (٨) . وهكذا كانت كل بلاد غماره ، على عهد الموحدين ، مكونة من مدن مزدهرة ، واراض محروثة ، وحقول مزروعة ، كل ذلك فى الأودية وفى الجبال أيضا (٩) .

---

(١) الاستبصار ؛ قارن الادريسى ، ص ٧٧ – ٧٨ .

(٢) الاستبصار ؛ الترجمة ، ص ١٣٦ – ١٣٧ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ ، هـ ٣ .

(٤) الاستبصار ، الترجمة ، ١٣٤ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ص ١٣٥ .

(٦) الاستبصار ؛ وقارن الادريسى ، ص١٧٠ .

(٧) الاستصبار ، الترجمة ، ١٣٩ .

(٨) الاستبصار، والترجمة ، ص ١٤٦ .

(٩) الاستبصار ، نفس الصفحة .

وفى جنوب وادى تنسيفت ، نهر مراكش ، كانت منطقة جبال درن من أحسن البلاد سقاية ، وأكثرها شجرا وكرما . وكانت تلك الأخيرة من الكثرة بحيث كان طعام الناس من العنب طازجا وزبيباً جافا ، كما كان شرابهم عصير العنب المعروف "بالرب" (١) . ومنطقة واد سوس عرفت بغناها فى قصب السكر ، وخاصة فى تارودانت ، حيث أصبح استخلاص السكر صناعة مزدهرة . فمن تارودانت كان يصدر السكر الى افريقيا والأندلس وكل بلاد المغرب(٢).

والى جانب قصب السكر والفواكه كانت التمور وفيره فى إيجلى ، عاصمة السوس . فقد كانت من الكثرة بحيث ان حمل الدابة منها كان أقل ثمنا من أجرة نقلها من الحديقة الى السوق (٣). وكانت ثمرة الهرجان، وهى الفاكهة الشبيهة بالكمثرى التى يستخرج منها زيت ممتاز لعلاج وحفظ الكليتين ، هى المحصول المحلى الوحيد الذى يمدّ المنطقة بالزيت (٤) . وكان يوجد بالبلاد عسل ممتاز ، منه يصنع شراب مسكر عجيب (٥) .وفى الجنوب كانت بلاد صنهاجة (من لمتونة ومسوفة) أرض مراع وتربية ماشية . فأهلها كانوا يأكلون اللحم وحده مجففاً ، ويشربون اللبن ، فكانوا لا يعرفون الخبز (٦) . وهكذا كانت ١٠ (عشرة) خراف وربما أكثر ، لا تساوى أكثر من دينار واحد (٧) . وفيها كان الاشتغال بصيد اللمط الذى كان يستخدم جلده فى صنع الدروع الشهيره بالدرق (٨).

---

(١) الاستبصار ، الترجمه ، ص ١٨٤ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٦ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٣ .

(٤) نفس المصدر ، والترجمة ، ص ١٨٢ وهـا ؛ البكرى ، ص ١٦٢ .

(٥) الاستبصار ، نفس الصفحة ؛ الادريسى ، ص ٦٢ – ٦٣ .

(٦) الاستبصار ، الترجمة ص ١١٨ ، الادريسى ، ص ٥٨ – ٥٩ ؛ وقارن للمؤلف ، ج٤ .

(٧) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ .

(٨) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ .

أما عن اقليم درعه وكذلك سجلماسة فلم يكونا محرومين أيضا من الثروة العظيمة . فسجلماسة كانت مشهورة بزراعة القطن (١) . وفى أرضها المعروفة بشقوقها كان يبذر القمح مرة واحدة، فتكفى لجنى المحصول ثلاث سنوات متصلة وربما أكثر من ذلك (٢) . وفى درعة كان هناك الكثير ، من : الزيت ، النيلة ، والكراوية ، والكمون ثم بعد ذلك الحناء بصفة خاصة (٣) . وهناك كانت شجرة التاكوت ، التى تستخدم لدبغ الجلود الآتية من غدامس(٤) .

واقليم الساحل بالمغرب الأوسط كان هو الآخر خصيبا ، فكان ينتج الحبوب الكثيرة ، كما كان غنيا بمراعيه المناسبة لتربية الماشية والدواب للركوب ، وهكذا ازدهرت التجارة فى كل من : تنّس ووهران ، وأرشجول – ميناء تلمسان – وهنين (٥) .

ب - افريقية:

رغم التجارب القاسية التى عرفتها افريقيا ، من : الغزوة الهلالية ، وغزوة بنى غانية ، فإن صورة البلاد علي عهد المنصور ظلت كما كانت عليه فى الماضى .

فمن بين المحاصيل الرئيسية فى افريقية كان القمح يشغل كما فى الماضى المكانة الأولى . واذا كانت منطقة القيروان قد فقدت شهرتها كمنتج للقمح

---

(١) الادريسى ،ص ٧٥ .

(٢) الادريسى ،ص٦٠، الاستبضار .

(٣) الادريسى ، ص ٦١ ، الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٨ .

(٤) الاستبصار ، الترجمة ٨٨ ؛ البكرى ، ص ١٥٢ .

(٥) الاستبصار ، والترجمة ، ص ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ؛ الادريسى ، ص ٨٣ ، ٨٤ ، ١٧٢ ؛ البكرى ، ص ٦١ ، ٦٢ ، ٧٠ ، ٧١ ،٧٧ .

(١) ، فإن منطقة باجة ، ظلت ، كما فى الماضى ، " أهراء افريقية " . فقد كانت تمير كل المدن بالقمح ، وكانت تطعم سكان البلاد جميعا ، من عرب وبربر (٢) . وكانت المحاصيل الغذائية بها رخيصة الثمن جدا ، وبقرب باجة كانت منطقة القُلّ ذات الأرض السوداء الصالحة لزراعة جميع محاصيل الحبوب ، وكذلك البقل والفول(٣). أما بجاية وجزائر بنى مزغناتى (الجزائر العاصمة) فكانت هى الأخرى مناطق للقمح والشعير (٤) .

وبعد القمح يأتى الزيتون . وإذا كان القمح مخصصا عادة للاستهلاك المحلى ، فإن الزيت كان معتبرا من المحاصيل النقدية الأجنبية فى تلك الفترة ، اذ كان جزء كبير من المحصول مخصص للتصدير ، وكانت المنطقة المخصصة لأشجار الزيتون بالامتياز تمتد من صفاقس الى تونس . فقد كانت شجرة الزيتون هى شجرة السهول الرملية كما هو الحال في كل منطقة الساحل (٥) . هذا الاقليم المطل على طول الساحل والمكون من الحدائق والرياض احتفظ من غير شك بنفس اقتصادياته فى سالف الآوان فزيت صفاقس كان من نوعية أعلى من كل غير ، باستثناء الزيت المشرقى (٦). ومثل ذلك وفى كل بلاد الجريد وقسطيلية وقفصة ونفطة وتقيوس ، والحامة ، وطرّة وبشرا ، كان أهلها

---

(١) حسب البكرى (ص٢٤) كان ذلك الاقليم غنيا بالقمح . فالحبة الواحدة كانت تنتج فى منطقة الدرّارة ، بالقرب من القيروان ، حوالى مائة حبة فى السنوات الطيبة . فالادريسى (ص ١١٠ – ١١١) يقول ان الاقليم الذى تقع فيه القيروان وصبرة ورقادة يسوده العرب ، ويؤكد أنه خراب على أيامه . أما صاحب الاستبصار فلا يقول شيئا عن القيروان على أيامه ، ويكتفى بمديح ازدهاره فى الأيام الخالية .

(٢) الاستبصار ، وقارن الادريسى ، ص ١١٥ – ١١٦ ؛ البكرى ، ص ٥٦ .

(٣) الاستبصار .

(٤) الادريسى ،ص٩٠ .

(٥) هذا الاقليم كان يسمى الساحل ليس بمعنى ساحل البحر ، ولكن لأن لونة القاتم ناتج عن كثافة أشجار الزيتون فيه ، وأشجار الفاكهة والكرم . التجاني ، الرحلة ، والترجمة ، ص، ٦٨ .

(٦) الاستبصار ، الادريسى ، ص١٠٧ ، البكرى ، ص ٢٠ ، ٤٥ .

قد كرسوا جهودهم لزراعة شجر الزيتون (١) . أما فى بلاد الزاب فلم تفتقد زراعة الزيتون تماما ، إذ كانت الزيتونة تزرع فى بسكرة (٢) .

والأقاليم الثلاثة الأخيرة كانت أكثر مواطن انتاج التمر . فلقد كانت النخلة هى إساس ثروة بلاد الجريد ، وهى التى أعطت لتلك البلاد اسمها :"سعف النخل" (٣) ، واقليم الزاب كان له مركزه : واحة بسكرة التى عرفت باسم "بسكرة النخل" بسبب شهرة تمرها العالى الرتبة (٤) . وتوزر : مركز نشاط قسطيلية المعروفة باسم " توزر مدينة التمر" (٥) .كانت تمير بلاد افريقية المختلفة وكذلك الصحراء بالقسم الأكبر من حاجتها من التمر (٦).وفى قفصة أيضا كان يوجد نوع من التمر حجمه كحجم البيض . وكان يحفظ في الجرارحيث يترك شرابا كان يستهلك كما العسل ، كما كان يستخدم فى عمل الحلوى(٧) .

الى جانب هذه المحاصيل الأساسية الثلاثة ، وجد غيرها مما هو فى درجة أقل ، مثل اشجار الفاكهة ، والكرم ، والتوت ، ونباتات استوائية غريبة ، مثل : الموز وقصب السكر والقطن .

أما عن أشجار الفواكه فكانت توجد متناثرة فى كل مكان ، فقد كانت تكسو سفوح زغوان ، وتحيط بتونس ، وتجمل موقع قرطاجنة . كل منطقة الشاطىء وحواف الساحل كانت مشهورة بكثرة أشجارها. جلولاء كانت

---

(١) الاستبصار .

(٢) الاستبصار ، الادريسى ، ص ١٠٣ – حيث تسمية بلاد الجريد ببلاد التمر .

(٣) الاستبصار ، ومابعدها .

(٤) الاستبصار؛ البكرى، ص ٥٢ .

(٥) الادريسى ، ص ١٠٤ .

(٦) الاستبصار .

(٧) الاستبصار .

غنية بحدائقها ، وأشجار الفواكه والرياحين أما الياسمين الذى كان يجتذب خلايا النحل فكان غزيرا فى المنطقة حتى تخصصت فى انتاج نوع متميز من العسل(١) ، وخاصة في قصر لخم (٢) . هذا ، ولم تكن اشجار الفاكهة مفتقدة فى منطقة القل الشهيرة بالحبوب والقريبة من باجة (٣) .

وفى جيجل كانت توجد الأعناب وكذلك التفاح . وبلاد الجريد كانت دائما مزدهرة رغم ما كانت تعانيه من غارات البدو . وفى الماضى كانت المنطقة الممتدة حول قفصة مغطاة بالقرى التى بلغ تعدادها ٢٠٠ (مائتين)وكانت تعرف باسم "قصور قفصة" . فعندما كانت القوافل تعبرها الجمال تُخطم خشية ان تأكل أوراق الشجر . ولكن الاقليم أصابه الخراب بعد وصول البدو (٤) . وعلى العكس من ذلك كانت قفصة تزهو بغناها الزراعى .. وكان أهل البلدة يستخدمون فى رى حدائقهم أساليب جدّ فنية ، فيها كثير من العبقرية والدقة الرقيقة . فالسقى تكون فى ساعات معينة ، وعن هذا الطريق كان أولئك الذين يزرعون الحدائق والرياض أكثر الناس مهارة فى معرفة ساعات النهار (٥) . والى جانب أشجار النخيل والزيتون كانت "غابة" قفصة تحوى الكثير من أشجار الفواكه . فكان فيها التفاح والرمان ، والبرتقال والموز . وتميزت قفصة بانتاج كميات هائلة من الفستق ، حتى كان يظن أنه لا يوجد فستق إلا هناك (٦) . وهناك كانت الحدائق تزهو بأنواع الأزهار والنباتات العطرية ، من : الياسمين ، والفاردين ، والنرجس ، والـ Lys وغيرها(٧) .

(١) الاستبصار ؛ البكرى ، ص ٣٢ .
(٢) الادريسى ، ص ١٣٨ .
(٣) الاستبصار ، الادريسى ، ص ١٠٢ – ١٠٣ .
(٤) الاستبصار .
(٥) الاستبصار .
(٦) البكرى ، ص ٤٧ ، الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٤ .
(٧) الاستبصار ؛ ابو الفدا ، الجغرافيه ، ص ١٤٣ .

أما الكرمة التى يؤكل عنبها طازجا إذ لم يجفف زبيبا فى الشمس لعمل النبيذ ، فكانت تزرع فى هذاالاقليم كما فى واحات الجريد . وكانت الحامة أكثر بلاد الجريد فى الكرمة . وكان يصنع فيها من العنب شراب حسن جداً ؛وكان ذلك الشراب كحوليا الي حدّ انه كان يمكن شحن السراج به بدلا من الزيت(١) ،كانت بلاد الزاب تزهو أيضا بفواكهها وخاصة الجوز ، وكانت كل من المسيله وتقاوس من مراكز الانتاج الكبيرة (٢) . والى جانب انتاج قابس للتوت ودودة الحرير كانت قابس مركز انتاج الموز الوحيد فى افريقية . وكان قصب السكر يوجد فى القيروان (٣) . وقابس وفى واحات الجريد(٤) ، والقطن في المسيلة وطبنه (٥) . وفى مستغانم (٦) . أما عن سهول الرعى فكانت متوفرة فى كل البلاد . وكانت القطعان عديدة وخاصة بعد استقرار البدو من العرب بقطعانهم فى السهوب والصحراء.

وفيما يتعلق بالانتاج البحرى ، كان أهل الساحل المغربى يمكنهم الاعتماد على صيد السمك كمورد غنى يميز الاسواق بمحصول جيد التغذية وعادة ما يكون رخيصا . والأمر يتعلق بصفة خاصة بطرفى الساحل : الغربى والشرقى ، وذلك ان منطقةالوسط كانت خالية من مراكز الصيد الهامة ففى سلا كانت الاسماك من الكثرة بحيث كانت من الرخص وكأنها بلا ثمن(٧). وفى سبتة ، مركز صيد السمك المشهور ، كان سمك التونة يصاد بالحراب ، كما كان

---

(١) الاستبصار .

(٢) الاستبصار ، وقارن الادريسى ، ص ٩٤ .

(٣) البكرى ، ص ٣٢ .

(٤) البكرى ، ص ٦٩ .

(٥) البكرى ، ص ٥٩ ، أبو الفدا ، الجغرافيا ، ص ١٣٩ ؛ ابن حوقل ، ص ٦٠ .

(٦) البكرى ، ص ٣٢ .

(٧) الادريسى ، ص ٧٣ ؛ قارن الاستبصار ، ص ٢٧ .

يستخرج المرجان الممتاز . وكان للمرجان سوق خاص فى المدينة حيث يقطع ، وينظف ، ويثقب من أجل عمل العقود المخصصة للتصدير ، وخاصة الى غانة وبلاد السودان (١) . فى بليونش القريبة من سبتة ، كان صيد المرجان (٢) . ولم تكن مدن الساحل فقط غنية بالأسماك ، بل ومدن الداخل أيضا . ففى وادى فاس كانت تصاد فى المدينة كميات كبيرة من الأسماك المتنوعة ، مثل: الشابل (alose) والشولى (esturgeon) والبورى (mulet) والقرب (thon) . وكان سمك التونة يباع الرطل منه وافى الميزان بالثمن الرخيص ، الذى يقدر بدرهم ونصف الدرهم (٣) . وفى مكناسة كان يوجد سمك الشولى أيضا ، وهو الألذ طعما ، والذى يجهز بمختلف أنواع الخضر منه أطباق لا تظهر فيها رائحة السمك أبداً(٤) .وفى افريقية كانت مدينة قابس تفخر بكونها مدينة بحرية وصحراوية فى نفس الوقت فساكن قابس وحده يمكن ان يأكل كلا من السمك ولحم الغزال أو التمر الطازج (٥).وفى صفاقس(٦). وتونس كان الصيد البحرى كثيرا(٧) .وتظهر بنزرت كمركز ممتاز لصيد السمك حيث كان يعّد فيها حوالى اثنى عشر نوعا من الاسماك (٨).وكانت كميات السمك الكبيرة تؤكل إما طازجة أو محفوظة ففى طبرقة ومرسى الخزر ، كما هو الحال فى بليونش ، كا ن المرجان هو المصدر الأساسى لرزق السكان(٩). وفى النهاية لم تكن بونة (عنابة حاليا) محرومة من الأنواع الممتازة من الاسماك.

---

(١) الادريسى ، ص ٦٨ .

(٢) الادريسى ، ص ١٦٧ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ص ١٣٠ وقارن البكرى ، ص ١١٧ ، والقرطاس ، ص ١٨ .

(٤) الاستبصار ، ص ٧٣ والترجمة ص ١٣١ .

(٥) الاستبصار .

(٦) الادريسى ،ص ١٠٧ .

(٧) الاستبصار .

(٨) الاستبصار ، ١٥ ، الادريسى ، ص ١١٤ .

(٩) الاستبصار ، ص ١٦ ، الادريسى ، ص ١١٦ ؛ البكرى فى ص ٥٥ ؛ ابن حوقل ، ص ٥٠ .

الصناعة

ان الثروة الزراعية بشمال افريقية كانت تمثل رأس المال الأساسى للبلاد .. هذا ، وان كان من المعلوم ان المغرب وافريقيا فى القرن الثانى عشر (٦هـ) كما هوالحال بالنسبة لكل العصور الوسطى لم تكن محرومة من الثروات المعدنية ولكن نظرا لغلبة الطبيعة الإقتصادية الزراعية ، كان للصناعات الزراعية الغلبة على الصناعات المعدينة . ومن ناحية أخرى كانت المدن أوفق كثيرا من الأرياف بالنسبة للنشاط الصناعى ، بمعنى انه إذا كان الريفى مزارعاً يكون المدنى صانعاً .

فكل إقليم زراعى كان يعمل على قيام صناعة تتفق مع الثروات المحلية . فزراعة الزيتونة ، والكرمة، وقصب السكر ، وكذلك ،جود مراعى واسعة ، كل ذلك كان يعمل على قيام سلسلة من الصناعات الزراعية .

كان للزيتونه دور أساسى فى الأقتصاد المغربى . فمنها يستخلص الزيت ، وخاصة فى بلاد مكناسة – حيث أعطت البلاد اسمها ، فهى " مكناسة الزيتون" – وفى منطقة وادى سبو . وبفضل أمراء الموحدين الثلاثة الأول ، افتخرت مراكش والمنطقة المحيطة بها بزيتونها وبانتاجها من الزيت ، بعد ان كانت المنطقة لا تعرف إلا زيت الهرجان (١) ، الذى كانت حبوبه الشبيهة بالكمثرى ، توضع على النار فى أوانى بالفخار ليستخلص منها زيت تستخدم فى الرواء كما يستخدم فى الطعام ، له طعم القمح المقلو(٢) .وفى عصرنا ، عصر المنصور كانت مراكش تمتلك من الزيتون أكثر من مما لدى مكناسة مدينة الزيتون أصلا (٣) .أما ايجلى عاصمة السوس ، فاشتهرت كمركز:

(١) الاستبصار ، والترجمة ،ص ١٨٢ .

(٢) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٧ .

(٣) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٢ .

لانتاج زيت الهرجان (١) . أما عصير الخمر فكان معروفا فى كل بلاد درن (٢) . وان مجهودات يعقوب من أجل منع شرب الخمر فى بلاده ، والعقوبات الصعبة التى كانت تنزل بالمخالفين (٣) ، والتى بلغت أحيانا حدّ العقوبة العظمى ، كل ذلك يظهر الى أى حدّ كانت تلك الصناعة مزدهرة . وفى بلاد وادى سوس كان هناك عدد من المعاصر التي تسمح باستخلاص السكر من القصب ، وكان الانتاج يكفى الاستهلاك المحلي ، بل وتصدير مازاد على ذلك الى الخارج . وفى السوس كان العسل كثيرا ، وكان يمكن باعداد خاص استخلاص نوع من المشروبات الروحية ، له جمال لون الزمرد الأخضر (٤).

وكان النسيج معروفا فى مكناسة ، حيث كانت نسبة حسنة من الناس تعمل فى منازلها (٥). وكانت سجلماسة من البلاد المنتجة للقطنيات بالامتياز فى كل نواحى المغرب الأقصى (٦) . كما كانت الضأن فى ذلك الاقليم تقدم نوعا من أفضل الأصواف (٧).التى كانت النساء تحسّن غزله بامتياز . أما النيلة ذات اللون الأزرق كانت تزرع فى بلاد درعه غير بعيد من سجلماسة(٨). وهكذا كان يصنع هناك الملابس المشهورة ، التى كانت مفضلة على تلك التى كانت تصنع فى درجين فى طرف بلاد الجريد (٩) .

---

(١) نفس المصدر ، والترجمه ، ص ١٨٧ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ص٣٨٠ ، رسائل رسمية موحدية ، ص ١٦٥ .

(٤) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٨٧ – حيث كان صناع المشروبات الروحية من ماء العسل يضيفون الى مكيال العسل ١٥ (خمسة عشر) مكيالا من الماء ، لكى يصنعوا منه الشراب الروحى المسكر.

(٥) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٣٨ .

(٦) الادريسى ، ص ٧٥ .

(٧) البكرى ، ص ١٤٦ .

(٨) الادريسى ، ص ٦١ ، ابن خلدون ، العبر ج٦ ص ١٠٢ .

(٩) انظر فيما سبق .

وكانت تنسج هناك أيضا سراويل من الصوف تزيد حسنا على تلك التى كانت تسمى "القصب" والتى كانت تأتى من مصر (١) . لقد كان الثوب من صناعة سجلماسة يساوى من ٢٠ (عشرين) الى ٣٥ (خمسة وثلاثين) مثقالاً (٢) ، الأمر الذى لا بأس به بالنسبة لهذالاقليم ، وان لم يعادل انتاج افريقية الذى كان يتفوق عليه من حيث الصنعة ، التى لا ترقى إليها أقمشة صفاقس وقابس وسوسة . وفى درعة كان يوجد خشب الثاكوت ، الذى كان يستخدم فى الدباغة ، ولما كان وعل "اللمط" كثيرا فى الصحراء عرفت صناعة دباغة الجلود ، وخاصة فى عمل التروس المعروفة باسم "الدرق" اللمطية ، والتى كانت كل من نول – لمطة وأودغست من أشهر مراكز صناعتها (٣).

وفى افريقية كانت هناك عدة عوامل ساعدت على ازدهار صناعة الغزل والنسيج ، هى : القطن فى قرطاجنة ، وفى حوض الهدنة ، والمسيلة ، والتوت ودودة الحرير فى قابس ، والصوف قليلا فى كل سهول المراعى ، والكتان فى بونة (٤). وسبيبة (٥). حيث كان حصاد الزعفران ، والنيلة فى سباب بيرقة(٦) . وكان نسيج القنبه الرقيق وكذلك الصوف معروف فى سوسة(٧) . ولقد تخصصت قابس فى نسيج الحرير والصوف ، وتميزت صفاقس فى انتاج الجوخ . وفى قفصة كانت تصنع أردية وعمائم من الصوف الرقيق جدا ، من

(١) ياقوت ، معجم ، ج٣ص٤٦ .

(٢) البكرى ، ص ١٤٦ ؛ ياقوت ،معجم ، ج٣ص ٤٦ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٩ ، ١٩٣ .

(٤) الأدريسى ، ص ١٠٦ – ١٠٧ .

(٥) ابن حوقل ، ص ٥٨ .

(٦) ابن حوقل ، ص ٥٨ ؛ البكـــــري ، ص ١٠ ، ١٤٦ ؛ ياقـوت ، معـجم ، ج٤ص ٤١٧ ؛ وقارن Mas-Latrie عنه ، ص ١٢ .

(٧) الاستبصار ، الادريسى ، ص ١٢٥ ؛ البكرى ، ص ٣٦ .

نوع الثياب التى يلبسها الأشراف (١) . وفى درجين فى طرف بلاد الجريد تنسج الأردية ذات النسيج والألوان التى تشبه أردية سجلماسة وان كانت أقل رتبة(٢) . وفى طرّة فى نفس الاقليم ، كان يصنع رداء كان يوجد فى اسواق الاسكندرية (٣). وفى توزر كانت صناعة الصباغة معروفة بازدهارها اللامع(٤) . وفى سوسة لم تكن المصانع تكتفى باستخدام المواد الأولية التى تدخل فى تصنيع الأقمشة ، والتي كانت عادةمن خيوط الصوف أو الحرير ذات الألوان المختلفة ، ففى الاقمشة الراقية كان يخلط بلحمة النسيج خيوطا من المعدن ، من الذهب أوالفضة التى تعطى الكثير من البريق فى ضوء الشمس أو لمعان المشاعل (٥) . ولكى يصبغ الصوف كانت الأصباغ الطبيعية هى المستعملة وليست الاصطناعية ، فالأزرق والأصفر كانا يأتيان بصفة خاصة من النيلة والصفران .

وكانت معاصر الزيتون توجد فى كل مكان حيث تنبت شجرة الزيتون وأكبر مراكز انتاج الزيت كانت صفاقس ، وكل مدن الساحل ، وواحات الجريد .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٢) الاستبصار .

(٣) ابو الفدا . جغرافية ، النص ، ص ١٤٧ .

(٤) التجانى ، الرحلة ، النص ، الترجمة ص ١٤٤ . وكانت كلها مركزة تقريبا فى موضع باب المنشور حيث كان الصباغون يأتون لنشر الملابس ذات الألوان المختلفة ، والأقمشة المطرزة . فكان الناظر اليها يظن نفسه فى روضة غنية بالازدهار ذات الألف لون ، المتفتحة على الجداول الطرية الهواء ، الرائقة الماء . وقارن ، اليعقوبى ، ص ٣٥٠ .

(٥) قارن ، ج.مارسيه ، العرب فى بلاد البربر ، ص ٢٧ – حيث كان يباع نوع من الخيط بسعر ١٠ مثاقيل للمثقال الواحد (البكرى ، ص ٣٦ ؛ الاستبصار ، ياقوت ، معجم ، ج ٢ص ١٩١–١٩٢ – حيث تنسج عمائم تسمى المعمور ، تساوى الواحدة منها ١٠٠ (مائة) دينار (الاستبصار ، قارن الادريسى ، ص ١٢٥ .

وفن تجفيف الفواكة كان معروفا أيضا فى الأقاليم الغنية باشجار الفاكهة . ففيها كان يجفف العنب من أجل عمل الزبيب ، أو من أجل صناعة النبيذ .

وكانت كثرة النباتات العطرية تسمح بتقدم صناعة العطور . فمن الورد الأبيض كان يستخرج بقفصة ماء رائحته نفاّذة تذكر بعطر "الجورى" الذى كان يصدّر من مصر (١) .

أما غدامس ، وهى المدينة الصحراوية على الحدود ما بين ولاية طرابلس وتونس ، كانت تحتفظ دائما بسمعتها كمركز كبير للدباغة (٢) .

أما عن الصناعات المعدنية ، فكان تقدمها يلاحظ فى بعض الأقاليم .

ففى بلاد سجلماسة كان تبادل الذهب أكثر منه فى أى بلاد أخرى بالمغرب ، فالمدينة كانت بوابة لبلاد غانة (٣) . وكان النحاس يستخرج من السوس ، وهى نفس البلد الذى يوجد فيه الكحل المستخدم فى صناعة النحاس الأصفر(٤) . وكانت إيجلى ، عاصمة السوس ، هى مركز تلك الصناعة (٥) ولكن فاس كانت تظهر كأكبر مركز لصناعة النحاس الأصفر ، وهو المعدن المعد للتصدير الى كل البلاد ، وخاصة السودان (٦).

وكانت الصحراء تنتج الملح قرب وليلى (٧) ، كما كان عنبرها الأشهب ذا شهرة عظيمة .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ .

(٢) الاستبصار ؛ البكرى ، ص ١٨٢ ؛ ياقوت ، معجم ، ج٣ ص ٧٧٦ ؛ ابو الفدا ، الجغرافية ، النص ، ص ١٤٧ .

(٣) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٦٥ ؛ العمرى ، مسالك ، الترجمة ، ص ٢٠٠ .

(٤) عبدالواحد ، الترجمة ، ص ١٨٦ ، البكرى ، ص ١٦٢ .

(٥) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٦٤ .

(٦) الاستبصار ، الترجمة ص ١٢٤ .

(٧) الاستبصار ، الترجمة ، ١٩٠ ، والادريسى ، ص ٢ ، ٣٢ ؛ البكرى ، ص ١٢٠ - ١٢١ .

وفى المغرب الأوسط ، قرب الساحل (١) ، كان يوجد الحديد ، فيما بين وهران وتلمسان .

وفى منطقة مجّانه ، وهى المنطقة الجبلية ذات الأودية والأخوار ، على الحدود الجزائرية – التونسية ، شمال شرق تبسّا ، كانت مدينةمجّانة التى أخذت اسمها "مجانة المعدن" من موقعها كمركز لاستخراج المعادن المختلفة ، من : الفضة ، والأثمد (الكحل) والحديد والمرتك (أكسيد الرصاص) والرصاص (٢) . وكان الحديد موجوداً فى جبل قرب بونة (عنابة)(٣) . وفى منطقة بجاية (٤) . وفى المراكز الكبيرة ، مثل : تونس ، قفصة ، وبجاية وغيرها من المدن الأخرى كان التميز فى صناعة وعمل النحاس ، والزجاج والخزف وأوانى الفخار . ففى قفصة مثلا كانت تصنع أوانى فخارية تسمى "الريحية" مخصصة لماء الشرب . كانت ناصعة البياض رقيقة بدرجة لا مثيل لها فى أى مكان آخر (٥) . والى جانب ذلك كان يصنع هناك الزجاج ، وأوانى أخرى مذهبة ، عجيبة الصنع (٦) . وكانت صناعة الزجاج مزدهرة أيضا فى طُرّة فى بلاد الجريد (٧).

ج- اسبانيا الموحدية:

نحن لا نعالج هنا الأندلس . ولما كانت هذه معتبرة كثغر شمالى للدولة فإن الصراع ضد المسيحيين هو الذى اجتذب انتباه الكتاب . والظاهر يدعوان

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٦٤ .

(٢) البكرى ، ص ١٤٥ ؛ ياقوت ؛ معجم ج٤ص٤١٧ ؛ قارن ج.مارسيه ، بلاد البربر الاسلامية والمشرق . . ، ص ٧٨ .

(٣) الادريسى ، ص ١١٧ .

(٤) الادريسى ، ص ٩١ .

(٥) الاستبصار ، الترجمة ، ص ٧٦ ؛ البكرى (ص٤٠ ، والترجمة ص ٩٩) يرجع صناعة هذه الآنية الى مدينة تونس .

(٦) الاستبصار .

(٧) ابو الفدا ، الجغرافية ، النص ، ص ١٤٧ .

الظن انها عرفت حتى اضمحلال الدولة الموحدية ازدهارا زراعيا وانها استمرت تقوم بدور مهم فى هذا المجال . ومن المحتمل ان احوالها الجغرافية وبنيتها الاقتصادية لم تختلف أبدا عما كانت عليه فى العصر الوسيط (١).

التجـــارة

مع التجارة نحن نعرض لأهم تلك الفصول المخصصة للاقتصاد . فهى من التعقيد بحيث تتعدى إطار السياسة الداخلية لكى تعتمد الى حدّ كبيرعلى السياسة الخارجية . وبناء على ذلك فيمكن اعتبار ما تقدم – من الزراعة والصناعة – وكأنهامقدمة للفصول التى تأتى عن التجارة ، فهذه الأخيره تبدأ نموها عادة فى النشاطات الزراعية والصناعية . فمع البحث عن منافذ للانتاج الزراعى الصناعى وغيره يبدأ نقل المنتج من مركز الانتاج نحو مركز الاستهلاك القريب أو البعيد . وان كثافة التبادل التجاري هى التى تسمح بتقدير قيمة الازدهار الإقتصادى.

ومن المناسب تقسيم النشاط التجارى لدولة الموحدين الى صنفين : من ناحية التجارة الداخلية التى تتكون بدورها من تجاره محلية وغير محلية ، ومن الناحية الأخرى التجارة الخارجية التى يمكن ان نلاحظ من خلالها تيارين : العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية ، والأخرى مع الأجنبى المسيحى .

التجارة الداخلية:

ان انشاء الاسواق السنوية والاسبوعية والدائمة كان أمراً عاديا فى كل مكان . فالفلاحون والرعاة والتجار يفدون على السوق من أجل تبادل الأطعمة

(١) أ.ليفى – بروفنسال، اسبانيا الاسلامية فى القرن العاشر (٤هـ) ، ص ١٥٩ . وقارن الحميرى ، الروض المعطار . ومؤلف هذا الكتاب التاريخى – الجغرافى ، المدون فى القرن الرابع عشر (٨هـ)، الذى يقتبس من البكري صفحات عن اسبانيا الاسلامية ، كما فعل قبله صاحب كتاب الاستبصار عن المغرب فى القرن الثانى عشر (٦هـ) ،لم يفعل أكثر من نقل الشكل التقليدى للأندلس . انظر عن هذا الموضوع المؤلف الهام جداً للأستاذ أ.ليفى– بروفنسال .

، من : المواد الغذائية والماشية والطير ، والبضائع ، من : الأقمشة والسجاد ، والثياب الحريرية أو الصوفية ، والمنتجات الغريبة ، من : البهار ، والعاج والعنبر والبخور والعطور . وتجارة الخشب للدفئة (الحطب) ، وهي حرفة بسيطة ، كانت من حيث الكم مهمة فى كل الأسواق . وان منع الموحدين جباية المكوس فى الأسواق (١) ، وجب ان يكون له تأثير فى كثافة التبادل التجارى .

والظاهر ان قلة النقود بشكل عام والذهب بصفة خاصة ، وكذلك عدم الثقة فى سلامة أصنافها (٢) . كان يشجع اقامة الأسواق غير الدائمة ، وخاصة فى الريف حيث كانت قلة النقود سببا فى اللجوء الى أسلوب المقايضة . ونتيجة لذلك كانت مكافآت العمل والخدمات ، وكذلك جميع المبادلات الأخرى ، كانت تتم فى معظمها عن طريق التبادل العينى (٣).

والى جانب هذه الأسواق البدائية كانت المدن الكبيرة تمثل مراكز تجارية

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٥٦ وهـ٢ .

(٢) ان النقود الزائفة لم تكن نادرة على عهد الموحدين . بل ان أمراء بنى عبدالمؤمن لم يترددوا أحيانا فى ضرب النقود الزائفة . فعبدالواحد المراكشى يروى ان أبا يعقوب يوسف ضرب دنانير ذهبية زائفة من النحاس لكى يدفع لعرب افريقية فدية قدر أنها مبالغ فيها . المعجب ، ص ١٩٦ ، والترجمة ، ص ٢٣٤ ؛ وقارن أ. بل ، إضافة الى دراسة الدراهم الموحدية ، هسبيريس ، باريس ، ١٩٣٣ ص٧ .

(٣) وعندنا دليلان على ذلك هما فقرتان تتعلقان بحدثين أحدهما سابق على العصر الموحدى والآخر تال له ، والحدث الأول تمّ فى سجلماسة "باب" بلاد الذهب ، والآخر حدث فى افريقيا ، بلاد البدو . فإن بناء سور سجلماسة (نهاية القرن الثانى هـ/مطلع الـ٩م) تكلف ألف مدّ من القمح (الطعام) (البكرى ، ص ١٤٨ ، الاستبصار ، الترجمة ص ١٦٢) . وحسب مقال البدرى (حوالى ٦٨٨ هـ / ١٢٨٩ م) فإن البدو فى طرابلس وبرقة لا يعرفون إلا المقايضة ، وإن النقود غير معمول بها . فعندما أراد أحد الحجاج ان يشترى شيئا من البدوى عرض عليه ثمنا له جملاً ودينارين ، رفض البدوى الدينارين قائلا كيف ادخل فى خيمتى ذلك الذى لم يدخل أبدا حيمة والدى ولا خيمة جدى (العبدرى ، الرحلة ، المخطوط ، ورقة ٤٧ وجه) . وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان القبائل العربية كانت تدفع الضريبة الخراجية إما نقداً وإما عينا (ما سبق ، ص ١٥٤ – ١٥٥) يمكن لنا ان نحسن تقدير تطور هذا الاسلوب فى ذلك العصر

دائمة . ففى افريقية ، ظلت : تونس والمهدية وصفاقس وباجة وقفصة وبجاية من أكبر أسواق الدولة الامبراطورية . وفى المغرب كانت فاس ومكناسة وقصر دنهاجة (١) ، ومراكش ، العاصمة ، حيث شيد يعقوب الاسواق ، والفنادق ، وقيسارية كبيرة (سوق مركزى) أكبر من كل ماعرف فى سائر انحاء العالم ، اذا صدقنا صاحب الاستبصار (٢) ، وايجلى ، عاصمة منطقة السوس ، وسجلماسة ، ودرعة (٣).

وكذلك كان الأمر بالنسبة لمدن الأندلس الكبرى ، من : اشبيلية وقرطبة ومرسية فكل واحدة من تلك العواصم كانت متخصصة فى نوع من التجارة الذى يتفق مع ثروات إقليمها.

العلاقات التجارية مع الخارج:

رغم القطيعة السياسية بين المشرق والمغرب الاسلامى ، باستثناء محاولات صلاح الدين لدى يعقوب من أجل تحقيق وحدة العمل ضد الخطر المسيحى(٤) .كانت العلاقات التجارية دائما مستمرة وخاصةمع مصر ، بلد المرور الى مكة . فالصدامات المتكرره مع بلاد الخارج غير الاسلامية لم تمنع أبداً العلاقات السلمية فى المجال الاقتصادى . وفيما وراء الصحراء لم تنقطع التجارة أبداً مع الممالك السودانية هناك . وكذلك الأمر بالنسبة للمتوسط

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٤٠ – حيث أقام يعقوب فندقين عظيمين . مثل هذا المكان مركزا تجاريا معروفا للتجار الذين كانوا يترددون عليه ويقيمون فيه . وكانت فاس "محجة" المغرب وربما المشرق والأندلس ، وخاصة علي عهد يعقوب. فمن هناك كانت تقوم الحملات الى بلاد السودان والمشرق ، وكذلك قوافل التجارة فى جميع الاتجاهات .نفس المصدر ، والترجمة ، ص ١٢٤ .

(٢) نفسه ، والترجمة ، ص ١٨٢ – حيث يحدد لنا التاريخ الدقيق للانشاء (أول سنه ٥٨٥هـ / فبراير ١١٨٩م).

(٣) كانت التجارة مزدهرة فى درعه حتى انه كان يقام فيها سوقان في اليوم الواحد (الاستبصار ، الترجمة ، ص١٨٨) وغيرها.

(٤) انظر فيما سبق ، ص ٣٥ .

الذى كان مركز النشاط التجارى ، كما كان الرابطة المعتادة بين أوروبا والغرب الموحدى.

مصر: عميلا للدولة الموحدة:

رغم عدم وجود وثائق ، وقلة المعلومات التى يقدمها المؤرخون والجغرافيون المعاصرون ، يجب ان نقبل وجود علاقات تجارية بين الدولة الموحدية - وخاصة على عهد يعقوب - ومصر . ان موقع مصر الجغرافى على طريق الحج الى مكة . وكنقطة وصل بين المشرق والمغرب فى العصر الوسيط ، ومحطة راحة بين آسيا وافريقية ، كل ذلك يؤكد استمرار تلك العلاقات (١). ان منتجات الهند العجيبة ، من : العود الثمين ، والبخور ، والعطور (٢) ، والبهار والعاج التى كان يحتاجها الغرب - مثل بقية البلاد الأخرى - كان يجب مرورها بمصر قبل الوصول الى مقصدها (٣) . ومثل ذلك كان على السفن المغربية والمسيحية المحملة سنويا بالحجاج ان ترسوا فى مصر (٤) . وفوق ذلك فإن التبادل المستمر للعلماء والأطباء ، والأدباء كان يمثل دليلاً على تلك الفرضية .

ان المعلومات الدقيقة والمحدودة العدد التى يقدمها صاحب كتاب الاستبصار تلقى بالضوء على طبيعة تلك العلاقات التجارية بين البلدين . فقد كانت المراكب تخرج محملة بفستق قفصة الذى يعلو على فستق الشام ،

(١) قارن . هايد ، تاريخ تجار شرق المتوسط فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٣٧٨ . "اننا نعرف دور مصر الهام فى القديم : وهى مدينة بذلك الى موقعها المركزى ، والى حركة تجارة المرور الكثيفة . وفى العصور الوسطى لم يتغير الموقف . إننا يمكن ان نسند الى مصر كلها ما قاله وليم الصورى عن الأسكندرية خاصة : لقد كانت "سوق العالمين" .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٦٢ .

(٣) كانت بجاية ميناء ترسوا فيه سفن الصليبيين فى الشام ، وسفن المسلمين الآتية من الأسكندرية ، واليمن والهند ، الصين (الاستبصار) .

(٤) ابن جبير ، الرحلة ، ص٣٤ .

متجهة نحو مصر (١) ، كما كانت افريقية الغنية بزيت الزيتون تبعث أيضا بما يفيض منه عن حاجتها . وإلى جانب برقة من حيث كانت تأتي معظم الماشية المطلوبة في القاهرة . كانت مصر ربما استوردت من افريقيا ، وربما من المغرب الأوسط ، بلاد المراعى ، المواشى والغنم الرخيصة الثمن .

وفى المقابل كان على المغرب ان يسعى الى الحصول على حبوب مصر أثناء سنوات القحط . كما كان عطر "الجورى" الشهير مطلوبا فى المغرب (٢) . وكذلك الأمر بالنسبة لمصنوعات النسيج المصرية ذات السمعة القوية ، فالظاهر انه كان يرسل منها كميات لابأس بها من النخب الجيدة (٣) .

التجارة مع الممالك السودانية :

امتدت العلاقات التجارية دائما الى ما وراء الصحراء ، وخاصة بعد انتشار الاسلام فى تلك البلاد ، بفضل الدعاية والقوات المرابطية فى القرن الخامس الهجرى (١١م) (٤) . لقد كان ذهب غانه هو يشد التجار من كل الآفاق . ففى سجلماسة كات التبر بمثابة عملة دارجة – ولهذا السبب حسب مقالة صاحب الاستبصار كان اليهود يسكنون تلك المدينة (٥) . وكان الأمركذلك بالنسبة لمدينة أودغست حيث كان يتم استيراد الذهب الخام فى شكل قضبات مفتولة (٦) .

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص٧٦ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) انظر هايد ، تاريخ التجارة في حوض المتوسط الشرقى فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٩٤ .

(٤) إذا أخذنا برواية البكرى يكون الإسلام قد انتشر فى بلاد السودان ابتداء من السنوات ٣٥٠ – ٣٦٠ هـ (٩٦١ – ٩٧١ م) على عهد أحد ملوك الصنهاجيين فى مدينة أودغست (قارن الاستبصار ، والترجمة ص ١٩٣) وعلى عهد يوسف بن تاشفين أصبحت العلاقات عادية بين ملوك غانية ومراكش ، وبدأت مراسلات رسمية بين البلدين (الاستبصار ، الترجمة ص ١٩٩ ، وانظر العمرى ، المسالك ، الترجمة ، ص ٥٩).

(٥) الاستبصار ، والترجمة ص ١٦٦ .

(٦) الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٩٥ .

وكانت تجارة العبيد تأتى فى الدرجة الثانية . فقد كان لدى الخليفة بين حريمه عدد من السودانيات الجميلات . وفوق ذلك كان له فرقة عسكرية مكونة من الحرس الأسود ، الذين يقطنون معه بالقصر ، ويقومون بأعمال الخدمة المنزلية ، والذين كانوا يتبعونه فى مواكبه ، ويقومون بحراسته عندمايغشى ميادين القتال . ومثل هذا كان الأمر بالنسبة لكبار رجال الدولة والأعيان الذين كانوا يمتلكون السودان من الجنسين ، وكانت مدينة فاس باب المغرب والمشرق والأندلس ، من حيث كانت تنطلق الحملات العسكرية نحو السودان (١) ، كانت من غير شك واحدة من أعظم الأسواق التى تموّن بالعبيد . وكان لا يجلى عاصمة اقليم السوس هى الأخرى مبادلات تجارية مع بلاد السودان . وفى اودغست كان يوجد سودانيات طباخات ماهرات ، تباع الواحدة منهن بما يناهز المائة دينار (٢) . وكذلك كان يأتى منها جاريات بيضاوات جميلات لا يوجد لهن نظير فى مكان آخر (٣) . وذلك كان كل ما يستقبله المغرب من بلاد السودان ، الى جانب العنبر .

وفى المقابل كانت بلاد السودان تستورد من المغرب الملح من منطقة سجلماسة (٤) ، والنحاس المجهز والمصنع فى ايجى – ومن هنا كان يحمله التجار ويذهبون لبيعه فى السودان – والنحاس الأصفر من فاس ، والنحاس المجهز فى السوس ، وكذلك الزجاج من سبتة . وكذلك كان يستورد المغرب من السودان درق اللمط .

---

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٢٤ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٩٢ .

(٣) نفس المصدر .

(٤) البكرى ، ص ١٧٠ – ١٧١ ؛ الادريسى ، ص ٢ ، ٣٢ ؛ الاستبصار ، والترجمة ، ص ١٩٠ .

العلاقات الاقتصادية مع أوروبا المسيحية:

إذا كانت العلاقات التجارية مع البلاد الاسلامية وبلاد السودان تسير بشكل طبيعي دون مشاكل صعبة ، فإن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للعلاقات السلمية مع البلاد المسيحية . وكان ذلك نتيجة طبيعية للنظم الاسلامية التى لا تسمح باقامة أية علاقات سلمية مع العدو الكافر إلا بعد اتفاقات مسبقة . وهكذا يحسن القاء الضوء علي الظروف المختلفة فى طبيعتها إلى عقد اتفاقات منظمة للعلاقات بين المسيحيين والمسلمين المغاربة .ومنذ البداية يلاحظ ان الأوضاع السياسية فى العالم الاسلامى وفى أوروبا المسيحية كانت تساعد على هذا التقارب . وهكذا كان الانقسام بين الدولة العباسية فى المشرق والأمويين فى الأندلس من ناحية يقابله فى الجانب الآخر انشاء الامبراطورية الكارولنجية التى تتنافس مع الامبراطورية البيزنطية من ناحية أخرى ، كل ذلك عدل التوازن السياسى فى حوض المتوسط ، وأدى الى تحالفات بين المتنافسين رغم اختلافهم على المستوى الدينى . فقد قامت من جانب علاقات صداقة مصحوبة بتبادل السفارات المحملة بالرسائل الرسمية والهدايا بين العباسيين والكارولنجيين ، ومن الجانب الآخر كان على الأمويين فى الغرب والبيزنطين فى الشرق التفاهم بدورهم فيما بينهم لمواجهة ذلك الخطر الذى كان يتهددهم (١) . ومع ذلك فقد ظلت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين دائما حربية . ومع ذلك فلم يكن العنف دائما عقبة من الصعب تجاوزها . فما بين الحين والحين ، وخلال فترات الهدوء ، كان يمكن للمتخاصمين ان يتفاهموا . ففى الاندلس كانت تجارة الرقيق دائما مزدهرة . .

(١) انظر هايد ، تاريخ التجارة فى شرق المتوسط فى العصر الوسيط ، ص ٤٧ – ٤٨ ، ٩٠ .

والعبيد الذين كانوا يتداولون فى الاسواق لم يكونوا دائما ضحية الغارات الإسلامية فى بلاد الكفار . فالمسيحيون أنفسهم كانوا يمدون الأسواق الإسلامية بهم حتى وقت متأخر .

فبعد الغارات التخريبية التى أنزلها الأغالبة بإيطاليا فى القرن التاسع الميلادى(٣هـ) ، كان للغارات المضادة التى قام بها الايطاليون والنورمانديون المقيمون فى صقلية وفى ايطاليا الجنوبية نتائجها التى انتهت بإقامة عدد من الإمارات الإسلامية التابعة فى افريقية .

وترتب على ذلك ان ظهرت الحاجة الى روابط تجارية بين ايطاليا وجمهورياتها التجارية من جانب والمغرب من جانب آخر ، وذلك بشكل عاجل لم يكن له مثيل من قبل (١) . ولا شك ان تبادل المنتجات عبر البحر كان سيكون له فوائد جمة بالنسبة للطرفين . وهكذا تمّ على المستوى السياسى والاقتصادى توحيد المغرب تحت رايات الموحدين .

---

(١) وهكذا فإن الأمير تميم (١٠٦٢ – ١١٠٧م /) الزيرى لم يحصل على انسحاب البيزانيين والجنوبيين الذين كانوا قد استولوا على المهدية إلا بعد دفع مبلغ كبير ، وفك أسراهم ، والسماح بدخول متاجرهم دون مكوس فى أراضيها . انظر هايد ، تاريخ التجارة فى شرق المتوسط ، ص ١٢١ .

ومن بين أهم زبائن الدولة يحسب قبل كل شيء الجمهوريات التجارية الايطالية ومنذ القرن الحادى عشر الميلادى (٥هـ) كانت تلك الجمهوريات قد سادت التجارة فى البحر المتوسط كله ، وكان بها احتكار نقل البضائع بين الشرق والغرب ، بين أوروبا المسيحية وبضمنها بيزنطة والإسلام فى البحر المتوسط . وان الوثائق المحفوظة فى أرشيف هذه المدن التجارية ، والذى نشرها ودرسها كل من أمارى وماس - لاترى ، تظهر لنا بيزا كان أكبر زبون للأمبراطورية الموحدية (١) .

مراكز التجارة الأجنبية:

هناك ما يدعو الى الظن بأنه على عهد المنصور، لم يكن التبادل التجارى بين المسيحيين والمسلمين مسموحا به فى كل مدن الدولة، بل أنه كان فقط فى تونس وبجاية بافريقية ، فى وهران فى المغرب الأوسط ثم فى سبته فى المغرب الأقصى . أما فى الأندلس فكانت السفن تتمتع فى المرية بحق تلقى المعونة فى حالة الاستغاثة فقط (٢) . فتبعا للمعاهدات المختلفة ، يظهر بوضوح ان التجار المسيحيين لم يكن لهم الحق فى المغامرة بعيداً فى داخل البلاد من أجل عقد

---

(١) انظرأمارى ، وثائق عربية (Diplomi Arabi) ، ص ١٧ وما بعدها . كان عدد المعاهدات الموقعة مع بيزا أكثر من تلك التى عقدت مع غيرها من المدن التجارية . وكذلك مما يدعو الى الظن ان بيزا كانت الاهم بالنسبة الي مصر . وبالنسبة للفترة الموافقة لعهد صلاح الدين فهى التي نعرف فيها معلومات افضل عن العلاقات التجارية بين بيزا ومصر . أماعن بقية الشعوب الأخرى فمعلوماتنا عنها اقل. هايد ، تاريخ التجارة في الشرق فى العصر الوسيط ، ص ٣٩٧ .ولقد عقد الدوق سبستيانو زيانى سلما قويا مع أمير بابيلون (القاهرة) وأمير مصمودة : صلاح الدين وابو يعقوب يوسف ابن عبدالمؤمن (نفسه ، ص ٣٩٨).

(٢) أمارى ، وثائق عربية (Diplomi Arabi) ، ص ٧ (معاهدة سلام بين المنصور والبيزانيين).

الصفقات (١) . ولكنه لا ينبغى استخلاص انه فى المدن حيث كان التبادل مسموحا به كانت الصفقات تعقد فى أى مكان كان . إنما كانت توجد أسواق وطنية ، مؤقتة أو دائمة فى مواضع مختلفة من المدينة : ان السوق الدائم فى المدينة كان يعرف بالقيسارية (القيصرية) - وهو نوع من السوق المغطى بسقف خشبى سنامى الشكل ، ويحيط به سور تقسم ساحته الى شوارع ضيقة جداً ، وعليها تنفتح الدكاكين الصغيرة - وهو السوق الوطنى الذى كانت تباع فيه البضائع المستوردة من الخارج ، ولكن لا يكون فيه تجار أجانب . فقد كان لجماعة التجار الأجانب سوقهم الخاص بهم أو على الأصح مقر إقامتهم حيث كان لهم الحق فى عقد صفقات تجارية ، وهو الذى يسمى الفندق ، وهو نوع من الوكالة أو الخان الخاص بالتجار الأجانب فى المدينة (٢) . وكان للتجار الوطنيين أيضا نُزُلهم الخاص بهم" وبالنسبة للأجانب كان الأمر يتعلق بأحياء أوروبية حقيقية فى داخل المدينة . فكل شركة تجارية كان لها فندقها الذى يحوى الدكاكين والمخازن ، وكان بمثابة مقر الجالية الأجنبية . وكان هناك السفراء والقناصل أوالمبعوثون الخاصون الذين لديهم الكتبة من أبناء جنسهم الذين يعرفون اللغة العربية (٣) .

---

(١) لا تذكر الوثائق أبدا مراكش العاصمة كمركز للتبادل التجارى بين المسيحيين والمسلمين وكان الأمر كذلك بالنسبة للمدن الداخلية فى البلاد . وهنا نلاحظ أن الأمر لم يكن كذلك فى مصر . فقد كان التجار أحراراً فى بيع متاجرهم فى كل المراكز فى البلاد المصرية . هايد ، تاريخ التجاره فى الشرق فى العصر الوسيط ، ص ٣٩٣ .

(٢) والفندق كان بناء مربعاً ، فى وسطه صحن مربع كذلك ، يحيط به ٤ (أربعة) أروقة . وكان هناك عدد كبير أو قليل من الحجرات المفتوحة على الأروقة . وعادة ما كان الفندق مجهزا بحمام وبكنيسة صغيرة . وفى حالة اذا لم يكن هناك حمام فإن السلطات المسئولة تهيئ للتجار حاجتهم بأن تخصص لهم يوما فى الاسبوع فى أحد الحمامات الوطنية . دى ماس - لاترى . معاهدات سلام (بالفرنسية) ، ص ٨٣ ، ٨٩ ، ١٠٥ .

(٣) أمارى ، الوثائق ، ص ٢٦ .

ومن جانب الحكومة الموحدية فقد كانت لا تتردد فى حالة الضرورة فى إرسال مبعوثين رسميين من أجل عقد الاتفاقات التجارية مع الأجانب بالخارج.

مما تقدم هل يجب استخلاص أن الجالية الأجنبية كانت فى فندقها تتمتع من وجهة النظر القانونية بموقف خاص ؟ وبأسلوب آخر هل كانت الدولة الموحدية تعترف بالموقف القانونى الشخصى الخاص على أراضيها ، على الأقل فيما يتعلق بالمراكز التجارية الكبرى ؟ ان معاهدات السلام تقدم لذلك إجابة سلبية وذلك أن العقوبات الصارمة التى كان يخضع لها المخالفون على عهد يعقوب المنصور لا تدع مجالا للشك فى هذا الأمر (١).

المنتجات المتبادلة تجاريا :

ماذا كانت تستقبل الجمهوريات الايطالية من الدولة الموحدية ؟ لما كانت الجموريات التجارية فقيرة فى الجلود فإنها كانت تستفيد من غنى المغرب فى تلك المادة . الجلود التي كانت تعرف "بالمراكش : Maroquins" كان لها موضع هام بين الأشياء التى يشتريها التجار المسيحيون . وكذلك كانت الأندلس شهيرة بشغل الجلود وهناك كثرة غير معهودة من الوثائق ، من بينها خطابات من عرب مختلفين موجهة إلى البيزانيين (٢) ، تعطينا فكرة عن تلك التجارة الواسعة المدى . والى جانب طبيعة الأحمال المصدرة الى ايطاليا ، فإن الرسائل توضح الكميات المشتراة من قبل التجار ، وأساليب إمداد الأسواق بها ، وطريقة دفع الثمن . وكان الصوف الذى يمثل مصدر ثروة موازياً لتجارة الجلود ، كان هوالآخر مادة تصدير كثيف .

(١) أمارى ، وثائق عربية ، ص ٢٠ . كان فى بنود المعاهدة ان .." أموال وحياة كل مخالف لهذه الشروط ستكون مباحة" بمعنى ان العقوبة المفروضة على المخالف لتلك الشروط ليس أقل من المصادرة أو الحكم بالاعدام .

(٢) أمارى ، رسائل عربية ، دى ماس -لاترى ، ص ٥٨ ، ٥٩ ، ٦٠ ، المقدم ، ص ٨١ - ٨٣ .

وكان القمح موضوعا للتبادل بين الطرفين ، تبعا لحالة المحصول في ايطاليا ،وفي افريقيا أو في المغرب . وبناء على رسالة من البيزانيين الى الأمير يوسف سنة ١١٨١ (٥٧٧ هـ) (١) .كانت صقلية تصدر في تلك السنة الى افريقية . وفي سنة ١٢٠٠ (٥٩٦ هـ) كان لدى البيزانيين واللوكويين مخزونا من القمح في تونس ، دون معرفة ما إذا كان ذلك القمح يستهلك محليا أم يصدر . ولما كانت كل من صقلية وافريقية منتجة للقمح ، فلم يكن الفصل في تلك المسألة.

ومن صفاقس كان يصدر زيت افريقيا الى صقلية وايطاليا وكذلك في أوروبا (٢) . ومن جانبهم كان التجار الايطاليون يستوردون دائما العود الثمين من الهند وذلك لحساب الموحدين . وكانوا يبيعون مماليك من اللاتين ، واليونان ، والصقالبة . وكانت أقمشة نابولي الأكثر رقة من مثيلتها المغربية تباع من غير شك في بلاد المغرب (٣) .

طبيعة التبادل التجارى مع أوروبا :

كما هي العادة ، لما كانت العلاقات بين المسلمين والمسيحيين مرتبطة ارتباطا وثيقا بالمبادىء الشرعية ، فإنها ظلت متعادية. فرغم معاهدات السلام المعقودة بين الطرفين المتخالفين ، كانت المبادلات الاقتصادية متبادلة مع أعمال النهب ، وكانت العلاقات السلمية والإيجابية تقطعها الغارات التخريبية . وان الوثائق التي تحت أيدينا عن عصر المنصور توضح استمرار هذا الوضع . وكل ذلك كان يضايق التجارة دون أن يوقفها رغم ذلك ، كما كان يضعف من روح المغاربة والمسيحيين عند تقديرهم لقيمة الاتفاقات الدولية ومالها من

---

(١) أمارى رسائل عربية ، النص ، ص ٩ .

(٢) البكرى ، ص ٤٦ ؛ الاستبصار ، ص ٧ .

(٣) دى ماس – لاترى ، معاهدات سلام ، ص ١٢ .

الاحترام . وفى الشهادة التجارية التى أعطاها يعقوب لجمهورية بيزا (١١٨٦م) ، يصر الأمير الموحدى على معاقبة كل واحد من رعية الجمهورية يرتكب عملا من أعمال العنف - وخاصة من القرصنة - ضد الرعية الموحدية . ويطلب الأمير أن تكون عقوبة المعتدى مثل التى تنزل به لو كان المعتدى عليه رعية بيزانية (١) . ولكى يمنع مثل هذه الأعمال ، حدد حقوق التجارة بالنسبة للبيزانيين فى ٤ (أربع) مدن بافريقية والمغرب ، حتى يمكن وضع التجارة تحت إشراف دقيق جداً . ولا شك ان صرامة العقوبات المقدرة لعدم مراعاة شروط الاتفاقات ، والتى تذهب حتى تهديد حياة المذنب ، كانت نتيجة نفسية لعدم الثقة المتبادلة ، السائدة فى العلاقات بين الموحدين والمسيحيين . ويجب بطبيعة الحال أن يضاف الى ذلك الإشراف المالى الدقيق المترتب على الجباية الحازمة للضرائب الجمركية.

ومع ذلك ، ورغم الخرق المستمر لمعاهدات السلام ، فإن الطرفين كانا يعملان جهدهما لمعالجة هذا الضرر ، وخلق جو مناسب للتجارة ، بتقديم كل طرف للآخر الضمانات الضرورية .

وهذه الوثائق تكشف لنا فى نفس الوقت أن الحكومة الموحدية ، وهى تقرر

---

(١) وقبل ذلك بخمس سنوات أى سنة ١١٨١م ، كان البيزانيون أنفسهم ضحايا أعمال الموحدين ، وكانوا يطلبون من هؤلاء الأخيرين احترام المعاهدات وان تكون عقوبة المخالفين منهم ، كما لو كانوا ممن الرعية البيزانية . أمارى ، رسائل عربية ، رسالة من الأسقف ومن قناصل بيزه الى أبى يعقوب يوسف ، النص ، ص ٩ . ونحن نمتلك عدداً كبيراً من الرسائل وان كانت تالية لعهد المنصور ، حيث كان المغاربة بدورهم يشتكون من أعمال القرصنة البيزانية . وفى رسالة مؤرخة بسنة ١٣٠٠م ، كان من يسمى عبدالرحمن ، وهوناظر الديوان (الجمرك) بتونس يطلب التعويض عما أصابه من أعمال عدوانية فى ميناء تونس . أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٢٣ وما بعدها . ومثل ذلك تلك الرسالة الصادرة باسم السيد عبدالرحمن بن أبى حفص فى تونس ، والتى تذكر البيزانيين باعمال العنف العدائية التى ارتكبت بالمخالفة لمعاهدات السلام السابقة . أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٣٣ ، وما بعدها.

حقها فى التعويض لمصلحة رعاياها عندما يكونون ضحية أعمال عنف من جانب النصارى ، كانت تأخذ بمبدأ خطير بالنسبة للحرية الشخصية لكل فرد من أعضاء جالية التجار فى الأراضى الموحدية . هذا المبدأ يتمثل فى المسئولية الجماعية بالنسبة لأعضاء الجالية التجارية . ففى حالة دفع تعويض الى المغاربة ، يكون جميع التجار من مواطنى المعتدى مسئولين معه ، ويجب عليهم دفع المبلغ من ممتلكاتهم ذاتها . ويبقى عليهم بعد ذلك مهمةتسوية الحساب مع مواطنهم ، إما على حاسب أمواله ، أو عن طريق مساهمة السلطات المسئولة (فى الجالية)(١) .ومع ذلك فقد كانت المسئولية الشخصية معترف بها فى الحالات البسيطة مما يختص بعدم التمسك بالاتفاقيات التجارية (٢) .

أسلوب جباية مكوس الجمارك:

كان بالموانى الموحدية حيث كان للمراكب المسيحية الحق فى الرسو ، إشراف جمركى دقيق التطبيق – فقد كان على المراكب التجارية الوافدة ان تقدم الأوراق الضرورية . وهنا نعرف ان شهادة سنة ١١٨٦م التى أعطيت للبيزانيين كان من ٥ (خمس) نسخ ، أربعة منها صادرة الى الموانى الموحدية الأربعة التى يهمها الأمر ، والخامس كان يحفظ فى ديوان بيزا (٣) .

من كان المسئول عن تقديم النسخ الأربعة الى السلطات الموحدية ؟ التجار أنفسهم وهم ينزلون بضائعهم أو وكلاؤهم فى تلك الموانى . وربما كان من

(١) لتقدير قيمة التعويض عن الخسارة ، كان يعهد بالأمر الى قاضى المدينة ويعاونه جماعة المحكمين من المشايخ . وكان القاضى يدعو من يهمهم الأمر والشهود فى المسجد الجامع ، وكانت الإجراءات تقضى بقسم من يهمهم الأمر عن القيمة الحقيقية للخسارة . وفى النهاية تأتى المصادرة للمبلغ المطلوب بمعرفة الحكومة ، نقداً أو عينا ، للتعويض . أمارى ، رسائل عربية ، رسالة سنة ١٢٠٠ ،النص ، ص ٢٦ .

(٢) أمارى ، رسائل عربية ، رسالة سنة ١١٨٦م ، النص ، ص ١٧ .

(٣) أمارى ، رسائل عربية ، النص ، ص ٢١ .

المحتمل ، بسبب عدد السفن الكبير ، وتضاعف عمليات المبادلة والبيع والشراء ، ان تبقى تلك النسخ بين أيدى الوكلاء الدائمين بالمدينة . وكانت ضريبة الديوان الجمركى المأخوذ عن البضائع المباعة للمغاربة تعادل العشر من ثمن البيع ، كما كان المعتاد فى ذلك الوقت (١) . ومع ذلك فقد كانت العلميات التى تتم بين أعضاء الجالية ، وكذلك البضائع الواردة برسم اعادة التصدير ، معفاة تماما من الضرائب(٢) . أما فيما يتعلق بالتصدير بشكل عام ، فقد كانت عملياته خاضعة لضريبة ٥ (خمسة) بالمائة . أما الاعفاء التام من الضرائب فكان يطبق على المعادن الثمينة والجواهر (٣) .

موقف جزر البليار:

رغم الأعمال العدائية الحامية بين بنى غانية ، أمراء ميورقة ومينورقة ، والموحدين على عهد المنصور ، فإن التجار الايطاليين كانوا يراعون نهج سياسة سلمية مع هذا الطرف أو الآخر . ويفسر ذلك برغبتهم فى تشجيع التجارة . وبفضل سياسة الحياد الصارمة هذه – وكان ذلك موقفهم دائما – تمتعوا بامتيازاتهم الاقتصادية فى بلاد أولئك وهؤلاء . وان اتفاقية السلام والتجارة المعقودة بين السيد الفقيه : أبى ابراهيم اسحق بن محمد بن علي ، وممثل بيزا ولوكه (فى أول يونيه) سنة ١١٨٤م تظهر وكأنها اتفاقية سلام بمنتهى البساطة ، من أجل تشجيع المبادلات التجارية بين البلدين . ففى هذه الرسالة لا تذكر إلا الضمانات المتبادلة ذات الطبيعة التى تحقق الأمن للأشخاص والحرية للتعاقدات التجارية . وتنص الاتفاقية فوق ذلك على واجب البيسانيين على

---

(١) نفس المصدر السابق .

(٢) نفس المصدر السابق.

(٣) دى ماس – لاترى ، معاهدات سلام ، ص ١٠٧ . وكان الأمر كذلك فى مصر حيث كانت "اللآلىء ، والأحجار الثمينة ، والفراء الراقية معفاة تماما من الضريبة" . هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق فى العصر الوسيط (بالفرنسية) ، ص ٤١٢ .

الحفاظ على الحياد المطلق بالنسبة للأعداء من بنى غانية (١) . ومن المحتمل ان يكون هذا المصطلح يعنى الموحدين ، أعداء بنى غانية الوحيدين فى ذلك الوقت : والحقيقة ان هؤلاء كانوا مرتبطين بمعاهدات سلام مع الايطاليين الآخرين ، مثل الجنويين (٢) . وان غياب كل إجراء تجارى صرف ، مثل : ضرورة دفع ضريبة الجمارك ، تدل على الاعفاء الجمركى من الضريبة الذى كان يتمتع به البيزانيون . وهذا الإجراء كان يحمل فى ثناياه نتائج سياسية طيبة بالنسبة للميورقيين ، الذى كانوا يستطيعون تحديث علاقات مع الخارج ، وتقوية مركزهم السياسى على المستوى الدولى (٣) .

والخلاصة التى يمكن الخروج بها من هذه الدراسة عن الموقف الاقتصادى للدولة الموحدية ، وعلى وجه الخصوص على عهد المنصور ، تتمثل فى ان الغرب الاسلامى عرف بشكل عام فترة ازدهار لا نظير لها في السابق .. فافريقية كانت تعبر ، بعد سنوات مضطربة بفضل غزوة البدو ، فترة هدوء نسبية ، وذلك رغم ثورة بنى غانية والامتحانات الصعبة التى عانت منها بعض المدن الكبيرة . وفى فترة الهدوء تلك عرفت حالة الازدهار وقتئذ . وبعد قرن من هذا الوقت يرسم العبدرى لوحة لافريقية والمغرب الأوسط فى غاية السوء (٤) ، إذا ما قورنت بفترة الموحدين ، وهكذا يكون العمل البنائى الذى قام به هؤلاء قد سلط عليه الضوء بشكل يبرز مزاياه . أما المغرب ، نواة الدولة

(١) أمارى ، رسائل عربيه ، النص ، ص ٢٣٣ . والرسالة واضحة جدا بالنسبة لهذه النقطة ، فهى تطلب من الايطاليين التوقف عن كل عمل يمكن ان يفسر كمعونة للأعداء الميورقيين ، مهما كان شأنه ، بالقول أو العمل ، بالرجال أو المال.

(٢) دى ماس – لا ترى ، معاهدات سلام (بالفرنسية) ، النص اللاتينى ، ص ١٨٩ وما بعدها.

(٣) انظر د.فرانسسكو كدويرا ، اضمحلال ونهاية المرابطين فى اسبانيا (بالاسبانية) ، ص ١٧٦ – ١٧٧ .

(٤) الرحلة .

، فقد عرف هو الآخر على عهد الموحدين الأوائل سلاما أكثر استقراراً مما كان عليه فى افريقية . وهكذا امتدت هيمنته حتى المجالات الاقتصادية . وبذلك تمتع هو أيضا بازدهار لا نظير له ، فى : الأسواق الداخلية العديدة ، والمبادلات بين مختلف الولايات ، وبين هذه والعالم الخارجى ، وكل تلك الأمور كانت نتيجة طبيعية للازدهار الاقتصادى لا فريقيا الشمالية . أما عن الأندلس فالظاهر والمفترض ان يكون لها مكان خاص بها . وهنا تكون الأمورالاقتصادية قد تركت المجال للأمور العسكرية . فقد كانت الاندلس وقتئذ الثغر الشمالى . وحقيقة ان الايطاليين ، على عهد المنصور ، لم يكونوا يستطيعون القيام بعمليات تجارية هناك ، دليل كاف على ان أسواقها لم تكن ذات بال ، وهذا يوضح ان مقدرتها الاقتصادية كانت ضعيفة الى حّد ما ، وانها كانت قد تقلصت عما كانت عليه فى الماضى .

القسم الرابع

الحياة الدينية والفكرية والحياة الفنية

الحياة الدينية والفكرية

إن النهضة السياسية التى عرفها الاسلام فى الغرب على عهد الموحدين الأوائل كان يواكبها تقدم فى المجالات الفكرية . وهكذا لم يكن المشرق وحده صاحب السيادة الفكرية فى عالم الاسلام . ففى الاندلس والمغرب كانت نجوم أخرى قد ارتفعت وهى لا تكتفى بمراكز التوابع ، فكانت أضواؤها تنتشر حتى العالم المسيحى .

وكان التقدم الفكرى فى الغرب الاسلامى يتسم بالصفتين المميزتين للعصر الموحدى ، وهما : هيمنة الروح الدينية وافتقاد التخصص . فالفلسفة والأدب والفن ، كل ذلك كان خاضعا لخدمة "العقيدة الحقة" . ويكفى النظر فى أحوال بعض ا لوجوه الكبيرة فى ذلك الوقت للاقتناع بافتقادهم التخصص ، من حيث كان المفكر الكبير فى نفس الوقت : رجل دين وفيلسوفاً وطبيباً وكذلك أديباً .

الحياة الدينية:

قبل التعرض للحركة الدينية على عهد يعقوب يحسن ان نقول كلمة عن الحركة الدينية التى قام بها ابن تومرت ، والاصلاح الدينى الذى قام به فى افريقيا الشمالية . والمعروف فى الاسلام انه لا يصح تغيير سياسى بدون أساس دينى ، فالدين يمتزج بالسياسة ومذهب الدين الحق يتداخل مع مبدأ الحكومة المثالية . ولكى يحقق ابن تومرت هدفه كان عليه أن يحقق ٣ (ثلاثة) شروط رئيسية ، هى : مهاجمة الأفكار الدينية السائدة وقتئذ بالمغرب ، والانكباب على البحث عن العقيدة الصحيحة ، ثم تعيين إمام أو رئيس للجماعة ، جدير بأن يقوم بأعباء وظيفته . وهنا نشير الى ان الظروف المواتية ساعدت ابن تومرت ، وهو يسعى الى تحقيق هدفه .

فعلى عهد المرابطين كان المذهب المالكى صاحب ، السيادة فى المغرب والأندلس . وفى حرصهم الشديد على الحفاظ على وحدة دولتهم السياسية ، وقفوا ضد الاختلافات الدينية التى يمكن ان تؤدى الى الانقسامات السياسية . وأدى الاهتمام بدراسة الفروع فى المذهب المالكى الى الغلبة على دراسة السنة النبوية وحتى على القرآن (١) . وهكذا لم يكن من الغريب ان تلتهم المحرقة أهم أعمال واحد من مفكرى العصر ، وهوالغزالى صاحب كتاب احياء علوم الدين . وكان الخضوع التام للمذهب المالكى يؤدى الى التفسير الحرفى للقرآن ، وبالتالى الى التجسيم . وضد هذا التفسير اتجهت دعوة محمد بن تومرت الدينية . ففى نظره – وعلى عكس رأى كل من سبقه فى محاولة التجسيم – اعتبر المجسمة كفاراً لا يختلفون عن غيرهم من الكفار ، الذين هم اليهود والزنادقة (الهراطقة) والمسيحيين ، وان واجبه هو ان يعيدهم الى الدين الحق . وفى ذلك رأى ان واجب حرب المجسمة (المرابطين) كان ضروريا مثل جهاد الكفار (٢) . وهكذا كانت البداية للحركة الموحدية .

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٢٣ .

(٢) كتاب ابن تومرت ، النص ، ص ٢٦٤ وما بعدها . وهنا نرى أنه رغم ظهور ابن تومرت عقلانيا فى عدد من النقاط ، فإنه يظهر فى هذا الموضع بمظهر السفسطائى . فهو فى الفقرات التى يهاجم فيها المرابطين بصفتهم مجسمة ، ولكى يثبت فساد اعتقاداتهم وكذلك حكاماتهم ، فإنه يستخدم حججاً لا معنى لها . فهو يرى علامات خاصة تبين سمات عصرهم الفاسد ، ومنها : ما عرفوا به من قبل ملكهم فى المغرب ، مثل : العرى أو ما يشبهه ، وأرجلهم الحافية ، معاشهم الفضولى ، حياتهم الرعوية ، وجهلهم بأمور دينهم الشرعية ، وعلامات أخرى تظهر فى أمور حكومتهم ، مثل : إقامتهن المبانى العالية ، وانجابهم من عبيدهم ، وانهم ليسوا أهل ثقة ، لا يعرفون العدل ، وأخيرا فإن ملكهم محاط بالفخامة والافتخار ، وكل ذلك من علامات يوم القيامة كما يري ابن تومرت .. ثم هناك علامات أخرى تتعلق بتصرفاتهم، منها : استخدام السوط الذى يشبه ذيل البقرة ، ويعذبون الناس ، ونساؤهم النصف عاريات ، يصففن شعورهن فوق رؤسهن . ومن أجل تأكيد رأيه استخدم ابن تومرت عدة أحاديث موضوعه. وفي النهاية فهو يهاجم عادة المرابطين فى ارتداء اللثام. ويقول الم يقل الرسول " لعن الله النساء المتشبهات بالرجال ، والرجال المتشبهين بالنساء" (كتاب ابن تومرت ، ص ١٥٨ وما بعدها .

ومن أجل البحث عن المذهب الصحيح عرف ابن تومرت كيف يستفيد من رحلته العلمية فى المشرق حيث تأثر بالمدارس السائدة هناك والتى كان للمدرسة الأشعرية بينها مكانة عالية (١) . وفى البداية كان كل مذهبه – ببساطة شديدة – هو "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" (٢) . وسار ابن تومرت على طريق المعتزلة واتخذ من هذا الواجب الدينى أساساً لمذهبه(٣) . ومن أجل منع المنكر ، كان يجب العودة بالاسلام الى نقائه الأول ، وذلك بالرجوع الى القرآن وحده ، والأحاديث النبوية حسب مبادىء الظاهرية . وتمسكا بهذا المنهج ، ومن أجل تفادي التجسيم ربما انقاد ابن تومرت وراء

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٣٤ ، المقريزي ، الخطط ، ج٢ ص٣٤٣ ، ٣٥٨ ، ماكدونالد (د.ب) ، تطور اللاهوت الاسلامى ، ص ٢٤٥ – حيث "وفضل الأشعرى أنه يقف فى الوسط ، بين سذاجة التقاليد القديمة (خشونتها) ، والفلسفة النظرية ، فهو يقول ان الله يمتلك كل صفاته ولكن تلك الصفات أكبر من ان تقارن بالصفات الانسانية ، ابن عساكر ، Expose´ de la referme de l´islamisme ، النص ، ص ١١٢ ، ١١٣ ، الترجمة ، ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٢) وحسب الغزالى (المدرسة الأشعرية) ، فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يتم على أربعة مراحل ، هى : ١ – التعليم ، ٢– التحذير أو الدعوة ، ٣ – توجيه غليظ الكلام ، ٤ – المنع بالقوة . ولكن رجل الدين الكبير يقدم التحفظات على ذلك ، ففيما يتعلق بالأمراء لا يجب تطبيق الا المبدأين الأولين . ويجب الحرص أيضا فى تطبيق المبدأين الآخرين ، فإذا رأى ان ذلك يؤدى الى الفتنة التي تضر نتائجها بالآخرين ، فهو أمرغير مقبول ، أما اذا لم يتعد الضرر شخصه فإنه لا يكون مقبولا فقط بل واجبا أيضا . فقد قال النبى : المرضى عنهما من الشهداء ، هما : حمزة بن عبدالمطلب ، ورجل يواجه يواجه أميراً ، فيأمر بالمعروف وينهى عن المنكر باسم الله وحده ، والذى يقتله الأمر عندئذ (الغزالى احياء علوم الدين ، ج٢ص ٣٠٠).

(٣) جولدزيهرم ، مقدمة لكتاب ابن تومرت ، ص ٦٢ ؛ وقارن ، المسعودى ، المروج ، ج٦ ص ٢٩ ، ٣٠ .

الغزالى الى الأخذ باسلوب الأشعرية فى تأويل النصوص الدينية الاسلامية (١) . وفى النهاية أعلن مذهب التوحيد (أى الوحدانية) ، وهو الاصطلاح الذى استعاره من نظرية المعتزلة (٢).

والى هنا لم يكن مذهب ابن تومرت يبتعد عن السنّة . وذلك أنه فى المرحلة الثالثة من مشروعه ، عند تعيين إمام، بدأ فى الابتعاد عن السنة . فعندما أراد تحقيق طموحه السياسى – حيث كان يشتهى اللقب لنفسه – اتخذ اللقب الشيعى "الإمام المعصوم" (أى الذى لا يخطىء) . وترتب على ذلك أنه كان عليه ان يتخذ أيضا نسبا يربطه بالإمام علي (حتى يصبح من الأشراف : آل البيت)(٣) . وهكذا وجد نفسه فى تضاد ليس فقط مع مذهب معين بل مع كل مذاهب أهل السنة ، من حيث إبطال الاجتهاد (٤) ، الذى لم يعدله لزوم مع وجود إمام معصوم يرجع اليه فى كل الأمور : كبيرة كانت أم صغيرة . ومن بين أسباب هذا الانحراف الدينى يجب ان نذكر فوق ذلك الأحوال الاجتماعية المتدنية التى تنشرالجهالة والتى أضفت مع المذهب الجديد

(١) جولدزيهر ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٩ .

(٢) انظر كتاب ابن تومرت ، ص ٢٠٦ ، ٢٤٠ . والحقيقة ان المعتزلة أعطوا هذا الاسم (التوحيد) لتعريفهم لفكرة الله ، وحسب تصورهم للصفات الإلهية . وهم عبروا بذلك عن تقديمهم لفكرة الوحدة الإلهية الأزلية ، فلم يعترفوا أبدا بوجود الصفات الازلية المرتبطة بالذات الإلهية ، حيث رأوا ان الاعتراف ، بالصفات يعنى الاعتراف بالشرك وتعدد الذات الأزلية . جولدزيهر ، مقدمة لكتاب ابن تومرت ، ص ٥٥ . قارن المسعودى ، المروج ، ج٦ص٢٠ – ٢١ ، المقريزى ، الخطط ، ج٢ص٣٤٥ .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ١٢١ وهـ٢ . ولكن هنا يحسن الاشارة الى أنه رغم اتخاذه الإمامه الشيعية بالشكل فإنه كان حريصا على عدم الخروج عن السنة وقبل أن يعرّف الإمامة بالشكل الذى يعرفه الشيعة ، اعتنى بالتذكير بأن كلا من أبى بكر وعمر كان إماما حقا . وهنا يتضح انه يجتهد فى التوفيق بين السنية والشيعية – قارن . كتاب ابن تومرت ، ص ٢٤٨ ؛ والحقيقة ان انكار الاجتهاد كان يعنى نهاية علم كتاب ابن تومرت ص٤٠ .

(٤) قارن كتاب ابن تومرت ، ص ٢٥٢ : حيث انكار الاجتهاد ، مقدمة كتاب ابن تومرت ، ص ٤٠ .

سمات من الغيبيات السرية والتنبوءات والكرامات أوالمعجزات (١).

ذلك كان عن الحركة الدينية على عهد ابن تومرت ، فالقاعدة مبنية على التوحيد ، المؤلف من تكوين متباين ، تختلف توجهاته ما بين السنية والشيعية ، مقتبساً العناصر من كل المذاهب من: اشعرية وظاهرية ومعتزلية ، الأمر الذى أدى الى تناقضه مع كل تلك المذاهب بالنسبة لكثير من النقاط . ولكن تلك الحركة تحورت على عهد المنصور . فعلى عهده ستظهر بعض التجديدات ، من : جريئة فى بعض الأحيان ، وخجلة متردده فى أحيان أخرى.

موقف المنصور من غير الموحدين:

يبدأ التغيير فيما حدث اختلاف بين فى الموقف القانونى الذى ينظم العلاقة بين الموحدين وغيرهم . وبدأت بوادر هذا التغيير منذ وفاة محمد بن تومرت . ففى نظر هذا الأخير ، كان كل من ليس من الموحدين معتبرا من الكفار ويجب إعادته الى الدين الحقيقى أو قتله بالسيف . وعلى عهد يعقوب لم يكن الأمر كذلك، حيث كان وجود غير الموحدين مسموحا به بناء على موقف قانونى محدد ، وان كان حقيقة يشوبه الغموض كما كان عرضة للتغيير . فغير الموحد كان يمكن ان يكون كافراً بمعنى الكلمة أومسلما زنديقا حسبما تقضى حالة السلم أو الحرب أو درجة الكفر . فالعلاقات مع الكفار كانت مبنية على معاهدات السلام التى عادة ما كانت محددة الشروط والمدة بينما كان الامر بالنسبة للمسلمين الزنادقة يمكن أن يرتب ذاتيا (دون تداخلات) ففى وقت الحرب كان الموقف يصبح أكثر اختلاطا ، ولكن كا ن

---

(١) انظر القرطاس ، ص ١١٤ وما بعدها ؛ هذا ، ويقول عبدالواحد المراكشى ان ابن تومرت كان على أيامه لا نظير له فى "ضرب الرمل" ، الى جانب ما كان قد تعلمه فى المشرق من التنبؤ ومعرفة الغيب بالشئون العامه ، بناء على حساب النجوم – المعجب ، ص ١٣٠ ، الترجمة ، ص ١٥٦ . وقارن : أ.دوتيه ، هامش على الاسلام المغربى ، ص ١١ .

على الحرب أن تدفّع الى آخر مدى . ودائما ، وبفضل الله ، ما كان العدو يدمّر ، وأمواله تؤخذ غنيمة ، وتسبى نساؤه وأطفاله ؛ ويقتل رجاله بحد السيف . . ولكن هذا الشرط الأخير ، وهو الموحدى بشكل مميز ، عدّل بجرأة الى شكل مخفف على عهد يعقوب . فلم يعد الأمر يقضى بعدم أخذ أساري من المسيحيين ، بل ذهب الى حدّ تحريرهم بعد الأسر . وهنا يصبح الأمر سياسة مملاة تفرضها الظروف على الأمير ، الذى عرف بأنه كان أكثر تعصبا من سابقيه . فقد كان يمكنه الاستفادة من القوة العضلية للأسرى فى دفع مشروعات المعمارية الى الأمام ، من بناء المساجد والقصور . والاستحكامات . وهكذا ، ومن أجل تشييد الابنية المعمارية الدينية ، لم يكتف فقط باستخدام الأموال من خمس الغنائم المأخوذة من الكفار (١) ، بل أيضا وسواعد هؤلاء الأسرى(٢) . وهنا يدخل فى الأمر عامل نفسى هام . فمن جهة أخرى ، كان قتل الأسرى المسيحيين يعني المغامرة بتحمل الثأر لمثل هذا العمل من الجانب المنافس ، بينما كان الحفاظ على أرواح الاسرى الكافرين يعنى عندما يأزف الوقت الحفاظ على أرواح الأسرى المسلمين . وفوق ذلك فإن إعفاء المسيحيين من العبودية – وهوالعمل الجرىء الذى كان لا يستسيغه رجال ذلك العصر – كان يعنى استنقاذ الأوراح المؤمنة من عذابات العبودية .

ولقد عرف تصرف المنصور إزاء غير الموحدين هو الآخر نوعا من التذبذب . ان المذهب الذى يفرض على هؤلاء معاملة الكفار كان لا يزال سارى المفعول ولكنه لم يكن مطبقا إلا على المرابطين المتمردين . فكفرهم الذى لا علاج له

---

(١) القرطاس ، ص ١٥٣ .

(٢) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٣ والترجمة ص ١٨ ، ١٥٠ – حيث ارسال اعداد من أشراف الكفارللعمل فى بناء جامع سلا الكبير ، الى جانب أسرى الآرك (ألاركوس) (السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٨٠) .

كان يجعلهم مستحقين لعقوبة القتل (عقوبة العدالة الإلهية) (١)، فكانوا فعلا يقتلون بالسيف .

الإشراف على الأعمال الدينية:

إذا كان الأمير قد ظهر سياسيا محنكا إزاء غير الموحدين ، فإنه ظل حازما عنيدا إزاء الموحدين . فبالنسبة للمنصور ، الورع ، الناسك ، كانت العقيدة الحقة تبرر كل الوسائل . فبصفته رئيسا للدولة كان مسئولاً أمام الله عن الحالة الدينية فى النظر والتطبق ، كما كان مسئولا أمام الله بصفته راعيا لقطيعه . هكذا طبق ببساطة مبدأ "الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر" بدقة لا تعرف الرحمة . ولما كان إماما للصلاة ، فإنه املى على رعيته الصلوات الخمس اليومية ، وتابع غير الممارسين لها(٢) . وهكذا أم بالنداء بالآذان فى الأسواق وعاقب دون رحمة ، المقصرين(٣) . وأمر بالبدء بقراءة البسملة قبل قراءة الفاتحة . وأمر بأن ينتشر هذا التقليد فى كل الأقاليم الخاضعة لحكمه (٤) . وفيما يتعلق بالجرائم المنصوص عليها فى القرآن طبق الحدود كما هى ، حتى على أفراد أسرته(٥) . وبلغ الأمر أنه فى حماسه فى تطبيق النهى عن المنكر ان تجاوز الحدود المنصوص عليها . فبعد فترة قليلة من ولايته ، منع شرب كل

---

(١) رسائل رسمية موحدية ، ص ٢٠٧ ، الدراسة ، ص ٦٣ .

(٢) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٧٥ الاستقصا ، ج١ص ١٨٢ .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ص ٣٨٠، الاستقصا ، ج١ص١٨٢ .

(٤) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٧٥ . وكان لهذا الرسم أهمية كبيرة فى قراءة القرآن ، فالبسملة تبدأ بها جميع السورالقرآنية ، سوى واحدة فقط وهى سورة Celui de la Conversion . "عندما ارسلت هذه الكلمات من السماء ، هربت الغمامات الى ناحية المشرق ، وهدأت الرياح ، وخمد البحر ، ورفعت الحيوانات آذانها ، وانطلقت الشياطين من إفلاكها السماوية.. الخ" . قارن القرآن ترجمة فرنسية بمعرفة Sarary ، ص ١١٣ وهـ٢ .

(٥) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٧٥ ؛ ابن الأثير ، ج١١ ، ص ٣٣٢ .

مشروب روحي حتى الرُّب (عصير العنب المطبوخ)(١) ؛وفي سبيل احترام هذا المنع اتخذ اجراءات قاسية جدا ، تصل الى حد الحكم بالإعدام (٢) . وفرض مثل هذه العقوبة أيضا حتى على الولاة الذين تشكوهم الرعية (٣) . كل هذا يعبر عن روح حادة وحازمة .

فكرة الإمام:

فيما يتعلق بعقيدة عصمة الإمام – وهى النقطة الوحيدة التى تبعد ابن تومرت عن السنة – يجب الاشادة بعبدالمؤمن ، الذي امتنع عن حمل هذا اللقب المشتهى من قبل المهدى ، واكتفائه بلقب "خليفة الإمام"(٤) . وحافظ كل من عبدالمؤمن وابنه يوسف بحرص لابن تومرت بهذه التسمية .ولكنه على عهد المنصور أخذت الأمور مساراً آخر . فعبدالواحد المراكشى(٥) .يؤكد أن يعقوب المنصور لم يكن يعتقد فى العصمة ، وأنه أنكرها على مؤسس الدولة الموحدية ، وان القيام بالزيارة (الحج) الى تنملل حيث يوجد قبره ، لم يكن الا تدبير يهدف الى إرضاء رغبة دينية عزيزة على جمهور البربر . ومع ذلك فيمكن القول ان الأمر ربما لم يكن كذلك : فإذا كان يعقوب ينكر الإمامة على ابن تومرت ، فألم يأخذها هولنفسه ؟ وعلى هذا الأساس يمكن تفسير تمسكه بإقامة العدل ، ونشر الخير ، والجهاد ضد الشر ؛ وفى نفس الوقت أيضا ما قام به من تجاوز حقه فى اختراق القوانين الشرعية ، والحكم

(١) خطابات رسمية موحدية ، ص ١٦٢ ، الدراسة ، ص ٥٧ .

(٢) ابن خلكان ، ج٣ص٣٨٠ (السلاوى، الاستقصا ، ج١ص١٨١ .

(٣) نفس المرجع السابق .

(٤) وهنا تحسن الاشارة الى ابن عبدالمؤمن تلقى فى سنة ٥٤٧ هـ / ١١٥١م ، اثناء حصاره لتلمسان ، رسالة من أحمد بن قِسيّ ، أمير مَرْتُلَّة بالاندلس ، يصفه فيها المرسل بلقب المهدى ، غضب عبدالمؤمن غضبا شديداً ، وامتنع عن الردّ على الرسالة . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص ٢٣٤ ، الترجمة ، ج٢ ص١٨٤ .

(٥) المعجب ، ص ٢١٠ ، ٢١١ .

بالموت على أصحاب بعض الجرائم التى لا تستحق حسب النصوص الدينية إلا عقوبات أقل من ذلك .

الظاهرية مذهب رسمي:

إن انكار الإمامة على ابن تومرت قد تعنى فى الحقيقة عدم الاعتقاد ببعثته الاصلاحية . وهكذا لا يكون من الغريب ان تشاهد فى تلك الظروف ، على عهد يعقوب ، تغييرات مذهبية هامة جدا .

ورغم ان المذهب ظل كما هو فى خطوطه العريضة ، فإنه تأثر بتعديلات فى المضمون وفى الشكل أيضا . وكان ذلك التطور راجعا الى حدّ كبير للأمير نفسه . فحسب تعاليم ابن تومرت كا ن الرجوع الى القرآن وحده والى الحديث ، وليس الى أى نصوص ثانوية أخرى (١) . وهكذا فإن التفسير الحرفى للنصوص أبعدته بالتالى عن تعاليم ابن تومرت ، وعن هذا الطريق انتهى به الأمر الى اتباع مذهب أهل الظاهر (٢) . وهذا المذهب يعلن أنه لا مكانة للعقل تقريبا فى أمور الدين ، وهكذا كان على الرأى أن يختفى ، والإجماع ان يحدد فى صحابة النبى وحدهم ، بمعنى أنه لا يجب اعتبار إلا القرآن والحديث كمصدرين للتشريع ، وعلى شريطة تفسيرهما حرفيا (أى ظاهريا)(٣).

---

(١) أمر يعقوب الفقهاء بالحكم حسب نصوص القرآن والحديث ، والا يرجعوا أبدا الى فتاوى المجتهدين (من أصحاب مذاهب أهل السنة) ابن خلكان، ج٣ ، ص ٣٨٠ .

(٢) ابن الاثير ، ج١٢، ص٩٥ .

(٣) قارن ابن حزم ، الفصل ، ج٢ ص ١٢١ ؛ الشهرستانى ، الملل ، على هامش ابن حزم ، ج٢ص٤٥ ؛ ابن خلدون ، العبر ، ج١ص ، ٣٧ . وفوق ذلك فإن المنصور كان من المعجبين بالظاهرى الكبير ابن حزم . فهو عندما عبر منطقة شلب ، زار قبره ، وصاح قائلا : من العجيب ان يكون هذا البلد مسقط رأس مثل هذا العالم ذات يوم .. ثم انه قال ، وهو يحادث ابن مجبر ، شاعر البلاط ، كل العلماء يعيشون (عيال) على ابن حزم ، كما الشعراء عيال عليك ، يا ابن مجبر (المقرى ، ج٢ ،ص ٨٠٣) .

وهكذا يفهم كيف ان المذهب المالكى ، الذى كان مزدهرا من قبل ، أصبح مطارداً بدون شفقة . وهكذا انتهى علم الفروع (التطبيقات الشرعية) ، وأصبح موضع اشفاق بالنسبة للفقهاء ، كما أمر باحراق كتب المذهب المالكى ، بعد انتزاع صفحات الحديث النبوى ، والآيات القرآنية منها (١) .

ولكنه إذا كان المذهب الظاهرى كان رسميا مذهب الدولة الموحدية على عهد المنصور ، فإنه لم يكن كذلك فى الأمر الواقع .. فالمالكية كانت قد ضربت بجذورها عميقا فى أرض افريقية ، كما فى الأندلس . فللتخلص منها ، لم يكن يكفى لازالتها مجرد خط قلم ، أو إملاء مذهب ابن تومرت أو المذهب الظاهرى مع الاستعانة بالترهيب والتخويف . فالمالكية كانت تتحصن خلف ما يقرب من أربعة قرون من الحياة جعلها تلتصق بالأرض بشكل يمنع من إزالتها . وهكذا كان على المذهب الظاهرى ، الذى دخل البلاد قريبا ، أن يتعايش مع الأرض الجديدة ، وهكذا كان الجرمية ، وهم الظاهرية على عهد المنصور ، أتباع أبى محمد بن جَرْم ، من اتباع المذهب المالكى ، وهو الأمر المستغرب(٢) . ويكفى استعراض سير كبار العلماء فى ذلك العصر ، وبرامج تدريس المدارس الكبيرة ، لكى نأخذ فكرة عن تفوق المالكية الذى لا يمارى . وهنا تقدم لنا فهرسة ابى الحسن علي بن محمد بن علي الرعينى معلومات ثمينة . فبينما تقدم لنا اسمين لعالمين ظاهريين(٣) ، فإنها تقدم من جانب

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠١ ، والترجمة ، ص ٢٤١ ؛ ابن الآبار ، التكملة ، ج١ص٢٧٨ .

(٢) ابن الأثير ، ج٣،ص٩٣ .

(٣) ان المحدث الاندلسى أبا على عمر بن أحمد بن عمر بن موسى الأنصارى ، المعروف باسم ابن الوزير (ت٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ - ١٢٢٨ م) كان ظاهريا مخلصا لا يقلد أى مذهب (ورقه ١ -ب) .(ابن الابار ، التكملة ، رقم ٥١) . وكذلك القاضى ابو القاسم أحمد بن أبى الوليد بن بَقِي تنحى عن المذهب المالكى ، ودخل فى المذهب الظاهرى مع ابن حزم (ورقة ١١ -ب) .

آخر عددا كبيرا من الأنصار المتعصبين للمذهب المالكى (١) ، ومن جهة أخرى فإن الأمر الصادر بشأن الغاء علم الفروع ، وتدريس المالكية لم يحترم أبداً والظاهر يدل على أن هذا الفرع من العلوم الشرعية كان مجالاً خصبا للمناقشات بين العلماء ، وهكذا كان الفقيهان : أبو العباس بن جهور الأزدى ، وأبو الحسن بن زرقون ، مختلفين بشأن بعض مسائل الفروع فقام كل منهما بتأليف كتاب يدافع فيه عن وجهة نظره . ويقول الرعينى أن استاذه أبو محمد الجزامى الشلطيشى كان منصرفا تماما الى دراسة علم الفروع (٢) . وبدأت دعاية واضحة فى الأوساط العلمية لمالك بن أنس . وهكذاكانت دروس ابن جهور الأزدى ابو محمد بن عبدالكبير تمتلئ بالطلبة وأهل النخبة من الدراسين (٣) . وفى دروس الشيخ ابى عميرة بن صالح الحمدانى ، كانت تنشد أشعار أبى عبدالله الحميدى فى مديح علوم مالك :

ـ إذا سألنا من هونجم علم الحديث وسيده ، أشار الحكماء الى مالك.

ـ فهو الذى جمع شوارده وأضاء الأجزاء التى لولاه لبقيت فى ظلام حالك.

ـ فليفنى كل من هاجم علم مالك ، وكل من لا يأخذ من علمه فهو

---

(١) من بين هؤلاء يظهر الفقيه المالكى ابو العباس أحمد بن جهور الأزدى (ت ٦٢٩هـ / ١٢٣١م) (ورقة ٤ - أ). وقارن ابن الآبار ، التكملة رقم ٩٨٩). كان منصرفا الى تعليم الفقه حسب مذهب مالك. والفقيه المالكى : ابو الحسن بن زرقون (ت٦٢١هـ / ١٢٢٤م) كان مؤلفا لعدد من كتب الفقه ، من بينها يذكر كتاب المسمى بـ "ها كمَّلَ من كتاب تهذيب المسالك الى تحصيل مذهب مالك(ورقة ٧ - أ؛ وقارن . ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٩٦٧) حيث فقيهان مالكيان ، هما : أبو محمد بن عبدالكبير (ت سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م) والحاج أبو بكر بن خلف التجيبى (ت ٥٩٦ هـ/ ١١٩٩م) كانا هدفا لعقوبات شديدة ، من : الحبس ، والاعتقال والتعذيب (ورقة ٨ - ب) وقارن : ابن الآبار ، التكملة رقم ١٨٨١ ؛ ٨٥٩) . ويذكر الرعينى بين هؤلاء الفقهاء المالكية من الأساتذة ، أباعميرة صالح بن صالح الحمدانى (ورقة ٢٣ - ب).

(٢) الرعينى ، ورقة ٩ ب .

(٣) نفسه ، ورقة ٤ أ ، ٨ب .

هالك(١).

ويجب ان نشير أيضا الى أن الكتب التى صدر الأمر الخلافى ضدها والتى ألقيت فى النار فى مدينة فاس أمام عبدالواحد المراكشى ، مثل مختصر ابن زيد (٢) . والمدونة (٣) . كانت معروفة لدى الطلبة ، لم كانت من المقررات التى تدرس بعناية من قبل الاساتذة المختصين ، كما كانت موضوع المناقشات العلمية .

والى جانب المذهب الظاهرى ، وهو المذهب الرسمى ، والتدريس التقليدى لمذهب مالك ، كان للمذهب الشافعى وجوده المحدود ، فالرعيني يسمى عددا من الأساتذة الشافعية ، مثل : الحاج أبو الحسن بن هشام اللخمى الشريشى ، وابى الطاهر أسماعيل بن مكى بن عوف (٤) . والحقيقة إن قواعد الفقه الشافعى تتفق الى حد ما ، مع المذهب الظاهرى (٥) . وهكذا كان المذهب الشافعى موضع التسامح من قبل المنصور ، ولهذا السبب ، فعلى أواخر حكمه تقرّب من الشافعية وعينهم فى مناصب القضاة (٦) . ويمكن أن نرى فى ذلك أول اشارة الى الابتعاد عن مذهب ابن تومرت وكذلك مذهب الظاهرية من

---

(١) الرعينى ، الفهرسة ٢ المخطوط ، ورقة ٢٣ ب .

(٢) الرعينى ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ٧ب ، ٩ب .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ١٩ .

(٤) نفسه ، ورقة ٢٨ ب ؛ وقارن ابن الآبار ، التكملة رقم ٩٦٢ .

(٥) انها ترتب حسب أهميتها كالآتى : القرآن ، السنة ، الاجماع وتقبل القياس الى حدّ محدود جداً ، وهكذا فهى نفس الأصول المقبولة من يعقوب المنصور والشافعى يرفض الراى ، والاستحسان الحنفى ، والاستصلاح المالكى ، ولا يأخذ الا بالقياس (التعليل بالمشابهة) الذي يستخدم فقط فى الحالات التى لا يعالجها القرآن أو السنة أو الاجماع ، الأمر الذى يحدد دوره بشكل يكاد يلغيه . هـ.ماسيه ، الاسلام (بالفرنسية) ، ص ٩٥ .

(٦) ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٩٥ .

قبل المنصور والاتجاه نحو المذاهب التقليدية . ولكنه كان يجب انتظار عهد المأمون ، الخليفة الثامن ، لكى يتم فشل التوحيد تماما والظاهرية فى المغرب الأقصى ، والانتصار النهائى للمالكية .

دراسة القرآن والحديث:

لما كانت العلوم المتفرعة من القرآن والحديث موضع اهتمام المذهب الرسمى وتشجيع الأمير فقد ازدهرت تلك العلوم من حيث هى المصادر الايجابية والمادية للشريعة . وقراءة القرآن كانت أول مرحلة فى دراسة المصحف الشريف وكان يعلم لشباب الطلبة بسبع طرق (القرآت السبع) (١) ، وأشهرها قراءتان ، هما : قراءة ورش وقراءة نافع (٢) . وهناك عدد من كتب القرآت السبع التى كانت تدرس بعناية من قبل الاساتذة المتضلعين فى الموضوع . منها كتاب القرآت السبع لأبى عامر بن العلاء ، وكتاب البديع لأبى محمد قاسم المعروف بالزقّاق ، ومقدمة التجويد لأبى السباع الطحّان (٣) ، والمبادىء لابن سفيان ، والتبصره لمكىّ ، والهداية ، والموضح للمهذولى ، وجامع البيان لأبى عمر ، والجامع للتودسينى (٤) . وكانت عادة حفظ القرآن عن ظهر قلب منتشرة وخاصة بين الطبقة المثقفة ، وكان القائمون على ذلك التعليم يسمون "الحفاظ" . وكانت قراءة القرآن تتم فى البيوت كما في المساجد ، وكانت تعتبر نوعا من التضحية التى تجلب الرضاء الإلهى والبركة لكل من المكان ، والمقدم . وإن تطورهذه العاده هي التى أدت الى ظهور طبقة متخصصة فى

---

(١) الرعينى ، الفهرسة ، المخطوط ورقة ٢ب ؛ المراكشى ، الزيل ، المخطوط ، ورقة ٥أ ، ٣٩أ ؛ وانظر ابن الزبار ، التكملة ، ج١ص٦ ، ٣٩ ، ج٢ص٤٩٣ ، ٥٠٨ .

(٢) انظر الرعينى ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ١ب ، ٤ ــ ب ، ٥أ ، ٥أب .

(٣) نفسه ، ورقة ٢ب .

(٤) نفسه ، ورقة ، ٣ب ، ٥ب .

قراءة القرآن (١).

والكتّاب يتحدثون عن يعقوب كواحد من الحفاظ من الطراز الأول . إذ كانت ردوده على أفراد حاشيته عادة ماتكون باستشهادات من القرآن الكريم(٢) . هذا كما كان فى مواكبه يصحبه مصحفان أحدهما ينسب الى عثمان والآخر الى ابن تومرت ، والأول محمول على بغلة والثانى على ناقة . وفى قصره كما كان الحال فى حملاته العسكرية ، كان الأمير يحيط نفسه بالطلبة ، والحفاظ القادرين على القراءة السريعة للقرآن (٣) . وكان يقصد من ذلك الحفاظ على المعنويات العالية لرجاله .

وبالتوازي مع ذلك تقدم شرح القرآن الكريم هو الآخر . وكان ذلك العلم ضروريا لفهم آيات الكتاب ، التى كان من بينها "آيات متشابهات" ، وخاصة فى البلاد التى لم يكن لسان أهلها هو اللغة العربية ،للجميع . هذا كما سيقع التضاد مرة أخرى مع تعاليم المذهب الظاهرى . أن مقولة "الاعتقاد واجب ، والسؤال نوع من الزندقة" لا يمكن الدفاع عنها إلا بصعوبة شديدة فى الوقت الذى كان فيه علم التفسير يؤدى الى الدراسة العقلانية للنصوص الشرعية بحكم الضرورة . وكان هناك كثير من الأساتذة الذين كرسوا جهودهم لتلك الدراسة ، بينما كان عدد كبير من المؤلفات فى ذلك الموضوع ، تتداول بين

---

(١) ومن بين القراءيذكر الرعينى اسم الفقيه أبى بكر الرمالى (١٢أ) وأبو عمران مرسى الجذامى الجزيرى ، والحاج ابو الحسن بن هشام اللخمى الشريشى ، وغيرهم (ورقة ٤-أ ، ٥ - ب) .

(٢) فعندما أوصي أحد المقربين منه باستاذين لتعليم بعض ولده قال له إن أحدهما بُرّ (صلب) فى دينه" ، والآخر "بحر (غزير) فى علمه" واتضح له ان الأمر ليس كذلك ، قال للتابع "لقد ظهر الفساد في البر والبحر" (آية رقم ٤٠ سورة رقم ٣٠) . ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ ، الزركشى ، ص ١٠ ، الترجمة ص ١٧-١٨ . ومرة أخرى عندما اغتاظ من تحرشات ملك قشتالة ، يعقوب لا يجيب عليه إلا بآية من القرآن . انظر فيما سبق .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٨ ؛ الحلل ، ص ١٢٧ ، ابن الأبار ، التكملة.

أيدى الطلبة . وبعض هذه المؤلفات كانت تدرس الآيات المتشابهات ، وخاصة غريب القرآن لابن عُزيز (١) . وبعضها الآخر كان مخصصا للشرح العام ، مثل : الوجيز لابن عطية (ت ٥٤١ هـ / ١١٤٦ - ١١٤٧م) ، والكشاف للزمخشرى (ت ٥٢٨ هـ / ١١٣٣ - ١١٣٤ م)(٢) ، وكتاب أبى محمد بن عبدالكبير بن بقى الغافقى الذى يحوى التفسيرين السابقين (٣) . وكانت دراسة علم الحديث النبوى أيضا ، واسعة الانتشار . فكان ازدهار علم الحديث يأتى بطبيعة الحال على حساب علم القرآن . والحقيقة ان العلماء والأمراء ، كما كان الحال فى السابق ، يجدون فى الحديث مصدراً أكثر غنًى وأقل حساسية فى الدراسة ، وأكثر موافقة فى إرضاء مصالحهم الأنانية فى بعض الأحيان . فهنا لم تكن المواجهة مع نصوص موثقة تماما فكانت هناك حرية فى التصرف . وهنا كان يمكن ان يكون العمل على نصوص موضوعه ، بل ان البعض أيضا كان يصطنع - ربما بقصد أو بغير قصد - أحاديث أخرى غير صحيحة . ولدينا من ذلك بعض الأمثلة . فهناك الأحاديث التى لم يتردد محمد تومرت فى اعادة استخدامها من أجل تأييد هجومه على المرابطين ، واقناع أتباعه فى شروعية دعوته . ومن ذلك الحديث الذى يقول ان أهل المغرب سيكونون أعوان الحق حتى يوم الحشر (٤) . ومثل هذا يقال عن الاحاديث التى تحدثت عن الجهاد فى افريقية ، رغم ما هو واضح من اصطناعها أووضعها ، وهى التى نالت عناية مؤلف كتاب الاستبصار(٥).

---

(١) الرعينى ، الفهرسة ، المخطوط ، ورقة ٢ - ب.

(٢) نفسه ، ورقة٨ - ب .

(٣) نفسه ؛ اب الآبار ، رقم ٨٢١ .

(٤) كتاب ابن تومرت ، ص ٢٥٩ ، ٢٦٩ .

(٥) الاستبصار .

والتي ربما أعطت تفسيرا ، شرعيا الى حد ما ، لحالة الأضطراب كما كانت سائده فى تلك المنطقة لبعض الوقت .

وعندما أصدر يوسف الأوامر الى رجال الحديث بجمع كتاب منها يكون في خدمة المجاهدين (١) ، فيمكن التفكير أيضا فى أن يكون العمل قد تمّ فى جو تسوده نفس الروح التبريرية ومثل هذه المبادرة قام يعقوب بالتحريض عليها عندما أصدر الأمر الى الفقهاء بأن يعملوا له مجموعاً من الحديث مأخوذا من مجموعات الأحاديث العشر المعروفة ، والى جانب قراء القرآن ، كان يوجد بين حاشية الأمير قراء للحديث(٢) . ويسمى الرعينى عددا كبيرا من العلماء(٣) ، المعروفين كرجال حديث مشاهير ، وكذلك كما من المؤلفات(٤).التى تعالج كل فروع الحديث ؛ وهذه الأعمال دائرة فى الأوساط العلمية . ومنذ وقت مبكر ، أعلن انه إذا كانت السنة يمكن ان تستغنى عن القرآن ، فإن القرآن لا

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٨٣ .

(٢) محمد بن أحمد بن سماء اللخمى ، البحائى أصلاً ، كان يشغل وظيفة قارىء الحديث فى حاشية المنصور . ابن رُشَيد ، افادة النصيح بالتعريف بالاستاذ الجامع الصحيح ، مخطوط الاسكوريال ، رقم ١٧٣٢ ، ورقة ٢٤ — أ .

(٣) لكى لا نعطى الا المثال الأشهر بين هؤلاء المحدثين نذكر الحاج أبا بكر محمد بن خلف التجيبى ، وابا محمد بن عبدالكبير بن بقى (الرعينى ، ورقة ٨ — ب) ، وأبا العباس ... اللخمى (ورقة ٩ — ب) ، وابا القاسم محمد بن عبدالواحد الغافقى ، وابن عبدالسلام الحميري (ورقة ١٥ — ب) ، وسعد السعود ... ابن عُقَيْر الأموى (ت ٥٨٨هـ — المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٦ —أ) . وقارن ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٨٥٩ ، ١٨٢١ ، ٢٠١٢ ، وابا عبدالله بن الفخّار ، البلنسى الأصل (ت فى مراكش ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م) — المراكشى ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٣٢ — أ ، ٣٣— أ .

(٤) من بين المؤلفات فى الحديث يذكر فوق العشر مجموعات التى سبق ذكرها اعمال ابن زرقون عن الصحيحين : قطب الشريعة والمنهل العذب فى الشريعة (الرعينى ، ورقة ٧— أ) ، وكتاب ابن عبدالكبير المؤلف على مسلم ، الترمذى وابى داود (نفس ، ورقة ٨ — ب) ، والمنتقى لابن الجار (المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ١١ — أ.

يستطيع ان يستغنى عن السنة(١) ، ولهذا السبب فإن علم الحديث انتشر فى ذلك العصر الذى كان فى الغرب الاسلامى أشبه بصحوة للعصر النبوى .

الفلسفة فى خدمة الدين :

نحن نعالج الفلسفة كعلم مساند لعلم الدين ، موضوع فى خدمة العقيدة الحقيقية . هذه الفلسفة اللاهوتية (سكولاستيك) تسمى "علم الكلام" ، تهدف الى الدفاع عن العقائد الدينية ، على عكس ما يفعله رجال الدين ، بالتعليلات العقلية ، وليست المستوحاة من النصوص الشرعية (٢) . وبالنسبة للمفكرين العرب كان هناك دائما رباط وثيق بين الفلسفة والدين ؛ فالفلسفة (الحكمة) عند القدماء لم تكن بالنسبة لهم إلا فيض العبقرية لدى اليونان المؤمنين بالله وبكتبه المقدسة المرسلة الى المبعوثين من رسله قبل موسى(٣) . وهكذا فمن الواضح ان المقصود بالحكمة فى هذه الفترة يمكن ان يعتبر بمثابة دراسة آراء الفلاسفة المؤمنين العاملين على خدمة العقيدة السليمة . ولكن الاشتغال بالفلسفة بمعنى البحث عن الحقيقة ، كشىء كامل للمعرفة المنطقية المدركة بالعقل ، أثارت القطيعة مع كل المذاهب ، الأمر الذى ترتب عليه المعارضة الشعبية للفلاسفة . واضطهادهم من قبل السلطات.

وكان يجب الخروج من ذلك المأزق ، ووجد الحل لذلك بربط الفلسفة بالدين.وفى هذا المجال كان لابن رشد السيادة دون منازع . ففى مقدمة رسالته المعروفة بفصل المقال (٤).عرف ابن رشد كيف يعطى للبحث الفلسفى

---

(١) هـ . ماسيه ، الاسلام ، ص ٨٧ .

(٢) قارن ، ابن خلدون ، العبر ، ج١ ص ٢٨٠ – ٢٨٢ .

(٣) كتاب فيه سياسة الأمراء ولاه الجنود المقدمين لثلاثة عهود – كتاب مقدم الى الخليفة الحفصى المتوكل (١٣١٨ – ١٣٤٦ م) . مخطـــوط الاسكوريال (عربى) رقم ٧١٩ ، ورقة ٣ – أ .

(٤) فصل المقال وتقرير مابين الشريعة والحكمة من الاتصال .

والعقلانى مظهراً لاهوتيا عندما اعتمد بمهارة على القرآن والسنة ، فى ذلك العصر(١) . وهو يلاحظ مع ذلك انه مع هذا العلم فربما ضللنا عن "سبيل الله" لأننا قد نجد أحيانا تضاربا مع القانون الإلهى . وعند هذه النقطة يجد موافقا مع السنّة التى تنص على ضرورة الاعتقاد وحتمية الايمان (٢) . ففى نظره لا يوجد فى ذلك تناقض : فالنص المقدس يتفق بحكم الضرورة مع العقل ، ولكنه بسبب الخطأ فى التفسير الحرفى ، .. يفهم فهماً سيئا (٣) . وعن هذا الطريق قبل ابن رشد مبدأ التأويل (التفسير المجازى) للصفحات المتشابهة من القرآن . فالتأويل هوالأساس المكين لمذهبه ، وعن هذا الطريق ، أراد ان يخضع تفسير الآيات الدينية – ربما عن غير قصد – للفلسفة . وتلك لم تكن عربية الأصل أو اسلامية، بل كانت يونانية الأصل أو وثنية . وهكذا بدأ ابن رشد

---

(١) حيث : الم يقل الله : وخذوا المثل من ذلك يا أولى الألباب . الفلسفة واللاهوت ، ص١ . والم يقل : " أو لم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض ، وما خلق الله من شيء .." (نفسه ص ٢ ؛ سورة الأعراف (٧) ، آية ١٨٤) والم يقل : " ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هي أحسن .. (نفسه ،ص٧ ، سورة النحل (١٦) ، الآيه ١٢٤ .

(٢) الم يقل الرسول للرجل الذى استمع الى نصحيته وجعل أخاه يشرب العسل لعلة كان يعانى منها فى بطنه فزادت علتة : أنا أومن بالله وليس ببطن أخيك . ابن رشد ، الفلسفة والإلهيات ، ص ٥ .

(٣) وبصفته مؤمنا طيبا ، وحسب المبدأ الذى كان يسير عليه ، رجع الى القرآن نفسه من أجل ان يقرر هذا الأمر بطريقة قاطعة ، وهو يزهو بأنه وجد صحة ما يقرره فى الآية التى تقول : " هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات . فاما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله" . وهو إذ يقف هنا ، يعود فيشرح الآية : " وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم" ثم يستمر فى الشرح ، هؤلاء : " يقولون آمنا به ، كل من عند ربنا ، وما يذكر إلا أولوا الألباب" . وهكذا يصبح شرح ابن رشد للآية مخالفا للشرح السني المعتاد (انظر ل.جوتييه، ابن رشد (بالفرنسية) ، ص ٢٩) . فكان ابن رشد يقف هنا معارضا لابن تومرت وشرحه المعتاد للآية ، حيث تكون دليلا شرعيا يأمر بضرورة الاعتقاد فى صحة النصوص ، من قبل الرجال الراسخين فى العلم . قارن كتاب ابن تومرت ، ص ٢٣٤ .

وابن تومرت بداية مشتركة ولكنهما انتهيا الى تصورات مختلفة.

ابن رشد والمذاهب المختلفة:

بفضل فقره وامتحانه الدقيق للنظريات التقليدية، وُجد ابن رشد مختلفا على عدد من النقاط، مع المذاهب الدينية فى عصره، مثل: تعاليم ابن تومرت، والأشاعرة، والظاهرية، وكذلك المالكية. فإن مبدأه فى التأويل اختلف بشكل حاسم مع ابن تومرت. وهنا ينبغى التفرقة بين معارف ٣(ثلاث) طبقات اجتماعية، هى: العامة، ورجال الدين، والفلاسفة (١). فعامة الشعب عليهم ان يفهموا النصوص المنزلة حرفيا، وان يقبلوا وعيونهم مغمضة كل التأويلات والاستعارات. أما رجال الدين فلهم ان يلاحظوا الاختلافات بين الرموز التخيلية، ولكنهم لا يستطيعون التمييز بينها، وان يفهموا منها الحلول بالتعليلات البرهانية، بمعنى الحلول الإحتمالية وليس القطعية. وأما الفلاسفة، المتعمقين فى شرح النصوص الدينية،.فهم الوحيدون القادرون على التأويل، الذين عليهم ان يستخلصوا الأفكار العميقة للنصوص المنزلة (٢). وفى نظر ابن تومرت كان كل تصور عقلى لفكرة الإله يبدأ من العقيدة المطلقة والجبرية لكل الناس، حتى أنه كان يود ادخال كل من العقيدة والشريعة اللتين ألفهما لذلك الغرض، فى إفهام أكثر أهل الطبقة العاملة خشونة، من البربر (٣). أما فى ذهن ابن رشد، فإن التأويل المادى لآية "الاستواء" كانت إجبارية بالنسبة للرجال القادرين على استخدام الادلة البرهانية؛ فإذا أخذوها حرفيا فربما يعني ذلك عدم الاعتقاد

---

(١) ابن رشد، فلسفة ولاهوت، ص ٢١.

(٢) وهنا نجد أنفسنا فى مجال الارسططاليسيه ذات التصنيف الثلاثى للتعليلات: الخطابية، والجدلية، والبرهانية. انظر ل.جوتييه، ابن رشد، ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) جولدزيهر، مقدمة كتاب ابن تومرت، ص ٨٠، وقارن النص، ص ١٩٠.

فيها ، وعلى العكس من ذلك فإن الرجال من أصحاب الأدلة الخطابية ينبغي عليهم أخذها حرفيا ، فالتأويل فى هذه الحالة يعنى الكفر وعدم الايمان أو البدعة على الأقل(١) . والحقيقة ان تعليم التأويل للعامة هوالذى ولّد الاختلافات المذهبية (الفصل) فى الاسلام ، وهى المذاهب التى كفرّ بعضها بعضا (٢) .وفى نظر ابن رشد ان التجسيم لم يكن فقط صفة إلهية يجب عدم مناقشتها (السكوت عنها) ، بل صفة مرضى عنها بالشرع فى كثير من الآيات القرآنية . وكان رأيه أنه ينبغى السكوت عن هذه المسألة ، اعتمادا على الآيتين : " الله نورالسموات والأرض" ، و "ليس كمثله شىء "(٣) . ورغم ذلك فقد ظل يساند حتى النهاية فكرة التجسيم بهدف تقوية إيمان عامة الشعب : ولقد أعلن فى ضوء ذلك ان التأويل يزلزل العقيدة ، ويتعارض مع القانون الإلهى ، ويضع حداً لتعليلات النصوص المنزلة (٤) . وهنا يظهر ابن رشد ظاهريا متعصباً . ألم يقل الرسول :"تنقسم أمتى الى ٧٢ (اثنين وسبعين) مذهبا ، كلها فى النار الا واحد" ، الأمرالذى يعنى أولئك الذين يتبعون المذهب الظاهرى(٥).

وفي مسألة الصفات الإلهية ، يحاول ابن رشد ان يثبت ان المذهب الأشعرى يؤدى الى فكرة تصور تعدد ذات الخالق . وأليست هذه نظرية الثليث الإلهى التى يؤديها المسيحيون ؟ وألم يقل الله : كفار أولئك الذين

---

(١) فلسفة اللاهوت ، ص ١٦ .

(٢) ابن رشد ، الفلسفة واللاهوت ، ص ٢٣ – ٢٤ .

(٣) الفلسفة واللاهوت ، ص ٦٠ ؛ القرآن الكريم ، سورة النور (٢٤) آية ٣٤ .

(٤) فلسفة اللاهوت ، ص ٦٢ .

(٥) نفسه ، ص ٧٠ .

يقـولون أن الله ثالث ثلاثة (١) . وهكـذا كـان الأشـعـرية ، وعلى رأسـهـم أبوحامد الغزالى ،موضع سخرية شديدة على طول كتاب "الكشف عن مناهج الأدلة" ، حـول جـمـيع نقـاط الخـلاف ، من: تصـور الذات الإلهـيـة ، الوحـدة الإلهية ،الصفات الإلهية ، خلق القرآن ثم التجسيم . فلقد أراد ابن رشد ان يخـفض من منزلة الأشـعـرية الى منزلة رجـال الدين ، المنشـقين على أنفـسـهم بسبب مذهبهم الوسط ، فهم مبتدعة أوكفار بشأن عدد من النقاط ومع ذلك فإن المفكر الكبيـر لم يستطع الفصل فى هذه المسـائل الحـسـاسـة ؛ فاكـتـفى بموقف متذبـذب ، هو موقف المعلق ، مادحاً مرة الاشاعرة لكى يهاجـمهم بعد ذلك عدة مرات . وعن نفس المشكلة ، كان يأخـذ بوجـهـة نظر معينة لكى يعلن بعد ذلك أنه مناصر لفكرة أخرى ، حتى أنه كان يترك المسألة معلقة فى أحيان أخرى (٢).

تطهير دينى والموقف الخاص باليهود :

فى مجال العلوم والأفكار الدينية ، يحسن أيضا معالجة مشكلة الأقليات غير الاسلامية التى كانت تعيش تحت مظلة الدولة على عهد المنصور . وفى البداية لا ينبغى ان يغيب الذهن أنه فى دولة يظلها التعصب مرتبطا بالحماس الدينى ، حيث يمكن اتهام الأعداء السياسيين أو أصحاب المذاهب الأخرى بالكفر حتى لو كانوا مسلمين ، لا ننتظر معاملة أقل قساوة بالنسبة للكفار الآخرين – غير المؤمنين حقيقة هذه المرة – من المسيحيين أواليهود . فاختلافا عن المشرق الذى كان يحض على المناقشات الدينية بين مختلف المدارس والى

---

(١) فلسفة ولاهوت ، قرآن كريم . سورة النور آيه ٣٤ .

(٢) عن الصفات الإلهية انتهى فى خاتمته بموقف جديد يترك المسألة كما هى فى الشرع ، دون الدخول فى التفصيلات (نفسه ، ٥٧) . وفى مسألة التجسيم يعلن حياده ، لا يقرر شيئا ولا ينفى شيئا . ثم انه بعد ذلك يأخذ برأى المذهب الظاهري ، لكى يعود الى رأيه الذى بدأ به قبل ذلك (نفسه ، ص ٦٠ ، ٦٢ ، ٧٨).

إقامة نظام خاص بأهل الذمة (من دافعى الضرائب) (١) . أما المغرب فقد أظهر اتجاهات غير متساهلة تهدف الى الغاء الاختلافات بين المذاهب ، وفى نفس الوقت تقوية الوحدة السياسية لدوله. وهكذا كان يعقوب المحرك الأول لحركة تطهير دينية متشددة حتى يمكن القول أنها كانت "محكمة تفتيش" حقيقية.

وكان اليهود هدفا لتلك الحركة . ولم تكن القرارات التى اخضعتهم لمعاملات خاصة مستحدثة فى المغرب . فقبل ذلك وعلى عهد المرابطين منع علي بن تاشفين اليهود من الإقامة فى مراكش ، أوحتى قضاء الليل فيها(٢) ولكن الموحدين الذين لم يسمحوا لأى من غير المسلمين بالبقاء فى أراضيهم(٣) .كانوا قد انزلوا بهم من البداية معاملة أكثر قسوة . ووجد اليهود أنفسهم مضطرين الى اعتناق الاسلام وهو الأمر الذى كان يأمل فيه المرابطون منذ سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ – ١١٠٧م (٤) . ولكن التظاهر بالعقيدة الاسلامية كان سهلا عليهم ، وذلك أنه لم تكن تتخذ ضدهم اجراءات

(١) منذ البداية شرع الفقهاء للنظام الذى يجب ان يخضع له غير المسلمين . فاستنادا الى التقاليد النبوية قرروا ان يتميز أهل الذمة عن المسلمين بشارات خاصة . ووقع عبأ تنفيذ هذه المقررات على عاتق "المحتسب" . قارن الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ٢٤٨ ، الطرطوش ، سراج الموك ، ص ١٣٦ وما بعدها . وعن حمل شارات معينة كان معروفا قبل القرن الثانى عشر ، وان أوامر الخليفة الفاطمى الحاكم فى هذا الشأن ترجع الى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ – ١٠٠٥م . وقبل ذلك بقرن ونصف قرن ، وعلى عهد الخليفة المتوكل (٢٣٣ / ٨٤٩) ، كان اليهود والنصارى خاضعين لنظام مختلف ، خاصة فى الملابس من أجل تمييزهم عن المسلمين . أ.فانيان ، مجلة الدراسات اليهودية ، ١٩٨٤ ، ص ٢٩٤ ، جولدزيهر ، ص ٧٧ .

(٢) كان مسموحا لهم بدخلوها نهاراً ، ولكن بهدف العمل والخدمة التى كانت جاليتهم متخصصة فيها ، أما من يوجد فيها بعد غروب الشمس فكانت أمواله وحياته تحت رحمة أيّاً كان ، الادريسى ، ص ٦٩ ؛ وقارن .أ.فانيان ، مجلة الدراسات اليهودية ، ١٨٩٤ ، ص ٢٩٧ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص٢٢٣ .

(٤) الحلل ، ص ٧٥ ؛ م.ل. أوتيجا ، البربر فى مراكش (بالاسبانية) ، ص ٥٢ .

تفتيش دينية كذلك الذى سوف يحدث فيما بعد فى البلاد المسيحية (١) . إنهم يعلنون اسلامهم ، ويؤمون المساجد من وقت الى آخر ، ويعلمون القرآن لأطفالهم (٢) . ولكن الأمراء أنفسهم كانوا يعرفون ان هذا التحول للاسلام كان وهميا ، ولهذا السبب كان المنصور يعد لهم مفاجآت أخرى . فقرب أواخر ملكه حقيقة ، أمرهم بلبس الغيار (الملابس الخاصة) حتى يميزهم عن بقية الشعب .وكانت تلك الملابس ذات لون أزرق غامق ، لها أكمام واسعة جداً ، وبدلا من العمامة كانوا يضعون "طاقية" مضحكة الشكل (٣) . وكان يعقوب يقول أنه لو كان متأكدا من حسن عقيدتهم لتركهم يختلطون بالمسلمين ، ولكنه لو كان متأكدا من كفرهم لقتلهم فى التو واللحظة ، واستعبد نساءهم ، وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين (٤) . وكان عبدالواحد سعيداً وهو يضع فى نفس الفصل – دون أن نعرف إن كان قد فعل ذلك بقصد – الحركة المضادة لليهود والسخط على ابن رشد ، والحقيقة ان ذلك يُكمل الآخر . ففى نفس نهاية عهد المنصور بالضبط ، أى فى نفس الوقت تقريبا الذى صدرت فيه الأوامر الخاصة باليهود (حوالى ٥٩٥هـ/ ١١٩٨ – ١١٩٩م) كان سقوط المفكر الشهير فى هاوية عدم الرضا الأميرى . وهنا يجب تخصيص مكان لمؤامرات البلاط ، والحسد والأحقاد الشخصية . فان رشد الذى نال شابا

---

(١) كاهن ، اليهود فى افريقيا الشمالية ، مستخلص من مجموعة الهوامش والمذكرات للجمعية الأثرية لمقاطعة قسنطينة ، ١٨٦٧ ، ص ٤٢ ؛ عبدالواحد يقول : انهم (اي اليهود) يتبعون ديننا ، وتقاليدنا ، والله أعلم بما فى قلوبهم ، وما تحوى بيوتهم (المعجب ، ص ٢٢٣) .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ . وقارن ابن عذارى ، المجهول ، ص ٧٩ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ . وقارن ابن عذارى ، المجهول ، ص ٧٩ ؛ الزركشى ، ص ١١ والترجمة ٢٠ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ .

الحظوة من يوسف ، كان مرضيا عنه كهلاً من قبل يعقوب (١). أما عن أسباب الوحشة فهي موضوع تخيلات كثيرة ، فيتردد كثيرا ما قيل عن صداقته لأعداء الأمير ، وقلة رعايته لمقامه ، والشكوك التي انتشرت حول عقيدة الفيلسوف (٢) . ولكن من المهم التركيز على هذه النقطة الأخيرة . فإن اهتماماته الفلسفية ، وتعليقاته الجريئة على المذاهب ، وسخريته الشديدة من رجال الدين ، والمفكرين الذين سبقوه ، مثل : ابن تومرت وملهمه الغزالي ، هي التي كانت بمثابة اسلحة استخدمها خصومه في التشكيك في صحة عقيدته . وهكذا فعندما نزل به سخط الأمير ، حكم عليه بالنفي الى مدينة اليهود وهي اليسانة (Lucena). وهكذا كان إرسال ابن رشد لكي يعيش بين اليهود ربطاً له بقضيتهم فاليهود بصفتهم مسلمين مكرهين ، كانوا موضع شك الأمير وشعبه ، وكانوا مصنفين في طبقة وسط بين المؤمنين الحقيقيين والمرتدين الكفار (٣). ولم يكن ابن رشد الضحية الوحيدة لعملية التطهير الديني ، فقد كان هنا العديد ، من العلماء ، والأطباء والفقهاء والقضاة

---

(١) عن بداية الفيلسوف الشاب انظر عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٧٤ – ١٧٥ . حيث لم يتوقف ابن رشد عن التمتع بالرضى المستمر على عهد يوسف . ففي سنة ٥٦٦هـ / ١١٦٩م كان يشغل في اشبيلية وظيفة القاضي (نفسه ، ص ٢٢٢) ؛ وفي سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٥م عين طبيبا أول ليوسف في محل ابن طفيل ثم عين في وظيفة قاضي الجماعة بقرطبة . وعن تمتعه بالاحسان والرضي على عهد المنصور انظر رنان ، ابن رشد (Averroes – بالفرنسية) ، ص ١٩ .

(٢) انظر رنان ، ابن رشد (افرويز) ، ص ٢٠ وما بعدها ، المراكشي ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٧–أ وما بعدها.

(٣) هل عومل كما كان يعامل اليهود ؟ هذا أمر لا يظن ، ولو كان غير ذلك لما تردد الكتاب في امدادنا بالمعلومات الخاصة بذلك الموضوع . وكل ما نعرفه بهذا الشأن هو ان عالما من الشرق ، هو تاج الدين بن حموية ؛ الذي كان يزور المغرب في ذلك الوقت حاول أن يراه ، ولكنه لم ينجح في ذلك ، الأمر الذى يبين صرامة الاعتقال الذى كان يعيش فيه الفيلسوف ، قارن رنان ، افرويز ، ص ٢٦ .

والشعراء وغيرهم ممن لقوا نفس المصير . وبينما كانت المحرقة تلتهم كتب اللاهوت والفلسفة ، فتحت السجون أبوابها واسعة لاستقبال النخبة من أصحاب العلوم والفكر الحّر . وعين أبو بكر بن زهر ، طبيب الأمير وزميل ابن رشد ، قاضيا أول لمحكمة التفتيش الدينية ، المكلفة بتنفيذ الأوامر الخلافية بهذا الخصوص . ونفذ أبو بكر بكل اخلاص العمل الذى أسند إليه . فقام بالبحث فى كل دكاكين الوراقين باشبيلية حتى لا يبقى كتاب واحد فى الموضوعات الممنوعة ، والأسف يملأ قلوب أحباء العلوم (١). وفى اشبيلية أيضا انطلق أبو بكر فى مطاردة المالكية ، المعارضين العنيدين لأوامر الأمير ، ومذهبه . ووجهت المطاردة بصفة خاصة نحو الفقيه ابى الحسن محمد بن زرقون ، والفقيه ابى محمد بن عبدالكبير بن بقى ، والحاج أبى بكر محمد بن خلف التجيبى (٢) . وسقط الأول والثالث بين يدى "المفتش الدينى" ، فسجنا ، وحجر على أموالهما ، وعذبا عذابا شديدا . أما أبو محمد بن عبدالكبير فقد نجا من العقوبة باختفائه طيلة وقت عمل محكمة التفتيش هذه . ولكن الحقيقة أيضا هى أن هؤلاء الفقراء الثلاثة ظلوا مالكية متشددين ،متفرغين لدراسة الفروع ، منكبين على الكتب الممنوعة (٣) . وبمجرد مرور العاصفة ثم العفو عن المحكومين ، أعيد لهم اعتبارهم . فحصل ابن رشد وأصحابه من المنكوبين على عفو الأمير . وعند عودته الى مراكش ، استدعى يعقوب الى حضرته ابن رشد (٤) . وعُين أبو جعفر الذهبى مراقبا لكتابات أطباء القصر وفلاسفته (٥). واطلق سراح كل من ابن زرقون وابن خلف

---

(١) المراكشى ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٨ – أ . وقارن رثان ، افرويز ، ص ٣٣ .

(٢) الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٨ – ب .

(٣) نفس المصدر ، ورقة ٧–أ ، ٨ – ب ، ٩ – أ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٤ .

(٥) قارن . رثان ، أفرويز ، ص ٢٥ .

التجيبى . وظهر ابن بقى (١) . ومن أسف على العلوم اللاهوتية والفلسفية ، فابن رشد لم ينل العفو إلا لكى يموت بعد ذلك مباشرة ، يوم الخميس ٩ صفر ٥٩٥هـ / ١٠ ديسمبر ١١٩٨م (٢). ومات الأمير بدوره بعد ذلك الوقت بقليل أما اليهود الذين كانوا حتي ذلك الوقت يتلقون الضربات دون توقف ، فسوف يأخذون شيئاً من حقوقهم فى حياة شبه عادية . وهكذا ففى بداية عهد أبو عبدالله محمد الناصر ، قررتعديل أوامر والده ، إثر محاولات من كل نوع قام بها اليهود الذين لجأوا الى جسد كل ما كانوا يرون أنه مفيد بالنسبة لهم .فسمح لهم أبو عبدالله بارتداء الملابس والعمائم الصفراء وبذلك خفض فى تمييزهم بالغيار مقتصرا فى ذلك على لون الملابس فقط (٣) .

---

(١) فقد لقى ذات يوم أبا بكر بن زهر ، فقال له : يا ازرق لقد نجوت بفضل عقلك (الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٨ – ب) .

(٢) المراكشى ، الذيل ، مخطوط باريس ، ورقة ٩ – ب ؛ ابن الآبار ، رقم ٨٥٣ ؛ الانصارى الذى يذكره رثان (افرويز ، ص٢٦، عبدالواحد . المعجب ، ص ٢٢٤ – حيث يضع وفاة ابن رشد فى آخر سنة ٥٩٤هـ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٣ ،الترجمة ص ٢٦٤ .

المنصور والتصوف:

كان للتصوف أيضا كلمته وسط صخب المنازعات الدينية . ونحن لا نعنى بالتصوف هنا مدرسة ذات مناهج تعليمية محددة أو فرعا من فلسفة لاهوتية ذات خصائص مميزة . فالمقصود هنا لا يكوّن فى مجاله النظرى أو فى تطبيقاته العملية نظاما متوافقا أو محدداً منسجما (١) . ان بذور التصوف موجودة فى القرآن(٢) . وهذا الذى يشرح كيف ان صحابة النبى مارسوه منذ البداية وفى الجماعة الأولى كان المقصود بالمذهب هو الانقطاع تماما إلى الله (أى حياة العبادة) ، بترك اعراض الدنيا الفانية كالملذات والأموال والسلطان التى يميل اليها الرجال(٣) . وهكذا كانت الناحية العملية هى التى يعمل حسابها فى البداية . ولكنه مع تطور العلوم ، تطور التصوف شيئا فشيئا . وفوق ذلك فقد اتخذ شكلا نظريا ، تطلب مجموعة قواعد جديد ومصطلحات فنية حتى يكتمل التصوف فى معالجته للكائنات الأرضية والسماوية ، والروح ، والعرش الإلهى . وفى هذه المجالات لا تصح الأدلة البرهانية ، فالمسألة تتعلق بالتجارب الباطنية ، والشعورية ، والحب ، والألم أو السعادة . وفى دراستنا سنكتفى بالاشارة الى الشكل النظرى للمسألة ، وسيكون الاهتمام أكثر بالجانب العملي الذى يشد انتباهنا بخاصة .

وفى هذه الفترة حيث كان الدين يسود كل شىء ، حدث فى سلسلة من الحروب وأعمال العنف التى لا تنقطع ان تواجه باسم الله كل من المؤمنين ، والزنادقة ، والكفار ، والسلاح فى اليد من أجل الدفاع عن أهدافهم أو الاستشهاد .وهكذا لم يكن من الغريب قيام حركة كان هدفها السماح لكل

---

(١) جولدزيهر ، العقيدة ، والشريعة فى الإسلام ، ص ١٣٧ .

(٢) قارن ماسينيون الحلاّج (بالفرنسية) ، ج٢ ص ٤٨٠ .

(٣) قارن ابن خلدون ، العبر ، ج١ص ٣٩٠ .

طرف بازدهار حياته الروحية ، وتحقيق نوع من الكمال الصوفى ، وضمان الحيأة الأبدية . هؤلاء الصوفية أصروا على انكار الأعراض الدنيوية ، وهول الحساب الأخير ، وتطهير القلب ، وكمال الروح عن طريق قتل الجسد ، ودفعوا تعبدهم الى أقصى الحدود ، وفى هذا المجال أعطى ابن تومرت المثال ، ووصل بذلك الى درجة الولاية والقداسة . وبعده ظهر عبدالمؤمن فوق ذلك فى هيئة الفاتح والمنظم الادارى ، وابنه يوسف كحاكم فيلسوف . أما يعقوب ، فإنه يقدم لناصورة قديس . ، فبعد هزيمة غُمْرة فى افريقية ، وخيانة أخيه وعمه الذى أعدمه فى التو واللحظة (١) ، غشيه وخز الضمير ، وتحول فى سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٦ - ١١٨٧ م الى التصوف أى الزهد والتبتل (٢). حدث ذلك بعد ٣(ثلاثة) سنوات من اعتلائه العرش ، وهكذا يمكن التأكيدعلى أن إتجاهاته العنيدة فيما يتعلق بأمور الدين ، كانت نتيجة طبيعته لهذا التحول . ومنذ ذلك الوقت اتجهت كل عواطف الأمير نحو الصالحين والمتبتلين من الرجال . فقد كان يبحث عنهم فى كل مكان ، وكان يغمرهم بامتيازاته . ولكنه فى قلب التصوف نفسه كانت الخلافات قائمة بين مختلف المدارس ، فالصوفية لم يكونوا متفاهمين فيما بينهم . ولهذا السبب فإن بعض المالكية كانوا مطلوبين ، مثل : أبى زكريا المغيلى أو حتى أبى مدين شعيب ابن الحسين الأنصارى : رغم انه كان أحد أقطاب التصوف فى عصره ، ولكنه كان فى نفس الوقت مالكياً عنيداً . فعندما استدعى الرجلان الى مراكش ، ربما لم يستجب الواحد منهما أو الآخر للدعوة . وهكذا قيل ان ابا مدين عندما بدأ

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ١٦ .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٠ . ومثل هذا الحدث ليس نادرا فى تاريخ القداسة .أ. در منجهم (حياة القديسين المسلمين ، ص ١٨ ، ١٩) حيث يكتب فى هذا المعنى ان "كل قديس ما كان يصل تقليديا أو نفسيا الى حياة الزهد والتصوف إلا نتيجة لهزة نفسية هى التى تحوله ، وتوجهه نحو مصيره ، وتجعله يسمع النداء الذى لا يستطيع شوقه ان يرفضه .

المسير قال الكلمات الآتية : إننى اذهب ، ولكنى لن أراه أبداً ، وأنه ربما مات فى الطريق قرب تلمسان (١) .

والى جانب هذا التصوف السلبى والسلمى ، كان هناك نوع أخر من الزهد النشيط الحربى . فالاستشهاد فى الجهاد ضد العدو الكافر ، والوقوف فى صفوف الأبرار الى جانب حمزة (عم النبى) وجعفر كان من الموضوعات المحببة فى أدب التصوف . هذا التصوف أو الزهد المحارب هو أصل نشأة منظمة الرباط(٢). وهكذا كانت اسبانيا حيث الجهاد من أجل الدين ،موضع رباط بالامتياز ، حيث كان يعقوب مرابطا : وأثناء ما كان بالأندلس للجهاد ، فى سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م ، التقى بالزاهد موسى بن عمران ، وأصله من مرتلة (ت٥٩١هـ/ ١١٩٥م) وأعطاه مبلغا من المال (٣) . وتقول القصة ان الرجل الطيب رفض الهدية ، ولكنه قدم على العكس من ذلك الى يعقوب مائة دينار من مصدر حلال ، ينفقها على نفسه أثناء تلك الحملة حتى يكون له النصر . وإن الأمير الزاهد قبل المبلغ ، ولم يزل يذكر أثره المبارك حتى الوقت الذى هيأ

(١) المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٣٧ -أ ، ٣٧ - ٥ . وابو مدين أصله من أشبيلية ، وسكن فى فاس لمدة قصيرة ، ثم غادر المدينة متقززاً من أهلها . ثم إنه سار الى تلمسان ثم بعدها الى بجاية حيث استقر. انظر التلمسانى ، البستان ، من ١٠٣ وما بعدها (المقرى ، ج٤ ، ص ٦٧٥ وما بعدها) . وهنا يعطى المؤلف تفصيلات طريفة عن أبى مدين ، الزاهد ، الفقيه فى الشريعه ، العالم بالأحاديث النبوية ، المالكى المخلص . وهو يتكلم عن رحلته الى البلاد المقدسة ، ثم انه يعطى فكرة عن نظريته الصوفية ، فى الحب الإلهى ، ويذكر بعضا من كراماته ، ويختم بمعارضته للظاهرية ، المذهب الرسمى للمنصور ، ودعوته الى مراكش للمحاسبة ، وأخيرا وفاته . قارن القرطاس ، ص ١٧٠ ؛ يحيى بن خلدون ، تاريخ بنى عبدالواحد ، النص ، ص ٦٣ والترجمة ، ص ٦٠ - ٦٢ ؛ الزركشى ، ص ١١ ، ابن الأبار ، رقم ٢٠١٥ . وأبى بارجس (Abbe Barges ، المرابط سيدى بومدين (بالفرنسية) ، ص ٣٥ وما بعدها ؛ م.أسين - تلاقيوس ، حياة الأولياء الأندلسيين (بالأسبانية) ، ص ٢٣ والهامش ٢ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، ج١ ص ١٠٠ ، ١٠١ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٣٧ .

(٣) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٧٥ .

الله له فيه النصر . وان بناء رباط الفتح (الرباط العاصمة) تؤكد أيضا اليوم التدين المحارب ليعقوب المنصور(١) . ان الجود كمطلب عزيز على الرجال الاتقياء ، لم يكن إلا مظهر آخر من تصوف بطلنا . فهو فى الوقت الذى يحتقر كل أعراض هذه الدنيا ، كان يفيض كرما وجودا بالنسبة للرجال المثقلين بالهموم ، من : الضعفاء ، والفقراء ، وخاصة الأيتام . وهكذا كانت مدينة مراكش مقسمة الى أحياء (أرباع) ، وفى كل منها كان الموكلون المزودون بالنقود ، ومكلفين بالبحث عن الأسر الواقعة فى الضيق (٢) .ليقدمون اليها المساعدات الضرورية . وفى نهاية كل سنة كان الأمير يأمر بان يقدم له قائمة بفقراء الأيتام . فكانوا يحشدون فى موضع قريب من القصر الملكى ، حيث يختنون ؛ وبعد ذلك كان يعقوب يعطى كلاً منهم مثقالاً ، وثوبا ، وقرصة ، ورمانة ، وإلى جانب المثقال ربما أعطى فى بعض الأحيان درهمين

---

(١) ج.مارسيه ، هامش على الربط (بالفرنسية) ، منوعات ر.باسيه ، ١٩٢٥ ، ج٢ص ٤٠٨ .

(٢) عبدالواحد (المعجب ، ص ٢٠٧) يستخدم كلمة "مساتير" (ومفردها مستور) التى تعنى الرجل التى يحيى حياة مناسبة ، مستقلا ماديا عن غيره فى الظاهر وهو يشير هنا الى الرجال المذكورين فى القرآن .. " « مستورين بسطاء يحسبهم الجاهل اغنياء من التعفف لا يسألون الناس الحافا » ، وقارن السيوطى ، المحاضره ، ج٢ ص ١٢ – ١٣ .

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ ؛ ابن عذارى ، المجهول ، ص ٧٩ . إن فكرة الاحسان هذه والجود كانت عزيزة على الأولياء في تلك الفترة ، وإنها كانت تكوّن بصفة خاصة النظرية الرئيسية عند أبى العباس السبتى (٥٢٤ – ٦٠١ هـ / ١١٣٠ – ١٢٠٤ م) شيخ مراكش . ففى نظره هو نفسه ، كانت ولايته تأتى من حقيقة انه عقد عهد مع الله يشترط فيه ان يقتسم كل دخله مع الفقراء . وفى نهاية عشرين سنة من تلك الممارسة التى كان يعطى فيها الفقراء نصف أمواله ، وجد نفسه قادراً بالتالى بعد تلك الممارسة ، على الحكم الصحيح على كل ما يخطر على باله . وبعد عشرين سنة أخرى رأى أنه من العدل ان يعطى الفقراء ثلثى دخله وعندئذ زاد فى إحسانه حتى الخمسة أسباع ؛ وبعد خمسة عشر عاما من هذه الممارسة أصبحت لديه القدرة على الحكم فى مملكة السماء . فكان عندما يقول "يا رب" كان الله يرد عليه :"ها أنا ذا قد أجبتك"(المقرى ، ج٤ص٧٥٠).

جديدين (٣) . ولنفس السبب ، ومن أجل تحقيق المعونة العامة للناس ، انشأ يعقوب مستشفى كبيراً (بيمارستان) ، كان يستقبل المرضى مجاناً ، من الفقراء والاغنياء والأغراب . وهؤلاء كانوا يأخذون الملابس الخاصة من أجل النهار ومن أجل الليل ، ومن أجل الشتاء ومن أجل الصيف . وكانت نفقته ، بدون ثمن الدواء ، ثلاثين ديناراً فى اليوم . وكان الأمير يشرف بنفسه على المرضى الفقراء ، وكل جمعه يزور المستشفى وهو يسلّى بنفسه البعض والآخرين . وبعد شفائهم كان يقدم للفقراء معونة مالية . أما الاغنياء فكانت تعاد لهم نقودهم وأملاكهم (١).

نهاية صوفية للمنصور:

ان التصوف الذى كان يحيط بشخص المنصور سيكون له صدى فى نفوس أهل العصر بعد قليل من وفات الأمير . فقد دارت الهمهمات التي تقول انه احتقر التشريفات ، والثروات ، وزهد فى الحياة الدنيا ، وساح فى العالم منصرفا الى التأمل والاستغفار . وكان ابن خلكان أول من أثار هذه المسألة (٢) . مؤكداً أنه كان فى بعض القرى الفلسطينية قرب المجدل قبر يقول كل الناس انه قبر يعقوب . وهو يقول بعد ذلك إنه مات فى المغرب . ولكنه يعطى عدداً من التواريخ المحتملة لوفاته ، وهو إلا يعرف ان كان ذلك قد حدث فى مراكش أو فى مدينة سلا . ان تأكيداته المتضاربة التى نجدها عند معظم المؤرخين ، تدفعنا الى امتحان مقالة ابن خلكان بدلا من اسقاطها دفعة واحدة كأسطورة لا تصدق ، ترجع أصلاً الى الإعتقادات الشعبية الخاطئة . انه يدهشنا ذلك السرّ الذى يحيط بوفاة عدد من الشخصيات الموحدية الكبيرة . وأولهم هو القائد الشهير الونشريشى الذى قتل فى موقعة البحيرة . وكان عبدالمؤمن قد

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ .

(٢) الوفيات ، ج٣ ص ٣٧٩ (المقرى ج٢ ص ١١٩٠ ، السلاوى ، الاستقصا ، ج١ ص ١٨٤ .

دفن قائد الحملة سراً خشية ان يثبط موته الروح المعنوية لدى الموحدين . والمهم هنا ان هؤلاء الأخيرين تصوروا فعلا أنه رفع الى السماء بمعرفة الملائكة (١) . وبعد ذلك تأتي وفاة محمد بن تومرت نفسه لتكون موضوعا للتخمين والاحتمالات . فنحن لا نعرف على وجه الدقة متى أو كيف مات . والأمر هنا يتعلق بتدبير سياسى ، بفضله كان المسئولون عن ادارة البلاد يأملون فى السيطرة على جماهير البربر الذين كانوا يعتقدون فى عصمته . أما مع عبدالمؤمن فلم يتكرر الحدث ، ولكن كان علينا ان ننتظر وفاة ابنه الأمير لكى نراه يعود للظهور من جديد . فمن المؤكد ان يوسف بن عبدالمؤمن كان قد جرح جرحا خطيراً أمام شنترين ولكنا نجهل يوم أسلم الروح. والحقيقة ان إعلان وفاته لم يتم إلا بعد أن وصلت معظم القوات الى اشبيلية . وهكذا اعتقد بعض المؤرخين فى أنه أصيب بالمرض فى طريق العودة(٢) .وبعد وفاة المنصور أتت وفاة الناصر لكى تكلل هى الأخرى بالأسرار . ويظل ابن خلكان هو الراوى للحدث الغريب ، ولكنه ينسب أبوته هذه المرة الى المغاربة . فبعد أن أصدر الأوامر الى الحراس فى حديقة قصره بقتل كل من يوجد هناك أثناء الليل ، ربما قام الناصر بجولة تفتيش ليلية هناك ، وربما راح ضحية أوامره هو نفسه(٣) . هل كان ثمة علاقة بين كل تلك الأحداث أم ان الأمر كان مجرد مصادفة ، أو تدبير مغرض من قبل المؤرخين ، أم حدث طبيعي يرجع الى الحالة النفسية لمجتمع مأخوذ بالأحداث فوق الطبيعية والأسرار ؟ وألا يمكن أن نرى فى ذلك مجموعة من الأحداث التي تداخلت فيما بينها بشكل مشترك؟

وهكذا لا تكون نهاية المنصور السرية حدثا قائماً بذاته ، بل كحلقة فى

(١) ابن الأثير ، ج١ص ٤٠٧ .

(٢) ابن الأثير ، ج١٠ ، ص٣٣١ ؛ ابن خلكان ، ج ٣ ص ٤٦٥ ؛ المقرى ، ج٢ ص ١١٨٨ .

(٣) ابن خلكان ، ج٣ص٣٨٣ .

سلسلة من الأحداث المتشابهة . ومع ذلك فنشير الى اختلاف يتمثل فى ان الحدث يظهر هنا بشكل أوضح من حيث ميول يعقوب التصوفية . والحقيقة ان الحدث يظهر معقداً . فإذا كان المغاربة كانوا متعلقين بأميرهم الكبير الى درجة انهم رفضوا له ان يموت ميتة عادية ، وأرادو له نهاية تتسم بالعظمة ، وتتوج بالأسرار ، فهو الأمر المقبول . ولكن كيف يفسر ان الشرقيين هم أيضا يقولون بوجود قبره فى أرض بلادهم ، وهو الأمر الذى يؤكده ابن خلكان؟ وهذا التأكيد هو الذى يثير السلاوى (١) . ليس دون وجه حق ، على ألا ينكر تلك النهاية الصوفية بوصفها أسطورة ، مثلما فعل ابن الخطيب(٢) والمقرى(٣) . ولننظر فى الوقائع التاريخية . فتبعا للوثائق الأكثر أصالة ، ورغم اختلافها على تاريخ وفاة المنصور ، فأغلب الظن أنه توفي فى الأشهر الأولى من سنة ٥٩٥ هـ ، وربما فى ٢٢ ربيع الأول (٤) يناير ١١٩٩ م) (٤) . واذا كنا لا نعرف بالضبط مكان وفاته ، في مقره بمراكش أو فى سلا أثناء احدى رحلاته الى تلك المدينة ، فمن المحتمل انه دفن بشكل نهائى فى تنمل الى جانب أسلافه (٥) . وفى تنمل الحديثة ، أليس المظفر فى موقعة الأرك ، الوحيد من بين أسرة بنى عبدالمؤمن الذى يصل اسمه الى أبسط سكان

---

(١) الاستقصا ، ج١ ص ١٨٤ .

(٢) رقم الحلل ، ص ٥٩ .

(٣) النفح ، ج٢ص١١٩٠ .

(٤) ابن عذارى ، المجهول ، ص ٨١ (اعلان ولاية محمد فى ٢٣ ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ؛ القرطاس ، ص ١٥٢ (عشية الجمعة – ٢٢ ربيع الأول ٥٩٥ هـ) ؛ ابن الخطيب ، رقم الحلل ، ص ٥٩ (٢٨ ربيع الأول ٥٩٥ هـ)؛ ابن الأبار ، ج١ص٧٠ ، (بعد شهر تقريبا بعد موت ابن رشد ، فى ٩ صفر ٥٩٥ هـ) ؛ ابن الأثير ، ج١٢ ، ص ٩٥ (١٨ ربيع الثانى ٥٩٥ هـ ، ١٨ جمادى الأول ٥٩٥) ، الحلل ، ص ١٣٤ (ربيع الأول ٥٩٥) ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٢٤ (أول صفر ٥٩٥) ؛ ابن خلكان ، ج٣ ،ص٣٧٩ (أول جمادي الأول ٥٩٥هـ ، ١٧ ربيع الثانى ، أول صفر) .

(٥) الحلل ، ص ١٣٤ .

المدينة(١). ومن جهة أخرى فإذا كان موقف الدولة كان قد استقر فى ذلك الوقت فى الغرب مع استعداد المسيحيين الأسبان للدخول فى السلم بعد الصراع العنيف ، فلم يكن الأمر كذلك فى افريقية حيث كانت الأحوال مرتبكة . فولى لم يكن له من العمر إلا عشرين عاما ، وكانت مسئوليات حكومة الأمبراطورية الواسعة ثقيلة على كتفيه الصغيرين ، الأمر الذى لم يسمح لوالده بالتنازل عن الحكم والرحلة الى المشرق . ومن المعروف ان المنصور كان قد عبر عن رغبته فى المسير الى مصر والمشرق ليس من أجل صلاح الدين ، ولكن كفاتح على رأس جيوشه (٢) . ونحن نذكر أيضا أنه كانت لديه الفرصة للتدخل بجيوشه ضد الصليبيين فى الشام ، ولكنه أسقط دعوة صلاح الدين ، العزيزه على قلب كل مسلم(٣) . ونحن نظن هذا الأمر الأخير على الأقل كان له صداه البعيد فى قلوب المغاربة المقيمين فى المشرق ، والذين كان عدد كبير منهم يقوم بالجهاد . ولا شك ان هذا الصدى هو الذى أدى الى اصطناع تلك القصة التى تريد ان يكون المنصور قد تنازل عن العرش ، واتخذ طريق الأرض المقدسة فى الشام حيث كان الكفار قد لاقوا هذا ثم مزيرة ، ولكنهم كانوا ما يزالون معلقين بها . وكان ذلك بالنسبة لنفس مؤلفى الأسطورة ، شراء لنفس المنصور ، ومثالا على الورع وحسن العقيدة بالنسبة للمشارقة . ويمكن ان نستخلص من ذلك ان الأسطورة ، الوليدة وهو الأمر

---

(١) ف – فريد ، خرائب تنمل (بالفرنسية)، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٠٤ والهوامش .

(٣) انظر فيما سبق ، ص ٣٨ .

المستغرب في المشرق ، كانت ذات أصل مغربي (١) . وفوق ذلك فهناك قصة أخرى ، وهذه المرة مغربية ، تأتي لتؤكد هذا الافتراض . فالأمير القديس لم يكن قد ذهب الى المشرق لكي ينقطع الى التأمل وطلب العفو ، ولكن الى اسبانيا للجهاد كمرابط بسيط (٢).

الحياة العقلية:

لقد كان النشاط العقلي العظيم على عهد المنصور يمارس في كل المجالات وفي الأشكال الأكثر تنوعا . ولنبدأ أولا بالنظر في الطب والمدارس التي كانت تلقى دروسه فيها . فكما هو الحال بالنسبة لذلك الوقت ، كان الطب تركة لرجال الدين . فابن رشد اشتهر كطبيب وابن طفيل الذي دان له ابن رشد بفضل تقديمه للأمير أبي يعقوب يوسف الذي غمره بأفضاله ، كان هو أيضا

---

(١) ولقد تطورت تلك الأسطورة علي مّر القرون . فبدورانها من فم الى فم كانت تضاف اليها تفصيلات طريفة ، ولكنها في مقابل ذلك كانت تفقد دقتها . فعلى عهد ابن بطوطة (نهاية القرن الرابع عشر ، الرحلة ، ج١ص١٣٤ ومابعدها) لم يعد أبو يوسف يعقوب هو الذي قام بالرحلة الصوفية في المشرق ، ولكن والده ابا يعقوب يوسف ،على حياة نور الدين وصلاح الدين . وتبعا لابن بطوطة فربما ذهب الأمير المغربي الى دمشق لكي يسقط مريضا ، ويبقى متروكا في الأسواق . وبعد شفائه سيعمل كناطور في بعض الرياض التي تعود الى نور الدين الذي سوف يعرفه بطريقته المجازية . ولكن القديس المغربي ربما رفض التشريفات التي عرضت عليه ، ويكون قد هرب ذات صباح في البرد القارس . وعلي نمط غيره من القديسين كانت له كراماته الخاصة به ، فهو مثل ذي النون المصري (ت ٢٤٥ هـ / ٨٥٩ م - قارن درمنجهايم ، حياة الأولياء المسلمين (بالفرنسية) ، ص ١٠٥ وما بعدها ؛ الاستبصار ، حيث الاشارة الى انه ربما تعلم الصناعة الكبرى : الكيمياء . وهكذا كان يمكنه تحويل النحاس الى ذهب . والأسطورة تريد أيضا ان يكون قد كتب الى نور الدين يقص عليه قصة الذهب ، ويطلب منه إقامة مستشفى (بيمارستان) للفقراء والغرباء . وفي نهاية رسالته ، لم ينس ، كما يقال ، الاشارة الى أن ابراهيم بن إدهم (ت١٦١ / ٧٧٧ - وقارن أ. درمنجهايم ، حياة القديسين المسلمين (بالفرنسية) ، ص ٣٣ وما بعدها) الصوفي الشهير لم يكن الوحيد من الملوك الذي ترك عرشه ، فهو أيضا ترك عرش المغرب.

(٢) الصفحات التالية.

أول فلاسفة عصره ، والطبيب الأول للأمير . وفى سنة ٥٧٨ هـ / ١١٨٣م ، عين ابن رشد طبيبا أول للأمير بدلاً من ابن طفيل الذى كان قد أسن . وكان زميل ابن رشد وقتئذ فى وظيفة طبيب الأمير هو أبا بكر بن زهر ، وكانت الصداقة التى ربطته بأبى مروان بن زهر (المعروف بافنزوار Avenzoar – ٥٥٧ هـ / ١١٦٢م) من الوثاقة بحيث ان ابن رشد كتب بنفسه رسالته عن "الكليات" فى الجسم الانسانى (أى العموميات) وطلب من صديقه ان يكتب من جانبه كتابا عن الجزئيات (أعضاء الجسم الانسانى المختلفة) بهدف ان يصبح الكتابان عملا كاملا فى الطب(١) . ولقد عرفت تلك الرسالةفى الطب بنجاح لا بأس به فى العصور الوسطى ، ولكنها لم تكن تقارن بقانون ابن سينا (٢) . وفى المجال الطبى ينسب الى ابن سينا اختراع هام ، يتمثل فى أنه يمكن فصادة الأطفال دون خطر (٣) . أما عن أبى بكر بن زهر فإن شهرته كطبيب ماهر كانت تفوق معرفته كرجل دين أوفيلسوف . فقد كان يعلم أويعقد حلقات حرّة فى الطب ، حسب المعتاد فى ذلك العصر . ويرجع الفضل للأمير الذى عندما أعدم الكتب "الحظيرة" (على الدين) ، استثنى الطب الى جانب الحساب ومبادىء الفلك ، دون ان ينسى ان تكون دراسة الطب من ذلك الحين تحت رقابة الدولة . وكان انشاء المستشفى (البيمارستان) الكبير فى مراكش (العاصمة) دليلا على الحب الذى يكنه المنصور للطب . وكان ذلك البيمارستان غنيا بالأدوية ، فقد كان فيه صيادلة أكفاء يعملون فى تركيب الأشربة الدوائية ، والأدهنة والأكحال وأدوية الرمد(٤).

(١) قارن رثان ، افيرويز ، ص ٤١ ؛ دائرة المعارف الاسلامية ، ابن رشد ، ج٢ ص ٤٣٦ .

(٢) دائرة المعارف الاسلامية ، ج٢ ،ص ٤٣٦ .

(٣) انظر رثان ، افيرويز ، ص ٤٥ .

(٤) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٠٧ ، الترجمة ، ص ٢٥٠ ؛ الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٢ – ١٨٣ .

ورغم ان الطب كان قد غلب على العلوم الأخرى ، فإن التنجيم لم يكن يشغل مكانة أقل . فقد كان هناك علماء ، مشاهير يعملون بهذا العلم ، وعالم مثل ابن رشد كان يضيفه الى مجمل معارفه العمومية . هذا وينسب سخط الأمير على المفكر الشهير بسبب اشتغاله بالفلك ، وذلك بعد الكشف عن مخطوطة فيه بخط يده ، تحوى تعليقات عن كوكب الزهرة التى اعتبرها كإلهة(١) . وكان علم النجوم فرعا من الفلسفة ، التى كانت مسألتها التى تشغل الأذهان هى بناء العالم . ومع ذلك فقد كانت حقلا خصبا لردود فعل سحرية – دينية مثيرة للأرواح . وهكذا شاعت فى الاندلس سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م فى بلاد الاندلس نبوءة عن عاصفة حادثة تكون خطراً رهيباً على العالم . ويقال ان هذه النبوءة وفدت من الهذر عن طريق مصر وكان على العاصفة ان تقوم ما بين يوم الاثنين ٢٧ جمادى (٢٦ أغسطس) فى منتصف الليل ويوم الخميس ٢٩ من نفس الشهر فى منتصف الليل ايضا. وكان عليها أن تدمر البلد جميعا ، فكل شيء سيكون عرضة للمسح ، من : المبانى والزروع . وتملك الناس فزع شديد . فقيل ان كل واحد حفر الملاجيء تحت الأرض (٢). وبسبب تصرف ابن رشد فى مواجهة مثل هذا الحدث كان سقوطه فى الوحشة مع الأمير ، فبعد ان درس المسألة فى مجمع من العلماء ، من الناحية الطبيعية ، وتبعا لما تنبيء به النجوم ، فقد كان عليه أن ينكر إمكانية حدوث مثل هذه العاصفة ، وذلك دون ان يقيم وزنا لبعض ما تقوله الآيات القرآنية بشأن قوم عاد (٣) . وهكذا اعتبر التنجيم من العلوم الخطرة ، وصدرت الأوامر التفتيشية بمنعه ، باستثناء مبادىء الفلك ، التى تستخدم فى

(١) عبداللطيف ، المعجب ، ص ٢٢٤ ؛ الترجمة ، ص ٢٦٦ .

(٢) المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٦٠أ ، مخطوط باريس ، ورقة ٨–أ ، ٨ – ب.

(٣) المراكشى ، الذيل ، مخطوط الاسكوريال ، ورقة ٨ – ب.

حساب ساعات النهار والليل ، ورسم اتجاه القبلة .

اللغة العربية:

لقد ازدهرت أيضا اللغة العربية والحساب والكيمياء وغيرها . وكانت المدارس فى المدن الكبيرة تعلم كل فروع العلوم المختلفة ، واذا لم يكن لدينا فيها اسماء كبيرة مثل ابن رشد فى الفلسفة ، وابن زهر فى الطب فإننا لا نقدم اسماء كبار الأساتذة من المشاهير . وهنا لن نعالج إلا اللغة العربية ، عنصر الوحدة بالامتياز بين كل سكان الدولة .ومع ذلك لا ينبغى علينا ان ننسى ان المغرب كان منقسما الى عالمين : عربى وبربرى ، يختلفان لغويا رغم وحدتهما الدينية . ولما كانت الأسرة الموحدية أسرة بربرية ، لم يكن من المنتظر ان تقوم بمجهود من أجل تعريب المغرب أو نشر لغة القرآن بين البربر ، فابن تومرت عندما فكر فى تعريف عامة الشعب بالله ، لم يتردد فى نشر تعاليمه بين الكتلة المصمودية باللهجة البربرية . فالحقيقة ان الأمراء ، وأفراد العائلة الحاكمة كانوا يجيدون العربية ويعرفون القرآن ، ويستمعون الى الشعراء ويكافئونهم ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لعامة الشعب . فلقد ظلوا برابرة لا يتكلمون ولا يفهمون إلا لغتهم (١) . والحقيقة انه وقع على عاتق كل من أفريقية والاندلس عبء القيام بدور مهم فى مجال التعريب .

فلقد وقع على عاتق إفريقية التى تعربت منذ دخول الهلالية ،بشكل غير مباشر حقيقة ، تعريب بعض أقاليم المغرب الأقصى (٢) ، حيث كانت تمارس نفوذاً لغويا اشبه بالنفوذ الذى كانت تمارسه بافريقية . ومن جهة اخرى فإن افريقية كانت قد أصبحت ميدان قتال ، وكانت قد توقفت عن ان يصبح

(١) عبدالواحد يقول بمناسبة زيارة قام بها الغزّ الذين يصحبهم المنصور الى تنملل ان النساء البربريات كن يشدن بلغتهم بمناقب مهديهم ابن تومرت الذى كان قد تنبأ بهذا الحدث – المعجب ، ص ٢١٠ والترجمة ، ص ٢٥٢ .

(٢) انظر فيما سبق .

مناسبة لنشرالعلوم ، فمن بين كل المدارس الكبرى ، كان العلماء يتجهون نحو المدن الكبرى فى المغرب الأقصى . واستقبلت فاس أعداداً كبيرة منهم ، واظهر نشاطاً عقليا عريضا (١).وعلى نفس النسق فإن الاندلس بصفتها مركزاً ممتاز للعربية فى المغرب ، قامت بدور شبيه وان كان بشكل مختلف . فلقد انجذب الى العواصم المغربية المزهوة بفخامتها ، وكذلك ببريق البلاط الخلافى ، اساتذة اللغة العربية ، وعلماء الأدب والشعراء ، الذين تدفقوا عليها من أجل أن يعطى البعض دروساً حرة ، أو لينشر الآخرون مدائح الأمراء من أجل الثروة .

الشعر:

بفضل الأندلس سوف يجد الشعر حقلا خصبا فى المغرب الموحدى ؛ فلقد فرض الشعر معظم رجال الطبقة المستنيرة ، وبفضلهم عرف فترة ازدهار ، من حيث تنوع الموضوعات ، وتعدد الأفكار ، الأمر الذى أدّى الى مولد شعر بلغ من الأهمية ما يتطلب تخصيص دراسة له ، أكثر استفاضة . وهذه الدراسة يمكن ان تخدمنا فى التعرف بشكل أفضل على الحالة الروحية والظروف الإجتماعية التي كانت تسود فى ذلك الوقت .

ونقطة البداية التاريخية كانت تشجيع الأسرة الحاكمة التى أعطت للشعر تقدما لم يعرف له مثيل على عهد المرابطين . وفى هذا المجال لا يصح المقارنة بين رئيس كل من الدولتين الأولين : ابن تاشفين وعبدالمؤمن . فبينما كان الأول بربريا بدويا ،عاميا يعرف العربية بصعوبة (٢) ، فإن الآخر رغم أرومته البربرية ، كان مثقفا جداً ، مجيدا فى اللغة العربية . وفى هذه الظروف لم يكن من المستغرب ان يلقى الشعر ظروفا صعبة فى الفترة الأولى ، وعلي العكس من ذلك ستكون حالته على عهد عبدالمؤمن ، الذى كان يحب المديح

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٦٠

(٢) انظر دوزى ، المسلمون فى اسبانيا (بالفرنسية) ، ج٣ ص ١٣٥

، ويقرض هو نفسه الشعر (١).

أما عن خلفاء عبدالمؤمن ، فابنه يوسف كان يعرف العربية ، والتاريخ والتقاليد العربية (٢). أما عن ازدهار الشعر على عهد المنصور ، فتفسره الاستقبالات الفخمة ، والمكافآت السخية من قبل الأمير ، حيث كان الكثير من رعاة الشعر ، من أمراء العائلة الملكية ، وكان هؤلاء يقيمون فى الأقاليم على جانبى العدوتين ، مع حاشيتهم ورجال بلاطهم (٣).

الشعراء:

كل مسلم من النخبة كان يجب ان يقرض الشعر ، واذا لم يفعل بسبب عدم الموهبة ، لم يكن ينقصه معرفة كبار الشعراء ، وحفظ قطع مختارة من الشعر عن ظهر قلب ، وان يكون سعيداً بحضور المجالس الشعرية . ويعقوب

---

(١) حسب ابن صاحب الصلاة ، فإن عبدالمؤمن كان يضمن الخطابات الرسمية التى كان يرسلها الى ابنه يوسف باشبيلية عندما كان يغزوا افريقية ، كثيرا من الاشعار من انشائه هو . وكان يوسف يقرأها أمام الموحدين وأهل المدينة الذين كانوا يلتقطونه ويحفظونه (المن بالأمامة ، المخطوط ورقة ٣ – ب ، ٤ – أ) . وعندما عبر عبدالمؤمن المضيق فى ٥٥٥ – ٥٥٦ هـ / ١١٦٠ – ١١٦١ م لكى يقيم عدة أشهر فى جبل طارق ؛ استدعى شخصيات كل من العدوتين ومثقفيهما . ولقد تأثر الشعراء بهذه الدعوة ، لأن الخليفة حتى ذلك الوقت لم يكن قد استقبلهم إلا بناء على طلبهم ، عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٥١ والترجمة ، ١٨٣ ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام . وقارن هـ . بيريس ، الشعر فى فاس على عهد المرابطين والموحدين ؛ هستبريس ، ج١٨ ، ١٩٤٣ ، ص ٢٨ ؛ وعن الحفل الشعرى ؛ قارن . ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١١ – أو ما بعدها .

(٢) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٦٩ ، الترجمة ، ص ٢٠٥ .

(٣) من بين أعضاء الأسرة المالكة كان كتاب أبى الربيع حاكم المغرب الأوسط ، هم الشعراء : ابو عبدالله محمد بن عبدربه (المغرب من حلى المغرب ، المخطوط ج٢ ، ورقة ١٨ – ب) ، وابو بكر عبدالرحمن بن مغاور (نفسه ، ج٤ ، ورقة ١٠١ – ب) ، أبو عبدالله بن أبى حفص ابن عبدالمؤمن ، والى بلنسية كان كاتبه الشاعر أبا القاسم محمد بن نوح (نفسه ، ج٤ ورقة ٤١ – ب) وأبا زكريا ابن أبى العزيز (نفسه ، ج٤ ورقة ١٠٢ – ب (، الخ).

لم يقرض الشعر شخصيا ، تماما مثل والده يوسف(١). ، ولكنه لم ينقصه ان يضيف الشعر الى معارفه الدينية (٢) . أما أبو الربيع على العكس من ذلك ، والذى كان ابن عم الأمير ، ووالى المغرب الأوسط ثم بطليوس ، فقد كان شاعراً . ولما كان الشعر فى تلك الحقبة ليس أكثر من تكوينات أسلوب ذكية ، فلن ندهش اذا رأينا من يقرضه من الأشخاص ذوى الأرواح المحدودة غنائيا ، مثل ابن رشد ،ابن زهر أو ابن الذهبى . وابن الأبار يدعى ان الفيلسوف الكبير كان يحفظ عن ظهر قلب دواوين المتنبى وحبيب ، وانه كان ينشدها كثيرا فى دروسه (٣) . وهكذا أعطى المجتمع الموحدى على عهد يعقوب عددا من الشعراء ، وان كان الكثير منهم هواة شعر أو من شعراء المناسبات .

وقبل ان نخرج بالخواتيم ، يستحسن ان نقدم بعض عينات من شعر ذلك العصر . ويمكن تقسيم الموضوعات الشعرية بسهولة فى مجموعتين كبيرتين ، هما : الأشعار الدينية ، الأشعار المدنية . ولكن الموضوعات التاريخية تهمنا هنا أكثر من غيرها . وذلك انها تعرفنا بردود الفعل التى كانت تعكسها الأحداث الجارية على الانتاج الشعري . وفي كل من المجموعتين سنجمعها فى طبقة خاصة ، نبدأ بدراستها .

كانت الحقبة فترة حرب من ناحية ودين من الناحية الأخري ، وهكذا كان للحرب والدين أثرهما فى تحميس خيال الشعراء .

فثورة بني غانية كانت من الموضوعات الخصبة . وهكذا كان سقوط قفصة فى سنة ٥٨٣ هـ / ١١٨٧ م تحت ضغط المنجنيقات الموحدية موضوع يستحق الاحتفال به فى كل بلاد المغرب . ومن أجل احياء هذا النصر العسكرى أنشد

---

(١) ابن خلكان يقول ان يوسف ترك لنا اشعاراً ليست جيده (ج٣ص٤٦٦) .

(٢) ما سبق ، ص ١١ .

(٣) التكملة ، رقم ٨٥٣ .

ابن مجير (١) . شاعر المنصور الرسمى (٢) ، شعراً جميلا يذكر لنا منه الحمير بيتين ، هما (٣) .

ما غَبْر قفصة إلا أنها اجترمت فلم يكن عند أهل الحلم تثريبٌ
مابالهـا زار ....حوزتها فلم يكـن عندها أهلٌ وترحيبُ

ومرة أخرى اكتسحت المدينة بهطول المقذوفات عليها ، ورغم حصانتها فقد أخضعت . وهذا الحدث سيكون أيضا موضوع شعر قصصي وساخر فى نفس الوقت من عمل ابراهيم الزويلى (٤) ، حيث مارس الشاعر قريحته فى المجال الدينى :

سائل بقفصة هل كان الشقىُّ لها بعلاً وكانت له حمّالة الحـطب
تبـديداً كـافر بالله القبهـا فكان كالكافر الأشقى أبى لهبَ
لما زنت وهى تحت الأمر مُحْصَنَةٌ حصبتموها أبتلع الشرْعِ بالحقبِ

---

(١) ابو بكر يحيى بن عبدالجليل ابن عبدالرحن بن مجبر الفهرى ، الذى نشأ فى مرسية ، وعاش بخاصة فى اشبيلية وتوفى فى مراكش سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢ م ، بعد ان انشأ أكثر من ٩ (تسعة) آلاف بيت من الشعر . ابن الأبار ، التكملة ، رقم ٢٠٥٥ ؛ المقرى ، ج٢ ص ٨٠٨ . وقارن الحميرى ، الروض المعطار ،الترجمة ، ص ١٢٩ ؛ النجوم الزاهرة ، يورد بشكل تاريخى خاطىء ، انه عند وفاة المنصور (٥٩٥هـ - ١١٩٩ م) انشد شاعره ابن مجبر قصيدة طويلة من ١٠٧ (مائة وسبعة) أبيات ، من انشائه ، الترجمة .، فانيان ، ص ١٩٤ .

(٢) ابن خلكان ، ج٣ ص ٣٨١ ؛ النجوم الزاهرة ، ترجمة ؛ فانيان ، ص ٩٤ .

(٣) انظر الروض المعطار ، ص ١٩٠ - ١٩١ والترجمة ، ص ٢٣١ .

(٤) أبو اسحق ابراهيم بن علي بن ابراهيم بن عبدالله بن أغلب الخولانى الزويلى ، وهو الكاتب المشهور ، المتوفى فى مراكش فى نهاية سنة ٦١٦هـ/ ١٢٢٠م . الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٣٤ - ب ؛ عبدالواحد يقول عنه ان الأمر يتعلق بمن يسمى ابراهيم ، والذى يضعه بين أصدقائه والمعروف باسم الزويلى . المعجب ، ص ١٩٨ ، الترجمة ، ص ٢٣٧ .

وكان الجهاد فى الأندلس أحد الموضوعات المفضلة عند الشعراء . فالحث على جهاد عدو الاسلام لم يكن أكثر من شرح فقرات من القرآن ، كما كان فى نفس الوقت رابطة توحيد بين المسلمين.

فعندما علم يعقوب وهو فى سلا ، اثناء اقامته فى سنة ٥٨٦هـ/ ١١٩٠م ، بانتصار قواته البحرية على البرتغاليين ، بعث اليه ابن مجبر بالمدائح التالية(١):

قلائدُ فتح كان يذْخرها الدّهْرُ   فلما أردت الغَزْوَ أبرزها النصر

وعند وصول المنصور الى قرطبة ، أثناء نفس الحملة ، انشد ابن مُجبَّر فى شعر له يصف فيه حفل عقد اللواء الذى تمّ فى المسجد الجامع (٢) :

بشـراى هذا لـواءُ ما عقدا   إلا وقـد مدّهُ الـروح الأمـين بَدَا
وأقبل النصـرُ لا يعدو بناحـية   فحيثـما قصـدَت رايـاتهُ قَصَدَا
واستقبلته بتبشير الفتوح فقد   كـادت تكـونُ علـى أكتافِه لبَدَا

وكتب نفس المؤلف فى السنة التالية قصيدة شعر مشهورة بمناسبة استعادة مدينة شلب ينشد فى أولها :

دعا الشوقُ قلبـى والركائب والرّكبْا   فلبوا جميعـا وهـو أول من لَبىّ
وظَلْنا نشـاوى للـذى بقلـوبنا   نخال الهوَى كأسا ويحسبـنا شرْبا
إذ القُضبُ هزّتها الـرياح تذكـرّوا   قدود الحسان البيض فاعتنقوا القُضْبا

ومن أجل الاحتفال بانتصار الأرك (ألاركوس) نظم احتفال كبير على ضفة الوادى الكبير . واستقبل "المنتصر" كبار رجال الدولة والشعراء الذين أتوا

(١) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، الترجمة ، ص ١٣١ .
(٢) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٠٧ ، والترجمة ،ص ١٣١ .

يهنئون "بطل الاسلام" (١) . وكان عدد الشعراء الحاضرين من الكثرة بحيث لم يسمح للواحد منهم بإنشاء الا البيت الواحد من الشعر أو البيتين وكوّمت أوراق الشعر أمام المنتصر حتى أخفت الكومة العظيمة المحيطين به(٢) . وقال أحد الشعراء فى احتفاله بالمناسبة:

– انت تشغل بين السادة تلك المكانة التى يشغلها نبينا بين رسل الله

– لقد أحببت دين الهاشمى ، كما فعل ذلك من قبل جدك الأكبر عبدالمؤمن بن علي.

وسّر المنصور بذلك وكافأ الشاعر بألف دينار . ولكنه حسب قول المقرى لم يعط الشعراء الآخرون شيئا بسبب عددهم الكبير . ويقرظ عبدالواحد شعراً انشده أمام المنصور أحد أصدقائه ، وهو علي بن حزمون ، المرسى أصلا ، وهو:

جيتــك معطــرة النَفَسِ نفحــات الفتــح بأندلُسِ

فــذرا الكفــار ومأتمهــم ان الاســلام لفــى عُرُسِ

أإمـــام الحـــق وناصــرهُ طهّـرت الأرضَ مـــن الدنَس

وملأت قلــوبَ الناس هُـدَى فــدنا التوفيــق لملتمس

أما ابو الوليد الشقندى (ت. فى ٦٢٩هـ / ١٢٣١ – ١٢٣٢ م) قاضى بّياسه ، وهو أديب وعالم فى حاشية المنصور ، فقد وجه اليه قصيدة منها (٣).

– اذا وقفت وقف اسعد معك ، ستكون كالسهام والعدو كالهدف

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢١٢ ، والترجمة ، ص ١٣١ .

(٢) المقرى ، ج٢ ص ٨٠٧ – ٨٠٨ .

(٣) المغرب فى حلى المغرب ، مخطوط ، ورقة ، ١٣٦ – أ ؛ وقارن . الشقندى ، ترجمة ا – جارسيا جوميت ، Elogia del Islam Espaqnal ، ص ١٢ – ١٣ .

– العالم جميعا لك ،تطويه ، وتبسطه

– وأى شيء صوبت اليه لا يستطيع مقاومتك وبمناسبة عقد الهدنة مع ألفونس القشتالى فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م ، حسب طلب هذا الأخير ، أُنشد شعر فى مديح الأمير الكبير . بتعبيرات قريبة .

ومن المناسب ذكر بعض فقرات من الشعر الملحمى الذى يذكر بأحداث تاريخية أقل أهمية . فمناسبة لقاء مع المسيحيين قال أبو بكر محمد بن وزير ، أحد أعيان اشبيلية ، والقائد الأندلسى ، ذلك الشعر التالى :(١).

– عندما التقينا (فى ميدان القتال) قام قتال حار .وفى الجانبين كان ناجون وكان قتلى

– لم يسلم صدر ، فالكل حمل فى رقبته ضربات السيوف

– لم يكن هناك ملجأ سوى البيض والقنا . لقد شن الطرفان حربا دون رحمة

– حملتنا المفاجئة حطمت هجمات العدى .. والذى كان يتوقف اثناء القتال لم يكن أمامه الا الهزيمة .وهناك قصيدة طويلة فى وصف خيل المنصور نظمها ابن مجبر الشاعر الرسمى (٢) :

– له ميادين تدريب الخيول العتيقة ، التى تسير راقصة الرجال النشوى الباحثين عن الموسيقى والشراب .

– انها عروسات صغيرات فى صباح العرس ، ولكنها لا ينقصها السحر الطبيعى . انها لا تحتاج الى جواهر أو خلاخيل فى الأرجل أو عقود فى الأعناق .

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج١ ورقة ٧١ – أ ، ٧١ – ب .

(٢) المقرى ، ج٢ ص ٨٠٣ ، السلاوى الإستقصا ، ١٨١ .

– أنها تثير فى العدو أنواء تنسف أرض الأعداء

– اننا نعطيه (أصل الخيل) اسم "جواد" (كريم) لاننا عندما نطلب منه سباقا يعطى اثنين .

ومن ناحية الميورقيين نجد بعض قطع من الشعر الملحمى الذى لا يقل فى مستواه عن شعر الموحدين ، ان لم يفوقها فى الجودة . فعبد البر بن فرسان ، وأصله من وادى آش (ت فى فزان سنة ٦١١هـ / ١٢١٤ – ١٢١٥ م) (١). كان قد اكتسب شهرة صاحب السيف والقلم جميعا (٢) ، فإليه تنسب هذه الأبيات المشهورة :

أجُبْناً ورمحى ناصرى وحسامى   وعجزاً وعزمى قائدى وزمامى

ولى منك بَطَّاش اليدين غَضنفْر   يضارب عن أشباله ويحامى

ألا غنيانى بالصهيل فإنه   سماعى ورقراق الدماء مدامى

ويخبرنا المقرى أن هذا الشخص ، انشأ على عهد نجاح الميورقيين كثيرا من القطع الشعرية عن الحروب التى أصبحت لا تنفصل عن اسمه . ولكنه عندما أسّن ضاق بحياة عدم الاستقرار التى كان يعيشها مع الميورقيين بافريقية ، فطلب من سيده ان يعفيه من وظيفته حتى يتسنى له القيام بفريضة الحج(٣). والزيارة فقال تلك الأبيات :

امنُنْ بتسريح علىّ فعلّهُ   سبَبُ الزيارة للحطيم ويثرب

ولئن تقّول كاشحُ أن الهوى   درَسَتْ معالمه وأنكر مذهبى

---

(١) انظر الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٩٢ والهامش ؛ ابن خلدون العبر ، ج٦ ص ١٩٢ ؛ المقرى ، ج٢ص٦٤١ ، ٩٣٥ ؛ وما سبق ، ص ٦٨ .

(٢) الحميرى ، الروض المعطار ، ص ١٩٢ ؛ المقرى ، ج٢ص ٦٤٢ .

(٣) المقرى ، ج٢ ص ٦٤٢ ، ٩٤٩ .

فمقالتي ما إن مللـــــت وإنما عمرى أبى حملَ النجّاد ومنكبى

وعجزت عن ان استثير كمينها وأشق بالصمصام صدرَ الموكب

والفونس (ملك قشتالة) كان هو الآخر موضع المديح شعراً . فلدينا بعض النماذج من انشاء سفيره ابن الفخّار (١).

- أيا عظمة الادفونش ، فلتكن دائما سعيدا ، كما العروس الشابة فى ليلة عرسها .

- فلنخلع النعل تشريفا فالمكان الذى تقف فيه هو مكان مقدس .

الشعر الدينى:

هذا الشعر يقدم لنا تشكيلة من الموضوعات ، مثل : مذهب ابن تومرت ، وعلوم الدين ، والتصوف . فلقد وصلتنا قطعة من قصيدة أنشدت أمام يوسف على قبر ابن تومرت ، بمناسبة "الحج" السنوى التقليدى أوالزيارة . هذه القطعة تعبر بالشعر عن أساسيات مذهب المهدى الموحدى . وفيها نجد تشابه اسم ابن تومرت مع اسم النبى ، وماهية رسالته ، من : إحياء علوم الدين ، وسيادة العدل ، ومحاربة المسيح الدجال . وحسب قول عبدالواحد (٢) ، فإن الذى انشأ ذلك الشعر رجل جزائرى أصلاً ، ويضيف الى ذلك ان المؤلف ،الذي لم يستطع الحضور الى الحفل التذكارى ، بعث بعض أقاربه لينشد الشعر ، وهكذا يضيع الشاعر وسط التخمينات ، وبذلك يقترح ان تكون القطعة قد ألقت على عهد عبدالمؤمن . وفى رأينا أن ذكر الثالث والرابع من أمراء بنى عبدالمؤمن (المنصور والناصر) دلالة على أن انشاء ذلك الشعر كان جزئيا على الأقل من عهد الناصر ابن المنصور.

وهنا يظهرعالم شهير ، هو أبو الوليد يونس بن محمد القسطلى المعروف

(١) المقرى ، ج٢ص ٩٤٩ .

(٢) المعجب ، ص ١٣٣ ، الترجمة ، ص ١٦٤ .

باسم الثائر الجزيرى ، نسبة الى موطنه الأول ، والذى كان يرغب فى احياء مذهب ابن تومرت الذى كان قد فسد وتغير حسب رأيه . ولقد انشأ الرجل شعرا فى ذلك الموضوع ، يبدأه هكذا (١) .

– كان فى فكره سرًّا سوف يظهر لكم ذات يوم

– سأصل إلى هدفى إذا ما ساعدنى جدى

– ولا فإننى سأستشهد وأنا أريد اصلاح دينى

وفى رأى ابن سعيد (٢) . ان قصة ذلك الرجل كانت معروفة فى كل البلاد التابعة لبنى عبدالمؤمن ، وحيث كان يطارد . وعامة الشعب كانت تعتقد انه كان يستطيع ان يتقمص شكل كلب أو قط ، وفى فزعهم من تلك الفكرة ، كانوا يرجمون الكلاب والقطط . وظل الحال على هذا المنوال حتى اليوم الذى قبض فيه على الثائر فى منطقة بَسْطه . فضرب عنقه وارسل رأسه الى مرّاكش (العاصمة) .

وكان على الشعراء ان يقوموا بدورهم أيضا فى مجال النزاعات المذهبية . فكان أتباع كل مذهب يحشدون شعراءهم للدفاع عن دعواتهم . وفى

---

(١) المغرب فى حلى المغرب ، والمخطوط ، ورقة ٤٤ – ب ؛ ج٢ ، ص ١٠٢٤ . وحسب رأى ابن سعيد (المغرب) ، كان الجزيرى فى القاهرة سنة ٦٠٠هـ / ١٢٠٤ – ١٢٠٥ م . ولكنه حسب رواية ابن عذارى ،(المجهول ، ص ٦٢٣) فإن الرجل ثارعلي عهد المنصور ؛ وعند مروره بالأندلس سنة٥٨٦هـ / ١١٩٠م عرف بفراره من السجن الذى كان معتقلا فيه ، بفضل فساد قاضى المدينة الذى كان يقبل الرشا . واغتاظ المنصور لذلك وأمر بتصفية كل أصحاب الثائر ، وكان عددهم ٩٩ (تسعة وتسعين) رجلا ، وجلد القاضى الذي مات أثناء أعمال التعذيب . وعلى العكس من ذلك فإن رواية كل من ابن سعيد والمقرى التى ترى ان الثائر قبض عليه على أيام الناصر فى منطقة بَسْطَة ، وأما ابن عذارى الذى يصفه بالنصرانى ، يقول انه كان البحث عنه يتم فى كل مكان حتى تم القبض عليه فى منطقةمرسية . واقتيد الى أشبيلية سائرا على قدميه أمام الموحدين . وعندما سئل عن دعوته أنكر كل ما نسب اليه ، ولكنه بعد ان عذب تمّ صلبه .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج١ ورقة ٤٤ – ب .

الأوساط العلمية كان الشاعر ابو عبدالله الحميدى هو المدافع عن المالكية (١) . أما عن شعراء الموحدين فكانوا يصفون بنى غانية بالكفار ، وهؤلاء لم يلبثوا ان يردوا على ذلك بالمثل عن طريق شعرائهم . من ذلك ما قاله أحد شعرائهم الذى يدعى بالرعينى ، وهو أصلاً من منطقةمالقة ، فله :

– أنتم (بنو غانية) ضوء النهار للدين ، الذى يمحو ظلمات الشك . وبكم ينير العالم(٢) .

وكان السخط على الفلاسفة يجد من الشعراء من يؤيده . فابو الحسين ابن جبير ، يكيل فى العبارات التالية غضبه على ابن رشد ، قائلا (٣) .

– لم يبق فى الطريق الرشيد ، يا بن الرشد (لعب بالكلمات) ، بينما أعمال أيامك ترتفع عاليا . لقد كنت خائنا للدين ، ولم يفعل مثل هذا جدك

– لقد ضرب القضاء كل هؤلاء المزيفين الذين يخلطون الفلسفة بالدين ، وينشرون الزندقة لقد درسوا المنطق ، ولكنا نقول فيه بحق : ان الكلام يحمل السوء .

وكان للتصوف هو الآخر شعراؤه . فكان مذهب الصوفية يمكن ان يلخص شعراً لعبدالله ابن أبى نصر(٤) فى الآتى:

– لا تشغل نفسك بما لايعود عليك بالعفو يوم الحساب

ويعبر ابو مدين عن نفس الفكرة قائلا :

قل "يا الله ، واترك الدنيا بكل ما فيها ، اذا أردت ان تكون من أحباء

---

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢١٢ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ؛ المخطوط ، ج١ ورقة ٢٥٠ – ب .

(٣) المراكشى ، الذيل ، المخطوط (باريس) ، ورقة ٨ – ب ، ٩ – أ ؛ ابن جبير ، ص ١٤ – ١٥ ؛ رثان ، افرويز ، ص ٢٤ – ٢٥ .

(٤) الرعينى ، المخطوط ، ورقة ٤ – أ .

الله(١).

وزاهد آخر ، هو أبوالحجاج المنصفى ، من سبتة ، يعبر بالشعر عن فكرة طريفة تماما ، ففى نظره انه نفسه خطآء ، ولكنه لما كان مؤمنا بعفو الله ، فهو لا يخاف العقاب.

– تقول روحى لى : لن يتأخر الموت ، وانت غارق فى بحر من الخطيئة

– ماذا جمعت من الطعام ؟ قلت اسكت ، لما نحضرالطعام فى بيت رجل سخى (٢). والزاهد أبو الربيع سليمان بن حكم الغافقى (ت ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م) كان زاهداً فى عرض الدنيا ، متذكراً قرب يوم الحساب ، يقول أيضا :

– يسعد الرجل أمام تدفق أيامه ، ويرجو ان تتحقق آماله

– ولكنه ينزف دمه بدلا من أن يذرف دموعه ، عندما يفقد شيئا من ثروته(٣) .

شعردنيوى:

وكانت الحياة الدنيا بكل اشكالها كان لها أيضا أنواعها الشعرية ، من : المديح ، والحب والخمر .

المديح:

كان المنصور موضوعا للمديح من جانب جميع الشعراء . فمعظم الاشعار

---

(١) يحيى بن خلدون ، تاريخ بنى عبدالواحد ، ص ٦٣ ، والترجمة ص ٨٢ ؛ والأب برغيس ، سيدى أبو مدين ، ص ٣٨ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ؛ المخطوط ، ج٥٤ ورقة ٦٨ – ب.

(٣) الرعينى ، المخطوط ورقة ، ٢٨ – أ.

فى ديوان ابن مجبر كانت مخصصة له(١) . كما أشاد به ابوالقاسم بن نوح فى كثير من أشعاره (٢) . أما عن الأديب ابو اسحق ابراهيم بن يعقوب الكانمى ، وهو أسود من قبيلة كانم فى منطقة غانة(٣)، خلّد اسمه بفضل البيتين الأولين من قصيدة فى مدح المنصور ، يستحقان فعلا الاعجاب الذى أكنه لهما الكثير من المؤلفين والكتاب (٤) :

- لقد رفع الحجاب من أجلى ، ولكن عيناى تريانه فى حجاب من العظمة .

- وان كرمه سمح لى بالاقتراب منه ، ولكني ابتعدت عنه خوفا (احتراما) عندما أصبحت بالقرب منه .

وابن منقذ سفير صلاح الدين الى بطلنا ، لم يقصر فى مدحه ونوال المكافأة منه . وفي حماس الاشادة بكرم الموحدى وجوده ، الذى لا يقارن الا بالبحر ، ينسى ابن منقذ الهدف الحقيقى من سفارته ، فلا يشير اليها إلا اشارات غامضة :

- عبرت بحرا لكى أجد آخر ، اتساعه لا حدود له .

- لقد عبرت البر والبحر لكى ازورك ، وأنا متأكد من ان جودك الذى لا حدود له سيضمن نجاحى (٥).

وشاعر آخر هو : القاسم بن طلحة ، من شعراء البلاط (٦) ، يقارنه بالشمس ،

---

(١) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٨١ .

(٢) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج٤ ، ورقة ٤١ - ب.

(٣) ابن خلكان، ج٣ ص ٣٨٢ ، العمري يعطى هامشا عن الشاعر ، المسالك ، ترجمة ، ص ٤٥ ؛ المقرى ، ج٢ص١١٨٩ .

(٤) ابن خلكان ، ج٣ ، ص ٣٨٢ ، النجوم الزاهره ، فصلة ، الترجمة ، ص ٩٤ .

(٥) ابو شامه ، ج٢ص١٧٤ ؛ السلاوى ، الاستقصا ، ص ١٠٧٥ .

(٦) المغرب فى حلى المغرب ، ج ٤ ورقة ١٧٩ - أ.

وهو يقول :

- وهل هذا سبب لألا أعبر عن حبي له أن يكون شمسا ولكنها تشرق من الغرب .

وكان أفراد الأسرة المالكة أيضا موضوعا للمدائح . فالشاعر الشهير ابن خروف الاشبيلي الأصل ، والمتوفى في حلب سنة ٦٠٩هـ / ١٢١٢م(١). تغنى بمديح ادريس بن يوسف ، أخي المنصور ، ووالي سبتة وكذلك بمديح ابى سعيد بن جامع وزير مراكش ، وكذلك بمديح الكاتب أبي عبدالله بن عيّاش .

مشاعر الموت:

في هذا المجال انشأ شاعر قصيدة جنائزية من مائة بيت وسبعة أبيات ، انشدت حسب قول ابن تغرى بردى (٢) . على قبر المنصور ، وهي تبدأ كالآتي :

- هل تظن انه يترك الأعمال الجليلة وهو مازال بعد شابا ، بينما قد بلغ سن النضج؟

وأنشد أبو بكر محمد بن عبدالرحمن الكتندى قصيدة جنائزية يحيي فيها ذكرى أبي سعيد عثمان بن عبدالمؤمن ، حاكم غرناطة ، وكان أهل المدينة ينظمون منها ذلك البيت من الشعر ، بصفة خاصة (٣) :

- ذهب المليك وبقيت طيبات الأفعال ، ولكن أين القمر ؟

واذا كان السخط على ابن رشد قد وجد من الشعراء من يتغنى به ، فإن وفاة الاستاذ الكبير قد وجد الكثير من الزملاء الذين يأسفون عليه شعراً .

(١) المغرب في حلى المغرب ، المخطوط ، ج١ ورقة ٢٧١ - أ ؛ الرعيني ، المخطوط ، ورقة ١٨ - ب ؛ ابن الأبار ، التكملة ، ج٢ص ٦٧٨ ؛ المقرى ، ج٢،ص٦٣٦ .

(٢) النجوم الزاهرة ، فصلة، ترجمة ، ص ٩٤ . ويقول المؤلف ان القصيدة هي من عمل ابن مجبر (ت ٥٨٨هـ). والمحتمل ان يكون هذا الشعر انشيء بمناسبة وفاة يوسف .

(٣) المغرب في حلى المغرب ، المخطوط ، ج٤ ، ورقة ٤ - ب .

ـ هل يمكن ان عرف ذلك ؟ هل يمكن لرجل ان يحقق شيئا يريده طالما ان الاحداث التعسة تمنعه من ذلك ؟

ـ لقد ذهب نجم العلوم الذى كانت فصاحته تضيء الطريق وتكشف الاسرار .

ـ لم أكن أظن انه بعد وفاه أبيك ، إمكانية تحمل مثل هذا الحدث التعس .

ـ لم اعد أعرف منذ وفاته من الأتعس بعد رحيله : أبناؤه ، أم عصره أم صديقه .

شعر السخرية:

انشد ابن خروف شعرا فى مدح : أبى عبدالله محمد بن عياش ، كاتب البلاط . ولكنه لما لم ينل إلا مكافأة غير مجزية ، رفض الهدية وانشأ شعرا فى مهاجمة ضعف الراعي ، منه :

ـ لقد مدحت ابن عياش ، ولكن المكافأة التى اعطانيها ، ذكرتنى بأيام التعاسة .

ـ لقد أعدت اليه عظمته ، وقمت بمسح كل ما كان له فى قلبى .

ـ سأحاول تجربة حظى فى المشرق لأننى رأت ان الشمس تزول فى المغرب(١) .

ولم يتأخر فى الرحيل إلى الشرق حيث لو فى حلب .

الحب والخمر:

مع الشعر الذى يعالج الحب والخمر ، نشاهد حالةمن الحياة الروحية الغريبة : فالدين هنا ينبغى ان يترك مكانا كبيرا للحياة المدنية (حياة الطبقة العالية، ومجالس الحب والشراب) التى تذهب أحيانا حدّ اللامعقول .

فالحب الرفيع (الملوكى) كان له هوانه من بين الشعراء . فأبو عبدالله محمد

(١) المغرب فى حلى المغرب ، المخطوط ، ج١ ورقة ٢٧٢ ـ ب .

ابن عبدالعزيز ، كاتب حاكم سبتة على عهد المنصور هو أبو زكريا بن أبى ابراهيم ، كتب النموذج التالى :(١) .

– أيتها الجميلة التى ناديتها لاريك حبى ، والسرّ الذى كنت أكنه فى ضميرى .

– أنا ضحيتك . هل تعرفين ماهو ألمى والى أى حد أتألم من الشوق

– يا ليتنى لم أعرف الحب ، ولا لحظة واحدة ، فمن الشوق غرب نجمى (لعب بالكلمات : هوى : سقط).

وعن ابن رشد يذكر ابن سعيد تلك الأبيات التالية :

– ان العشق لا يشغلنى ولكنى لا أنكره ، فكثير ماتسلينى ذكرياته.

– كيف يمكن لرجل فى الستين من عمره ان ينشغل بفتاة صغيرة فى العاشرة لدرجة ان يفقد صبره .

– كان قبل ذلك راضيا ومحترما ، وعندما شده الجمال ، أبعدته العفة.

أما ابو بكر بن عبدالرحمن بن مغاور ، فمناسبة عشق واحد من إخوته لإمرأة من بنى بَنْيقَ ، يصرخ عاليا :

– أيا بنى بنيق ، أوقفوا نظرات غزلانكم الموجهة إلينا ، بماانه لا ثأر بيننا وبينكم.

– هل سمحتم بذوق عسلكم لكل آكل ، ومنعتموه عن نحله هو نفسه ؟

ولم يفتقد حب الغلمان بين الهواة من الشعراء . فابو العباس أحمد الكساء، من قرية ما كارينا قرب اشبيلية ، الذى كان قد سمح لنفسه بحب موسى بن عبدالصمد ،"ظريف" اشبيلية فى ذلك الوقت ، ألف أشعاراً

---

(١) نفسه ، والمخطوط ، ج٤ ورقة ٢٧٢ – ب .

جنائزية فى ذكرى وفاة حبيبه – الغالى[١] ، منه :

– لقد بدأ دق اجراس حبى الأزلى ، بأعلان وفاة موسى بن عبدالصمد

وفى شعر آخر يقول :

– لقد ذهبت إلهة الرياض الى جنتها ، لقد طار الجمال عن الأرض

– والآن فالعشاق فى حداد وحزن ، أنهم يبكون البعض على البعض

أما عن التعريف بشعر الخمر ، فلنقف مثلاً عند أبى الحسن رضى بن رضا ، وأصله من مالقه ، وهو كاتب أمراء بنى عبدالمؤمن حتى عهد الناصر[٢] . وكان هذا الشاعر يتعاطى الخمر الى حدّ انه كان دائما فى حالة سكر[٣] ، ومن شعره هذا :

– أشرب بحراً بعد بحر ، وعانق زهرة بعد زهرة

– جوّل انظارك فى عالم فرح ، فكم من الوقت طال عليك الكدر

– لا تدمن ما تلام عليه ، ولا تقبل الاعذار أبدا .

والى جانب الخمر أضاف أبو بكر عبدالرحمن بن مُغَاور الزنا والسباب[٤]، ومنه :

– الحمد لله . لقد حققنا آمالنا ، فلاعقوبة على الشراب (الخمر) ولا السماع (الموسيقى) .

– لقد حللها لنا القاضى (هذه وتلك) ، وسنشكره مزيداً إذا حلل لنا الزنا

من هذا العرض ، رغم ما به من نقص ، نستطيع استخلاص عدة حقائق ، أولها : السيادة المطلقة للأندلس فى ميدان الأدب . فقد كان الشعراء فى

(١) المغرب فى حلى المغرب ؛ المخطوط ،ج١ ورقة ٥٤ – ب (المقرى ؛ ج٢ ص ١٠٢٢ ، ١٠٥٧ .

(٢) نفسه ، المخطوط ، ج١ ورقة ١٧ – ب.

(٣) نفسه.

(٤) نفسه ، المخطوط ، ج٤ ، ص ١٠٢ – ب .

مجملهم من أصل أندلسي ، الأمر الذى يعنى ان الأمر كان لا يتعلق بنهضة مغربية ، ولكن باستمرار عصر الأمراء المحليين المعروف "بملوك الطوائف . وهذا الافتراض يقويه ما هو معروف من ان الأفكار الأندلسية حقيقة ،هى التى كان يعبر عنها الشعراء ، وهى التى كانت الى ما وراء العدوة (المضيق) من طرف الى آخر فى الدولة الأمبراطورية . واذا كان المجتمع الموحدى له تأثيره على الحياة الادبية بفضل أفكاره الدينية الجديدة ، وممارساته السياسية ، الأمر الذى يظهر فى الشعر الدينى والسياسى ، فقد كان للمجتمع الأندلسى أصداؤه أيضافى الشعر ذى الموضوعات المدنية التى غلبت على التى كانت للموحدين . وهنا لنا ان نتساءل ان كانت الحركة الموحدية قد استطاعت حل المشاكل المعنوية والاجتماعية في الغرب الإسلامى . فالاصلاح الدينى والرقابة على الأخلاق العامة التى قررها ابن تومرت والتى تأكدت بصرامة بمعرفة يعقوب ، لا يظهر أنها أتت بثمارها : فالزنا ، والعشق بنفس الجنس ، ومجالس السماع والشراب ظلت مستمرة فى الأندلس ، بل وعبرت العدوة الى قلب الدولة.

وحقيقة أكيدة ثانية ، وهى ان الشعر كان قد صار فنا من فنون البلاط ، يربط مصيره بمصير الأسرة المالكة ، فباستثناء بعض الشعراء العابرين أوالهواة ، كان معظم العاملين فى صناعة الشعر من الموظفين فى الدولة بالعاصمة أو الأقاليم . وهكذا فلم يكن هناك شعراء محترفين ، وكان الشعر لا يطعم أصحابه إلا بشكل بائس . وهكذا لم يكافىء المنصور إلا شاعرا واحدا بمناسبة الاحتفال بانتصار الأرك . وابن خروف اليائس من ضعف رعاة الشعر ، كان عليه ان يهاجر ، لكى يموت بحلب . واذا كان الشعراء يدخلون من وقت الى آخر تحت رعاية السادة (الامراء) من الموحدين ، فإن هؤلاء الأخيرين كانوا مستغرقين فى مهام أخرى أكثر ضرورة .

ومن المقبول طبعا انه رغم العدد الكبير من الشعراء فى ذلك العصر ، إلا

أنهم كانوا مشغولين بوظائفهم ، يائسين من جدوى رعاتهم الكبار بالنسبة لهم ، فكانوا لا يقدمون أفضل ما لديهم ، وهكذا أصبح فى معظمه عبارة عن تركيبات عبقرية من العبارات الطنانة ، والكلمات الفخمة ، والصور المصطنعة ، والاستعارات التى يصعب حلّ رموزها .

وفى النهاية نشير الى العلاقة التى تربط الانتاج الشعرى بالموقف السياسى فى تلك الفترة . فبفضل فترات السلام والأمن ظهر كمية كبيرة من الشعر والشعراء ، كما ظهرت أنواع جديدة من الموضوعات ، فى تلك الفترات الواقعة ما بين قعقعة الحرب وضجيج السلاح .

هذه الاعتبارات الخاصة بالانتاج الشعرى ستتفق فى الخواتيم العامة التى سنحاول استخلاصها بالنسبة لمجمل الحياة الدينية والفكرية . وهذا الاتفاق يرجع الى حقيقة ان الشعر بصفته الرابطة المتميزة بين كل المفكرين يمثل كافة الأفكار السائدة وقتئذ ، بشكل تقريبى .

ومن أجل ختام الفصل الحالى ، فمن المناسب التركيز على بعض العلامات التى يمكن ان تظهر لنا مميزة . وهنا نذكر أنه لأول مرة يصبح المغرب مركز نشاط فكرى وضاء ، بفضل حركة التوحيد لابن تومرت ، التى فجرت أول مشاعلها . ومن غير شك فإن الأندلس ونخبتها قامت بدور فائق . ولا شك انه يمكنها الادعاء بأنها انما كانت تواصل القيام بنشاطها التقليدى . ولكنه ما كان يتهيأ لها ذلك بدون هيمنة المغرب الذي كان قادرا على تهيئة فترة من الهدوء والاستقرار . وحقيقة ان مراكش (العاصمة) وخليفتها كانت المركز الذى يتجه نحوه التيار العلمى والأدبى ، أمر يؤكد دور المغرب ، ويجعل منه حامى حمى الفكر والثقافة .

أما عن الحركة الفكرية نفسها ، فنلخص بشكل سريع علاماتها المميزة كما تبينت لنا على طول الدراسة التى خصصناها لها . وأول ما نلاحظ هو أهمية

العلوم والأفكار الدينية الراجعة الى طبيعة مذهب التوحيد ، وخاصية الدولة الدينية . ومن ناحية أخرى نلاحظ عدم التخصص فى العلوم والآداب ، وهى العلامة المميزة حقيقة لنسبة كبيرة من النخبة الاسلامية فى العصر الوسيط.

وفى النهاية نحاول توضيح حكم عام على مغزى تلك الحركة .

فرغم هيمنته كان المغرب لا يستطيع ان يملى مذاهبه وأفكاره ؛ فالأندلس كانت تحتفظ دائما بشخصيتها التقليدية . وبسبب ضيق الوقت على ما نظن ، لم يستطع أى من المغرب أو الأندلس الاندماج فى الآخر . ففى وقت كانا تتفقان وتعيشان فى علاقات حسنة ، ولكن لكى يتواجد الأثنان فى وقت آخر ويتصادمان . وكانت الأندلس هى التي توجد أفكارها بعناد لكى تصادم أفكار المغرب ، وبالتالى كان عليها ان تدفع ثمن ذلك العناد .

واذا كان النشاط الفكرى يعبر عن نفسه بوضوح ، فإن الفترة تظهر على الأقل كعصر انتقالى . فاختلاط التيارات التى لم تستطع الاندماج فيما بينها ، ألم تكن علامة مميزة ؟ ولكنه لو أن الظروف كانت مواتية ، فنحن نظن ان مثل تلك الفترة كان يمكن ان تؤتى ثمارها بعد ذلك بقليل . فربما كانت قد تمكنت من تقديم حركة فكرية موحدية حقا ، كما كان يمكن ان تكون نتاج العصر الموحدى نفسه ، أو قبل ذلك دولة مغربية - اسبانية ، كتلك التى كانت قد بدأت فى التكوين على عهد المرابطين . وكان ذلك يمكن ان يكون شيئا أخر غير الذى يعمله ابن تومرت ، أو يوسف أو يعقوب ، الذين وجهوا النشاط الفكرى كما ارتأوا أنفسهم مثل بقية أعمال الدولة . والحقيقة ، ألم يظهر المنصور كانه المحور الذى تدور حوله الحركة الفكرية ؟ ألم يملى فى يوم من الأيام الظاهرية كمذهب رسمى للدولة ، وهو يطارد المالكية ؟ ألم يفرض فى يوم آخرعلى اليهود اجراءات غير عادية . ومرة أخرى ألم يمنع الفكر الحر ، ويجرّم الفلاسفة مرة أخرى لكى يعفو عنهم بعد ذلك بقليل من الوقت ؟

والسؤال الذى يوضع أمامنا الآن هو من أجل معرفة إذا ما كان الأمير نفسه متأثرا بصفة عدم الاستقرار فى مجال الفكر ، أم انه هو الذى كان يؤثر فى آخر الأمر ، حسب هواه . والذى نراه أن الحقيقة تكمن فى فكرة التأثير التبادلى . فالاختلاط ، والتردد ، وعدم الاستقرار هى التى أدت الى الاختفاء التدريجى لمذهب ابن تومرت ؛ فكل تلك الأمور كانت تمثل من غير شك المظاهر الأولى لانهيار حركة التوحيد فى المغرب .

الحياة الفنية

فى المغرب كما فى الاندلس ، بينما كانت القوات الموحدية تتقدم منتصرة ، وهى تفتح الطريق أمام الأفكار الدينية لابن تومرت ، وبينما كان الاستقرار السياسى يسود فى كل مكان ، وازدهار الفلسفة والأدب يدفع جذوره عميقة فى الأرض ، بدأت ترتفع المنشآت المغربية الكبرى ، ذات الطابع الموحدى.

واذا كان المنصور قد قام هنا بدور مهم ، فيجب الاعتراف بما كان من الفضل لسابقيه ، عبدالمؤمن ويوسف . فالأول بنى جامع تنملل ، بالقرب من ضريح المهدى (١) ، وهو أول معبد موحدى ، مازالت بقاياه موجودة الى الآن . ولقد بنى أيضا رباط تازا (٢) . وتبع الثانى نهج والده ، فبدأ البناء الحقيقى بمدينة الرباط (رباط الفتح)(٣) ، ولكنه اهتم أكثر من ذلك باشبيلية التى بنى مسجدها الكبير(٤) .

---

(١) القرطاس ، النص ، ص ١٢٦ ؛ وقارن هـ . ترآس ، معابد وقلاع موحدية (بالفرنسية) ، ص ٢٧ .

(٢) انظر فيما سبق ، ص ١٣٥ ، كما وضع الأساسات الأولى لمدينة الرباط ، ودمغ مراكش العاصمة بطابعه الخاص.

(٣) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٤) ابن صاحب الصلاة ؛ المخطوط ١٦٥ – أ ، فصلة انتونيا (اشبيلية ومبانيها الأثرية العربية) ، ص ١٣٤ وما بعدها . (القرطاس ، ص ١٣٨) . ان يوسف هو الذى جعل من اشبيلية مدينة كبيرة . فقد أعاد بناء أسوارها من جهة النهر ، عندما تهدمت سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بسبب الطوفان (الفيضان) وفى سنة ٥٦٦ هـ أقام فى المدينة ، وانشأ جسرا على الوادى الكبير لاستخدام أهلها وكذلك أهل الشرق (ضاحيتها) الذين يستطيعون عبوره دون دفع المكس =

ولكنه رغم ماكانا عليه من كونهما بنائين ، فإن هذين الأميرين كان عليهما ان ينخسفا أمام خلفهُما المنصور(١) . فإليه تنسب أكبر البنايا الخاصة بالدولة المؤمنية . ومن بين العمائر التى بقيت من العصر الموحدى ، ثلاث منائر شهيرة هى : الكتبية بمراكش ، وبرج حسّان بالرباط ثم برج الجامع الكبير باشبيلية (الخيرالدا حاليا) ، وهى تتشابه فيما بينها بشكل ملفت للنظر . ومن هذا التشابه ظهرت فكرة ان الأبراج الثلاثة ربما كانت "إخوات" ، وربما بنيت فى وقت واحد ، على يدى نفس الأمير (الذى ربما كان المنصور) ، وبمعرفة نفس المهندس ، وهو من يطلق عليه اسم "جابر"(٢). وذهبت القصة فى مداها حتى نسبت بناء كل من جامعى الرباط واشبيلية الى المنصور (٣). ولكنه أمر لا يصدّق ان تنسب كل هذه الثروة المعمارية الى يعقوب ، مهما وصف بأنه من كبار البنائين ، من حيث ان عهده الذى لم يتجاوز الخمسة عشر عاما كان مليئا بالحروب . هذا ، كما ينبغى الا يغيب عن الذهن ان بناء كل واحد من تلك العمائر الثلاث - كما هو الحال بالنسبة لكل العمائر العظيمة - كان وثيق الصلة بالأحداث التاريخية .

ماذا كانت اذن مساهمة المنصور ؟ إن غياب كل الأعمال الأصلية الخاصة بالعصر مما يختص بالفن تجعل عمل مؤرخ الفن فى هذا المجال ، من أصعب الأمور . والمهم أننا سنحاول رغم ذلك ، بإلقاء الضوء هنا على دور أميرنا الحقيقى ، اعتمادا على المعلومات المتفرقة هنا وهناك .

= ، وايضا لمرور العساكر . وبنى ايضا جسوراً اخرى حول المدينة . وجلب الماء فى قناة (ساقية) ، وبنى القصبية ، وقوى أبواب المدينة من جهة النهر (الوادى) لمواجهة آثار الفيضان ، كما بنى قصورا فيها وراء باب جهور (قارن . ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٠ -أ ، ١٦٠ - ب ، وفصله انتونيا ، ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(١) قارن ، ف . فيريول (Ferriol) ، ضرائب تنمل ، هسبيريس ، ١٩٢٢ ، ص ١٦٣ .

(٢) انظر جيريبور دى برانجاى (De Perngey) ، محاولة عن العمارة العربية (بالفرنسية) ، ص ١٠٣ ؛ أ.ف. كالفير (Calvert) ، بقايا عربية بالاندلس (بالانجليزية) ، ص ٣٧١ ؛ هـ. تيراس ، الجامع الكبير باشبيلية ، ذكرى هـ . باسية (بالفرنسية) ، ١٩٢٤ ، ج٢ص ٢٥٣ .

(٣) القرطاس ، ص ١٥١ ، والترجمة ، ص ٣٢١ .

فأصل الكتبية يرجع الى أيام المرابطين . وفي كل مرة كان أمير مغربي يستطيع اقرار فترة من السلام والامن النسبي ، كان الجامع يصبح موضعا لأعمال جديدة ، من : التوسعة ، والتجديد ، والترميم أو الهدم واعادة البناء من جديد ، حسب مقتضى الأحوال . وهكذا فبعد أن أنشيء في المدينة جامع كبير واسع ، أضاف إليه عبدالمؤمن حسب صاحب الاستبصار في اتجاه القبلة بناءً له نفس القدر وأكثر ، وذلك في موضع قصر قديم(١) . والى جانب هذين المبنيين ، قرر بناء ذلك المنار الضخم الذى لا نظير له في بلاد الاسلام ، وان ابنه يوسف هو الذى أكمله (٢). هذا بينما ينسب صاحب القرطاس تلك المئذنة (الكتبية) إلى يعقوب (٣) .وذلك في الوقت الذى لا يقدم الاستبصار أية اشارة الى ذلك . وهنا ننظر فيما إذا كانت معلومات ليون الافريقي (الحسن الوزان) يمكن ان تقدم لنا وسيلة للخروج من هذا المأزق . فتبعا لمعلومات ذلك المؤلف ، وسع المنصور ذلك الجامع بمقدار ٥٠ (خمسين) ذراعا من كل جانب ، وزينه بعدد من العمد الجميلة التي نقلت من الأندلس . كما أمر بحفر صهريج واسع له نفس مساحة الجامع وأمر بتغطيته بالقباب (٤) . وفوق ذلك فقد أمر باقامة برج من الحجر المنجر ، قياساته واسعة أشبه ببرج الكوليزيه (´Colisee)في روما (٥) .واعتمادا على تلك الرواية ، يمكن لنا ان نستخلص أنه اذا كان الجامع ومنارته قد بنيا بمعرفة عبدالمؤمن واكتملا على عهد يوسف ، فإنما كانت فقط موضع توسعة وأعمال ترميم على عهد يعقوب .

أما عن جامع اشبيلية الكبير فله تاريخ مشابه وان كان أكثر حداثة وأقل تعقيد . وابن صاحب الصلاة يعطينا معلومات تفصيلية عن تاريخ بنائه .

(١) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨٠ ؛ ابن الاثير ، ج١٠ ص ٤١٣ ؛ الحلل ، ص ١١٩ ؛ هـ . تراس ، معابد وقلاع موحدية ، ص ١٠٣ .

(٢) الاستبصار ، الترجمة ، ص ١٨١ .

(٣) القرطاس ،ص ١٧٩ .

(٤) ليون الافريقي ، نشرة شيفر (Schefer) ، ج١ ص ١٩٣ .

(٥) نفس المصدر .

فبعد استقرار الموحدين فى اشبيلية ضاق جامع المدينة وقتئذ (جامع عَدَبَّس) عن استيعاب المصلين الذى اضطروا الى الانتشار فى المجنبات الصغيرة وفى الأسواق (المجاورة) (١) . ولكنه فى شهر رمضان من سنة ٥٦٧هـ /مايه ١١٧١م (٢) أصدر يوسف الأوامر بالبدء فى بناء جامع جديد . واختار فى داخل القصبة موضعا لبناء المعبد ، حيث هدم كثير من البيوت .. وعهد بالعمل الى رئيس العرفاء (المعماريين) أحمد بن باسَه ، الذى كان يساعده عدد من البنائين العرفاء ، من الأندلسيين ، ومن مراكش ، وفاس ومنطقة العدوة (المضيق) . وشارك في العمل اعداد ، من صناع "السقالات" الخشبية ، والنجارين ، وعمال اليومية والصناع ، وبالحساب اتضح انه ينبغى ان يكون عمق الأساسات اكثر طولاً من ارتفاع البناء . واستخدم فى البناء الحجر والطابية (الجدران المصبوبة) والملاط (المونة) .

والى جانب احمد بن باسه ، كان أبو داود يلول بن جلداسن ، من رجال البلاط الخلافى ، يشرف على نفقات البناء . وفى بعض الأحيان كان أبو بكر ابن زهر وابو بكر البنياقى يسند اليهما هذا الاشراف ، بمساعدة عبدالرحمن ابن مروان العنسى ، الغرناطى أصلا . ولكن هذا الأخير لم يكن أمينا فعزل . وعندئذ عهد بالاشراف المالى الى أبى داود ، يساعده من يسمى ابراهيم الدبّاَغ مع مشاركة ابن زهر .

وكان اسفل المعبد صهريج قديم فحول مجراه نحو الصحن . وأظهر عرفاء البناء حماسة شديدة فى تفصيل قبة المحراب وبنائها . واظهروا مهارتهم فعلا فى بناء القباب وفى عمل الجصّ . وفى جدار المحراب ، على اليسار ، كان هناك ساباط (ممر مسقوف) مخصص للأمير ، يربط ما بين القصر الملكى والجامع . وفى الحائط وعلى يمين المحراب ، كان هناك ما يشبه الحجرة المسقوفة بقبة ، بنيت خصيصاً لتكون مأوى للمنبر ، والتى كانت رقيقة تثير الاعجاب . وكان المنبر مطعما بالخشب الثمين المنقوش ، وبالعاج وصفائح الذهب والفضة .

---

(١) ابن صاحب الصلاة ؛ المخطوط ، ورقة ١٦٥ - ب ، والفصلة ، ص ١٣٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٦ - ب ، والفصلة ، ص ١٣٥ .

وكانت المقصورة (الملكية) مصنوعة من العود (الخشب) الثمين . وكان الخليفة بنفسه وبمعاونة أخيه : السيد أبي حفص ، يشرف على العمل وعلى توزيع « البركات » (الأجور) . وفى اليوم الـ ١٤ من شعبان سنة ٥٧١هـ / ١٧ فبراير ١١٧٥م ، وهويوم انتهاء الأعمال ، أمر أمير المؤمنين بصرف العرفاء من المهندسين والبنائين ، وكذلك بقية الصناع . وهكذا استغرق العمل ثلاث سنوات وأحد عشر شهرا هلاليا (١) . ويؤكد المؤلف ان العمل استمر بدون انقطاع على مدى فصول السنة (٢) . ورغم ذلك فالظاهر ان الأمر لم يكن كذلك ، فبناه علي ابن صاحب الصلاة نفسه ، أن افتتاح المسجد الكبير نفسه كان في سنة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م أى بعد ست سنوات من التاريخ السابق . وفي شهر ذى الحجة ٥٧٧ هـ / ١١٨١م كان السيد أبو اسحق ابراهيم ، ابن الأمير وحاكم اشبيلية عائداً من زيارة والده بمراكش ، وبهذه المناسبة وتبعا لأمر الخليفة أقام صلاة الجمعة بالمسجد الكبير . وعندئذ رفع منبر الجامع القديم لابن عَدَبّس ، والتي كانت مقصورته قد رفعت فى شهر شعبان ٥٧٠ هـ/ فبراير – مارس ١١٧٠م . وكان أول خطيب هو أبو القاسم عبدالرحمن بن عفير اللبلى ، الكاتب فى خدمة السيد الوالى (٣) .

ان السطور السابقة رغم أهميتها ، لا تمثل إلا مقدمة لتاريخ المنارة ، أى الي ما يتصل بموضوعنا مباشرة . وعندما عرض ابن صاحب الصلاة الى هذا الموضوع ، بدأ بالتغنى بمدائح المنارة الكبيرة : "الصومعة" . فهى لا نظير لها فى أى مسجد بالأندلس . وهى مبنية بالطوب ، لها شكل عجيب ، كما اشتملت على مستجدات ملفتة للنظر . وهى ترتفع عاليا فى السماء حتى

---

(١) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٧ – ب ، والفصلة ، ص ١٣٦ .

(٢) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٦٧ – ب ، والفصلة ، ص ١٢٩ ، حيث يقول المؤلف ان الجامع تم فى عدة سنوات .

(٣) ابن صاحب الصلاة ، المخطوط ، ورقة ١٠٨ – أ ، الفصلة ، ص ١٥٧ .

أنها ترى على بعد مرحلة من اشبيلية . وقد تمّ بناؤها بناء على أوامر الخليفة عندما حضر الى اشبيلية فى ١٣ صفر ٥٨٠ هـ / ٢٨ مايُه ١١٨٤ م ، عند حملته على شنترين . فلقد استدعى ابا داود يلول بن جلداسن ، وأمره بالبدء ، أثناء الحملة – ببناء أسوار القصبة ، وانشاء برج للجامع يربطه بتلك الأسوار (١).

وبدأ أبو داود بهدم المنازل فى المكان المختار تبعا للخطة المرسومة ، ثم انه حفر الأساسات للأسوار . ولكنه للأسف فإنه مات بعد شهر واحد ، تبعه الخليفةبعد ذلك بقليل (٢). وعندما أعلنت خلافة أبى يعقوب ، لم ينفذ بنفس الدقة مشروعات أبيه الذى توفى أمام شنترين . فقد أصدر الخليفة الجديد أوامره الى محمد بن مروان ، الغرناطى أصلا ، والذى حل محل أبى داود ، بصرف النظر عن بناء الأسوار ، والاستمرار فى بناء ا لمنارة . وبعد حفر الأساسات بجوار المسجد ، عثر المهندس العريف : أحمد بن باسه على بئر طماه بالحجارة والجير ، ورصفه حتى تتأكد مقاومة الأساسات . وكان المشرف على المصروفات هو أبو سعيد محمد . وبنى العريف المهندس القسم الاسفل بالحجارة المعروفة «بالحاجون» التى أخذت سور قصر بن عباد القديم . واستعاض عن درجات السلم المعتاد بطريق محنى انحناء لولبيا خفيفا لاستخدام دواب الركوب ، والرجال ، والحرّاس وبعد عدة أشهر عزل ابو سعيد المشرف على النفقات ، وتوقف العمل الى أن حضر من مراكش أبو بكر ابن زهر (٥٨٤هـ/ ١١٨٨م) . وبناء على تعليمات الأمير ، أعطى ابن زهر الأوامر بالعودة الى العمل من أجل إنهاء بناء البرج ، وإصلاح الأجزاء من الجامع التي كانت قد أصابتها الشروخ . وهكذا بدأ على الغماري ، المهندس العريف ،

(١) ابن صاحب الصلاة ، والمخطوط ورقة ١٦٨ – أ ، والفصلة ، ص ١٣٨ .

(٢) نفس المصدر .

العمل ، فرمّ الأروقة الثلاثة التي كانت قد هدمت جزئيا فى الجانب الغربى ، وفى الوسط ، وأسسها وقواها . فمن جهة الغرب بنى من الخارج مسنداً مرتفعا كما كسى البرج بحجارة الكَّدان . وفى السقف المبنى بشكل افقى بالطوب فتح نوافذ مكسوة بالزجاج للإنارة المباشرة فى بيت الصلاة . واستمر العمل لعدة سنوات . ولما كان أبو بكر بن زهر قد ذهب الى مراكش لدى الأمير ، فإن العمل توقف لحين عودته الى اشبيلية لأنه كان قد اعتاد ان يشرف بنفسه على البنائين .

وعند عودة الأمير من موقعة الأرك سنة ٥٩١ هـ / ١١٩٥ م ، أعطى الأوامر ببناء الأسواق حول الجامع ، وان يرفع فوق الصومعةمجموعة من الكريات (تفافيح) المتتالية المصنوعة من المعدن المذهب هذه التفافيح أثارت اعجاب ابن صاحب الصلاة . فلقد رفعت فوق الصومعة فى حضور الأمير . وكان الاحتفال بذلك فى يوم ٣٠ ربيع الثانى من ٥٩٤هـ/ ١٠ مارس ١١٩٨م . وفى هذا اليوم أتى المهندسون لكى يغرسوها فى القضيب الحديدى الذى ثبت مسبقا فى قمة المبنى ، والذى كان يزن ١٤٠ ربعا من الحديد . وان تذهيب الكريات الأربع (٣ ثلاثة كبيرة وواحدة صغيرة) كلّف مبلغ ٧٢,٠٠٠ (اثنين وسبعين ألفا) مثقال يعقوبى . وكانت التفافيح قد كسيت ُبالقماش حتى لا تتسخ بالأيدى أو بالتراب ، ونقلت على عجل حتى المنار وسط فرحة الجموع التي كانت فرحتها بالحمد لله والشكر . وعندما رفعت الكسوة عنها ، برق الذهب بشكل أغشى العيون(١). أماعن الأسواق فتطلبت البدء باعمال

(١) وهنا لا باس من ذكر رواية صاحب القرطاس . فهو يروى ان التفافيح كانت من الكبر بحيث ان الوسطى منها لم يمكن ادخالها من باب المؤذن الأمر الذى دعا الى هدم الجزء السفلى المرخّم من الباب . وكان سطور الحديد الذى ركبت عليه التفافيح يزن وحده ٤٠ ربعاً . اما الصائع الذى أنشأ التفاحات والذى علقها فى راس الصومعة ، وهو رجل يسمى : ابا الليث الصقلى فقد استخدم من أجل تذهيب التفافيح ، مبلغ ١٠٠,٠٠٠ (مائة الف) دينار من الذهب (ص١٣١ والترجمة ، ص ٣٢٢ .

توسعة فى المنطقة المحيطة بالجامع . وهكذا هدمت المنازل ،والدكاكين والفنادق المجاورة ، فى ٧ من ربيع الأول سنة ٥٩٢هـ/ ١٠ فبراير ١١٩٦م ، وذلك بعد تعويض أصحابها . وبنيت الأسواق الجديدة والدكاكين ، وأحيطت بسورمربع مواز للجامع ، ولها٤ (أربعة) أبواب ، واحد فى كل جانب . وعندما تمّ البناء نقلت اليه أسواق العطارين ، والقماشين والخياطين .

وكما رأينا سابقا فنحن نثق فى رواية ابن صاحب الصلاة المفصلة . وهكذا يمكن ان تختتم بشيء من التأكيد انه إذا كان الجامع ومشروع بناء المنارة يرجعان إلى يوسف ، فإن الصومعة نفسها والترميمات العديدة التى أحدثت بالمسجد ترجع الى يعقوب المنصور .

أما عن جامع حسان فهو يمثل لنا عملا خاصا بيعقوب وحده. وفيما يتعلق بانشاء مدينة رباط الفتح (الرباط العاصمة) ،التى لم تكن أصلا إلا موضعا لحشد الجيوش للحملات العسكرية فى الأندلس ، فهي وثيق الصلة بالأحداث الأخيرة . وهذه دارت أولا فى بلاد برغواطة فى حياة عبدالمؤمن ، ثم فى الأندلس حيث كانت موقعة الأرك أسعد المصادفات . وبوصف مدينة الرباط (رباط الفتح) ثغراً جهاديا مع جامعها الكبير ، لم تعد المدينة أكثر من نذر يقدم رمزاً لوجه الله ، وعلامة شكر على ما أنعم به من العون الذى آزر به يعقوب ، ودليلِ على التدين الايجابى والمقاتل لبطلنا الموحدى (١). فبعد عودته من الأندلس (٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ – ١١٩٧ م) كان بدء العمل فى تأسيس « رباط الفتح » ، إذا أخذنا برواية صاحب القرطاس (٢). ولكنه إذا أخذنا فى الاعتبار مؤلفين أخر من أهل الثقة فيمكن إجراء بعض التعديلات

(١) قارن ج.مارسيه ، هامش على الأربطة في بلاد البربر ، منوعات هـ . باسيه (بالفرنسية) ، ١٩٢٥ ، ص ٤١٢ .

(٢) القرطاس ، ص ١٧٠ ، والترجمة ، ص ٣٢٣ وما بعدها .

على هذه الرواية . فبداية رباط الفتح ترجع فى الحقيقة الى عبدالمؤمن . فلقد كانت وقتئذ معسكراً للموحدين ، وبناء المدينة نفسه يرجع الى يوسف . فحسب عبدالواحد حقيقة ، فإن تخطيط المدينة ورسم حدودها تمت على عهد يوسف الذى بدأ العمل ، ولكن المنية لم تمهله ليكمل ما كان قد بدأه . وهكذا كان ابنه هو الذى تابع العمل البناء وأكمل الأسوار . وبعد ذلك بنى يعقوب جامعا عظيما ذا قياسات غير عادية . وكانت عليه منارة بالغة الارتفاع لها طريق لولبى ، تمكن دواب الحمل من الصعود بالطين والطوب والجير حتى أعلاها . ولكن الجامع ظل غير كامل حيث توقف العمل فيه بوفاة يعقوب . وعلى العكس من ذلك فإن المدينة بتحصيناتها كانت انتهت على عهد المنصور (١).

وهناك حدث أكيد ، وهو ان بناء الجامع ومنارته متقدم على بناء المدينة ، وهذا الأمر يسمح باعتبار سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧م(٢)، كتاريخ للانتهاء من بناء أسوار المدينة ، وكبداية لبناء الجامع والصومعة .

السمات العامة للمنارات الثلاث، بمراكش، واشبيلية، والرباط:

يظهر للوهلة الأولى أن الكتبية ومنارته لا تدخلان فى إطار دراستنا من حيث نسبة بنائهما الى عبدالمؤمن ويوسف . وبناء على ذلك لا يكون من المناسب إلا معالجة المنارتين (الصومعتين) المنسوبتين الى يعقوب ، وهما الخاصتين بكل من اشبيلية والرباط . ومع ذلك فمن حيث ان الثلاثة تكون مجموعة منسجمة فيما بينها ، فإن ذلك يمنع من أية محاولة للتفرقة بين الواحدة منها والأخرى ، وهنا لا ينبغى نسيان الرواية التى تنسبها جميعا الى

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ١٩٢ .

(٢) القرطاس ، ص ١٧٩ ، والترجمة ص ٣٢٣ .

مهندس بناء واحد (١) . وهكذا لا يكون من غير المناسب إلحاق الصومعة الأولى بالاثنين الآخرين .

وفى نظرنا ان شهرة المنارات الثلاث ترجع بشكل عام الى كونهما من أعمال الفن الحقيقية ، والعالمية التى تتفق مع القواعد العامة للجماليات المعمارية ، من : الأصالة ، وروح التضحية ، والحقيقة ، والقوة ... الخ (٢) . وعن طريق هذه الابنية الثلاث نصل الى مرحلة ثورة فنية ، ليس فى الحقيقة الا نتيجة طبيعية للثورة الدينية والاجتماعية التي قام بها الموحدون . وهذا ما تفسره القياسات الكبيرة لمعابد ذلك العصر . فتذوق المنصور للأبنية الضخمة، وحاجة الأنصار من الموحدين أو من العساكر المقيمين بأعداد وفيرة فى مراكش العاصمة ، أو المتجمعين فى الرباط ، موضع الحشود العسكرية ، أو المحتشدين فى اشبيلية من أجل الجهاد ، كل ذلك كان استجابة لضرورات أوجدتها الثورة الدينية . وهكذا فعلى عكس المعابد الكبرى فى العصور السابقة ، مثل جامع قرطبة الذى تمّ بناؤه ببطىء وبطريقة صعبة على طول حكم أسرة ملكية بأكملها على طول العديد من السنين ، فإن المعابد الموحدية بنيت دفعة واحدة حسب برنامج مُقرّر سلفاً .

ففى هذه الصفة المشتركة أولاً وقبل كل شيء ، تكمن أصالة الأبراج الثلاث . ثم ان مايلفت النظرة بقوة بعد ذلك ، هو الاندفاع نحو السماء ثم الشكل المربع أو المكعب ، الذى سيصبح الشكل التقليدى ، لطراز المنارة المغربية – الأندلسية ، وبرج الناقوس – المنارة الاسبانى . وإذا كان الانطلاق نحو السماء يدخل فى صفات العظمة الراجعة الى الثورة الدينية الموحدية ، فيجب الاشارة الى ان الابراج الثلاثة اقتبسوا من غير شك كلهم المربع من

(١) انظر فيما سبق ، ص ٢٧١ وهامش ٢ .

(٢) انظر ، راسكين ، مصابيح العمارة السبع (الترجمة الفرنسية ، ١٩٣٠م) .

المبانى القديمة السابقة . فمن المحتمل ان يكون طراز المنارة المربعة قد جلب الى افريقية من دمشق (٧٠٧ هـ/ ١٢١١م) منذ أيام الأمويين (١) . وأول نموذج نُفّذ فى افريقية هو منارة جامع القيروان (٢) . وعن طريق افريقية دخل النموذج الى اسبانيا ، حيث تمّ اقتباسه فى شكله الاسلامى فى كتالونيا وفى الروسيون ، ومن هناك انتشر فى فرنسا وفى الولايات الرينانية (٣) . ورغم ان هذا الشكل كان قد اقتبس منذ وقت مبكر من إفريقية ، فهناك رأى يميل الى ان الموحدين الأوائل اقتبسوه عن طريق الأندلس بعد أن كان قد تأقلم فى شبه الجزيرة . وهنا يصبح جامع قرطبة الكبير هو النموذج بالامتياز الذى حاول الموحدون جهدهم ان ينشئوا له مثيلاً . وهنا يمكن التأكيد على ان منارة جامع قرطبة الكبير ، بفضل قامتها الممشوقة ، تمثل النموذج الأصل للأبراج الثلاثة التى ترجع الى النصف الثانى للقرن الثانى عشر (السادس الهجرى) . ومع ذلك فعبدالواحد ، يقرر ان المنصور أراد ان يجعل من صومعة الرباط قرينا لمنار الأسكندرية القديم (٤) . وهنا يحسن التساؤل عما إذا كان لذلك التأثير هو الآخر اعتباره المقبول .

وهنا تستحق خاصية وجود مطلع منحدر لولبى الشكل مجموعة على

---

(١) انظر ديولافوا ، مجموعة فن واحد (DieuLa Foy ArsUna)، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية)،ص٣٥ .

(٢) فكرى (أحمد) ، مسجد القيروان الجامع ، ص ١٢ .

(٣) ديولافوا ، مجموعة فن واحد ، اسبانيا والبرتغال (بالفرنسية) ، ص ٣٥ .

(٤) المعجب ،ص ١٩٢ ـ حيث كان منار الأسكندرية موضع اعجاب المغاربة الذين سمحت لهم الظروف بزيارة الاسكندرية في ذلك الوقت . فقد كان مربع الشكل ، مرتفعا فى الهواء بشكل مثير ، ولم يكن له درج بل منحدر لولبى يسمح لفارسين بالصعود سويا فيه الى القمة . وانظر ابن جبير ، ص ٤١ ؛ الاستبصار ، المخطوط ورقة ٤٣ ـأ وما بعدها .

قبوات بدلاً من الدرج ، ان تكون سمة أصالة لا شك فيها . هذا ، ولو ان جيرو دى برانجى (Girault dr Prangey) ينكر تلك الأصالة على المهندسين الموحدين ، ويريد ان ينسبها الي العبقرية البيزنطية (١) . ولكننا فى ذلك الوقت نكون بعيداً عن ذلك العصر الذى كان فيه على الفن الاسلامى أن يقتبس عناصره من فارس أو من البيزنطيين ، فهو الآن (فى القرن الثانى عشر / ٦ هـ) فى مرحلة النضج الكامل ، وأنه كان الذى يؤثر على العكس ،بدوره ، على فن البلاد غير الاسلامية ، مثل : اسبانيا المسيحية ، وفرنسا وكذلك أيطاليا . وكل الظواهر تدل على ان هذا الابتكار الأصيل كان ابتكاراً موحديا خالصا ، نابعا من حاجات الموقف الآنى الضرورية . فكأن الحاجه الى ان يتم النقل الى أعلى ، الى مسافة أكثر من ٦٠ (ستين) مترا ، مواد البناء ، من: الحجارة والطوب والملاط – فضلا عن التفافيح – هى التى مثلت مشكلة كان من الضرورى البحث لها عن حل بأى ثمن . وهكذا كان السبيل الى اختراع ذلك الطريق المنحدر فى شكل لولبى ، والذى كان يسمح للعمال ولدواب الحمل بالوصول بسهولة الى الجزء الأعلى من بدن الصومعة ، حيث الشرفة .

صومعة اشبيلية:

ومنار اشبيلية يحمل حاليا اسم الجيرالدا (Giuralda) بمعني الدوارة – نسبة الى منحدر الصعود اللولبى أوالحلزوني – وهو يقف حاليا على يسار باب القضبان (بويرتادى لوس بالوس : Puerta de Los Pols) ، على الواجهة الشرقية للكتدرائية التى يكون برج الناقوس فيها . ويندفع البرج العظيم عاليا نحو السماء الى ارتفاع ٩٣ (ثلاثة وتسعين) متراً ، إذا أخذنا فى الاعتبار أن هناك حوالى مترين مغروسة حاليا تحت الأرض نتيجة لارتفاع الأرض فى الخارج على مرّ العصور . ومن السهل ملاحظة ان المبنى الأثرى الحالى ينقسم

---

(١) ج . دى برانجى ، محاولة لدراسة العمارة عند العرب (بالفرنسية) ، ص ١١٠ .

الى جـزئين ، يمثل الجـزء الرئيسـى منهـمـا المبنى الموحـدى ذا الطراز العـربي . وارتفاعه ٦٧ (سبعة وستون) متراً من سطح الأرض الى الشرفة (عند السطح) أمـا الجـزء الآخر حـيث الأجـراس ، والذى لا يـتفـق طرازه للأسف مع العـمـارة الاسلامية ، فهـو حديـث . وهو يرتفع من السطح الي القـمة لمسافة ٣٤ (اربعة وثلاثين) مترا . والبناء الموحدى مصنوع من الطوب ، وهى مادة البناء المفضلة فى الأندلس ، سوى الجزء الأسـفل الذى يرتكز على أساسات صلبة من كتل الحجارة ، الآتية حسب رواية ابن صاحب الصلاة ، من أسوار قصر ابن عباد القديم(١) . والمحتـمل ان تكون كـتلا من الصـخر من قصـر قديم ، من حيث جـرت العـادة على اسـتـخـدام مـواد المبـانى الأثـرية القـديمة ، من : الحـجـارة والاعمدة فى انشاء المباني الاسلامية ، من : المساجد والقصور والتحصينات . والجزء من حجارة الأساسات يرتفع الى حوالى مترين ونصف المتر .

وعلى عكـس المنارات المغـربيـة السـابقـة، مـثل ، القـيـروان والزيتـونة ، التى ترتفع وهى تضيق من أسفل على أعلى ، فإن عرض صومعة أشبيلية ، وهو ١٥ (خـمسـة عشـر) متراً هو نفس القيـاس من اسفل كـمـا فى أعلى حتى شرفة السطح . وهنا ينبغى مـلاحظة ان سـمك الجـدران الخـارجـيـة الذى يعـادل ٢ (متـرين) عند مسـتوى سطح الأرض ، يزداد سـمكا مع الارتفـاع الى أعلى ، بحـيث تكون المسـافـة الـداخليـة بين الجـدران فى أعلى المنارة أقل منهـا عند القاعدة ، وهـو أسلوب رفيع فى البناء مبنى على حسابات دقيقة تضـمن ثبات البناء واستقراره(٢) . أما عن وسط البرج فتشغله نواة ، عبارة عن كتلة مكتنزة من البناء ، ترتفع دفعـة واحـدة الى أعلى دون اختـصـار فى السـعـة أو زيادة ،

(١) المن بالإمامة ، المخطوط ، ورقة ١٦٨ - ب ، ١٦٩ - أ ، والفصله ؛ ص ١٣٩ .

(٢) جيرو ، محاولة لدراسة العماره عند العرب ، ص ١٠٥ ؛ ج.مارسيه ، مجمل الفن الاسلامى ، ص ٣٣٧ ؛ ب.أ. بلاى (F.A.Pleye) ، المجمل فى تاريخ اسبانيا (بالاسبانيه) ، ج١ص٩٧٩ .

وهى تقوم بدور الكتف الذى يسند الجدران الأربعة الخارجية عن طريق ٣٥ حدرة ترتفع حتى السطح . والحدرات محمولة على نوع من القبوات المضلعة بالطوب والتى تصل ما بين الجدران الخارجية والنواة الوسطى لزيادة صلابة البناء . وفى داخل النواة الوسطى حفر ٧ غرف متوالية بعضها فوق بعض ، وهى مسقوفة بنوع من القبوات المضلعة بالطوب على شاكلة قبوات الحدرات المحيطة بالنواة الوسطى . وهى ليست مكسوة بزخارف غنية مثل تلك الموجودة بالكتبية .

الزخرفة:

كما هوالحال بالنسبة للخطة المعمارية الخالصة ، فإن صومعة اشبيلية تقدم لنا فى تخطيطها الزخرفى النموذج لواحدة من أجمل مجوهرات العمارة الاسلامية . فهى على عكس المنارات السابقة الظاهرة القناعة المقصودة(١) ، تكشف عن رغبة فى الثراء والتنوع الزخرفى . فإذا كان المبنى يمثل وحدة من وجهة النظر المعمارية ، فإننا نلاحظ على عكس ذلك أربع طبقات زخرفية افقية ، بعضها فوق بعض ، وهى مقسمة من جهة أخرى الى ثلاث مناطق رأسية من أعلى الى أسفل . وهنا نجد الزخرفة تغلب على الفراغ ، وهى ابداع موحدى جديد ، وان كان لا يتفق تماما مع مذهب ابن تومرت الذى يدعو الى البساطة(٢) .

والشباك أو النافذه يمثل الوحدة الزخرفية بالامتياز على أوجه البرج الأربعة وهو مفرد أو مزدوج ، ثلاثى أو نصف دائرى ، متجاوز أو منكسر ، مقرنص أو غير مقرنص ، والنوافذ تمثل كتلا من الظل ضرورية للتوازن مع كتل الضوء الساقطة على الواجهة ، وتعطى القوة للبناء . وفى رأينا ان الطابق الزخرفى

---

(١) احمد فكرى ، المسجد الجامع بالقيروان ، ص ١٢٣ .

(٢) هـ بتيراس ، معابد وحصون موحديه ، ص ١٨ .

الأول يبـدأ من سطح الأرض ويرتـفع الي منتـصف البـدن . وإذا لم نأخـذ بعين الاعـتبـار النوافـذ التى تمثـل العناصـر الزخـرفيـة الوحـيدة ، فـإن هـذا الجزء من الصـومعة يظهـر متواضعاً ، ويعبـر عن تقشف جديـر بالموحدين . ومع ذلك ، فإذا كـان ذلك التقشف يرتكز جزئيا على فقر فى المادة الزخرفية ، فهو يكون مع الأجزاء العليا ، المشغولة بثراء ، مجموعا جماليا من عناصر مختلفة ، لا يؤثر أبداً على استمرارية النمطية والتكرار . والواجهات الأربعة ترتكز تقريبا على تصوّر واحـد . ولكى نأخـذ فكرة من ذلك التـصور ، فلنأخـذ الواجهـة الشرقيـة مثلا ، فـهى التى تلفت النظر للوهلة الأولى عندما يتـجه الزائر نحو مدخل البـرج . فالنوافـذ تشكل هنا لوحـات من التـقويسـات المختلفـة الرائعة المنظر . وفى قاعدة اللوحات تظهر ثلاث نوافذ مستطيلة الشكل مفتوحه على نفس المستوى وسط المناطق الرأسية ثلاثة عقود مفصصة (خمسية) . وفوق ذلك توجد لوحه تشتمل على عقد مفصص منكر يحيط عقدا آخر من نفس الطراز ، ويحط على عمودين صغيرين من المرمر لهما قامة رشيقة ، ويتوجهما رأسان منحوتان بعناصر هندسية . والجميع ، من : الفتحات او النوافذ ، والعقـد المحيـط ، والاطار تبـرز وسط إطار مسـتطيل ، والمجموعة تشكل لوحة زخرفية أسفل لوحة أخرى تحيط بفتحتين توأمتين فى شكل عقد مفصص منكسر . وتعلو النافذتين عناصر زخرفية من الملاط المشبك . وتنتهى زخرفة هذا الطابق بشـبـاك مـعـزول وحـده ، مكون من عـقـد حـدودي يقع داخل إطارمستطيل والطابقـان التاليان متماثلان ، فليس الواحد منهمـا إلا تكرار للآخـر . والنوافـذ هنا تشـغل المنطقـة الوسطى ، بينمـا المنطقـتـان الجانبيتـان مشغولتان بزخرفة هندسية من المشبكات . والمنطقة الوسطى مزينة بلوحتين من الأقـواس الصـغـيرة المتراكبـة ، وكل واحـدة منهـا تحوي فـتحـتين توأمـتين قوسيتين متجاوزتين ، يحيط بهما قوس مفصص بكسور ، يظهر مرتفعا بعض

الشيء فى الاطار المستطيل للوحة . والزخرفة الهندسية فى شكل المشبك من المنطقتين الجانبيتين تنزل على قوسين توأمين صغيرين ، وهميين ، فى شكل عقد مفصص . والعقدين الصغيرين ينزلان بدورهما على ثلاثة أعمدة رشيقة من المرمر ، تيجانها منقوشة بزخرفة هندسية .

والطابق الزخرفى فى الرابع أشبه بشريط أو افريز وعنصره الأصلى هو زخرفة الأقواس الصغيرة المسطحه التى يعلوها افريز من الملاط فى أشكال مشبكة .

والنوافذ فى الواجهات الأربعة ذات فتحة واحدة أو فتحتين ، وهى للأسف ليست مفتحة على نفس المستوى الأفقى ، إذ ان مستواها المتدرج يبين من الخارج مسار الحدرات الداخلية ، وهي مع ذلك متنوعة الشكل ، وذات أصالة أكيدة .

أما شرفة السطوح فكانت ينبغى ان تزخرف كما هوالمعتاد بتاج من العرائس المسننة . وهذه الزخرفة كانت من غير شك على نسق حائط الصحن الذى مازال قائما بأكتافة الساندة .

وكما هوالحال فى الكتبية ،فإن البدن الرئيسى للصومعة يعلوه نوع من البرج المربع أقل اتساعا وحجما ، يرتفع الي عشرة أمتار وهو ينهى المبنى . وفوق هذا « الجوسق» الأخير يقف السفود الحديدى رافعا كرات « التفافيح » . والحقيقة انه يوجد مفتاح حجرى لقبة الكتدرائية يتمثل فيه شكل الصومعة فى حالتها الأولية ، والتى تبين لنا تناسق كل تلك العناصر المختلفة وتناغمها(١) .

وظل البرج على حالته تلك حتى سنة ١٣٩٥ (٨٩٢ هـ) حيث فقط جزءه الأعلى إثر زلزلة أرضية هدمت كثيرا من المبانى(٢) . وفى سنة ١٥٦٨

---

(١) هـ.تيراس ، جامع اشبيلية الكبير ، الكتاب التذكارى هـ.باسيه ، ج٢ص ٢٥٥ .

(٢) هـ.جيرو دى برانجاى ، محاولة لدراسة العمارة العربية ، ص ١٠٧ .

(١٠٦٥ هـ) بنى فوقه فرناد – رويز بناء من طراز عصر النهضة ، من أربعة طوابق ، آخرها قبة لتكون قاعدة لتمثال العقيدة الهائل الحجم ، من عمل بار تولومى مورل ، وهذا التمثال عرف عند العامة باسم « جيرالديّو » (الخيرالدا) .

جامع اشبيلية :

بناء على ما تبقى من الجامع القديم لا نستطيع اليوم الا محاولة تخطيط تقريبى له . فالصحن بقى كما هو حسبما ترسمه زاوية الجدار فى الواجهة الشرقية . والجدران ليست فى الحقيقة إلا تمثيلا لأسوار جامع قرطبة مع أكتافها من الكتل الحجرية المربعة والتى يقل حجمها كلما صعّدنا الى أعلى بالتدريج ، وهى تسند الجدران بشكل وثيق . والمدخل الرئيسى للجامع (باب الغفران : puerta del Perdon) مازال موجوداً كما كان ، لم يصبه إلا بعض التغيير ، فى وسط الحائط الشمالى للصحن ، إنها بوابة من عقد نصف دائرى متجاوز .وان الأعمال الأثرية الحديثة تسمح بالكشف عن زخرفة العقود الحاملة للجدران الداخلية للصحن ، وهى عبارة عن فصوص دقيقة أساسها عناصر زهرية ونباتية معدلة بعمل خطوط منحنية تحيط بالعقد . وزخرفة الباب الرئيسى المصنوعة من البرونز هندسية فى أساسها ، ووحدتها هى الخرطوشة متكررة بشكل منتظم على قاعدة من الزخرفة الوردية . والخرطوشة تغطى معظم المساحة ، وتحوى زخرفة خطية بالطراز الكوفى يتكرر فيها مديح :« الملك لله . لا إله إلا الله » . وقبضة الباب مشغولة بالحفر فى شكل زهرى ، يذكر بهيئة اليد . وهناك كتابة بالخط النسخى تحتل ما يعادل ظهر اليد ، وتكرر مديح :"صلى الله على محمد " .

وتوجد الأجزاء السفلية من أعمدة المصلى القديم التى كان يجب ان تحمل العقود التى تكون أروقة بيت الصلاة . وتلك العقود من الطوب ولها شكل

صليبية ، وهى تسمح لنا بافتراض ، ان عدد الأروقة كان ١٧ (سبعة عشر)(١) كما فى الكتيبة ولكنه رغم ان المصلى يذكر من قريب بطراز المساجد الأندلسية(٢) . فإن تخطيط الكتدرائية الحالى لا يسمح بتصور عمق بيت الصلاة القديم ولا عدد البلاطات (٣).

مسجد حسان وصومعته بالرباط :

لم يبقى للأسف من جامع المنصور الكبير المبنى بالرباط عقب الانتصار الكبير فى موقعة الأرك (آلاركوس ١١٩٦م/ ٥٩٣هـ) إلا بعض الخرائب ، وهو الجامع الذى يبنى بخمس المغانم من الاستعانه بسواعد الأسرى المسيحيين ، كبادرة شكر لله على معونته أثناء القتال . وتلك الخرائب ليست كافية لإعطاء صورة مضبوطة بما فيه الكفاية عن حالة المسجد الأولية . والمعروف حقيقة هو أنه لم يتم على حياة المنصور(٤) .(المتوفى ٥٩٦هـ / ١١٩٩ م) . والحقيقة ان مثل هذا المبنى ما كان من الممكن ان ينتهى أبداً قبل أربع سنوات على الأقل . ولا شك ان توقف العمل عقب وفاة المنصور ، وعدم استئنافها على عهد أى من خلفائه لنقص الموارد ، تسبب فى سرعة خراب الأجزاء التى كانت قد بنيت من المعبد .وبسبب هذا الأمر ، ولعدم وجود وثائق أصلية، فإن أى محاولة لإعادة بناء الأثر سوف تعنى مجهودا غير مجد، ينبنى فقط على

---

(١) قارن ، هـ . تيرّاس ، جامع اشبيلية الكبير ، تذكار هـ . باسيه ، ج٢ ص ٢٦٢ .

(٢) ديولافوا ، فن واحد ، اسبانيا والبرتغال ، ص ١٤٩ .

(٣) حسب هـ. تيرّاس ، فإن المصلى ربما كان فيه ١٤ (أربعة عشر) بلاطاً بمعنى اجمالي عدد ٢٤ مع الـ ٨ (ثمانية) بلاطات فى الصحن (مسجد اشبيلية الكبير – تذكار هـ.باسيه ج٢ص٢٦٢ .

(٤) فنحسب هـ. تيراس ربما حوى بيت الصلاة ١٤ (اربعة عشر) بلاطا بمعني ٢٤ (اربعة وعشرين) باضافة ثمانية بلاطات الصحن . مسجد اشبيلية الكبير ، تذكار هـ. باسيه ،ج٢ص٢٦٢ .

مجرد التخمينات ، ويؤدى الى نتائج متضاربه (١) . أما عن برج حسان ، فإن جزأه المرمم يرتفع الى ٤٤ (اربعة وأربعين) متراً(٢) ، ولكنه كان لو قدر له التمام لارتفع الى ٦٠ (ستين) متراً ، توأميه : كتبية مراكش ، ودواره (جيرالدا) اشبيلية . وهكذا يظهر لنا أسلوب البناء ، من : القامة المربعة المرتفعة على نفس الوتيره دون اتساع أو ضيق فى الكتلة ، ومطلع حلزونى اتساعه متران معقود على قبيبات تحيط بالنواة المركزية التى تحوى قاعات بعضها فوق بعض ، وتربط الجدران الخارجية بالنواة ، وهى نفس الأوضاع الهندسية الجيدة التي عملت على تقوية المبنى . ولكنه وعلى خلاف صومعة اشبيلية ، فإن منارة حسان مبنية بالحجارة المنجرة ، الوردية اللون . ومن وجهة النظر الزخرفية ، فإن كان تكوينها مختلفا عن زخرفة منارة اشبيلية ، فإنها تتبعها ، فى الخطوط العريضة ، فالعناصر الزخرفية هى نفسها ، من : الكسوة او الفتحات الانيقة ، من : نافذة ، ومسطحه ، منفردة أو مزدوجة ، مع حركة التشبيكات أو العقود المفصصة .

قصبة مراكش ومسجدها :

فى مدينة مراكش المدموغة بطابع عبدالمؤمن ، نجد أن القصبة ومسجدها ، رغم ذلك ، من إنشاء المنصور. فحسب رواية الاستبصار ، فإن بناءهما صدر الأمر به بمعرفة يعقوب فى بداية سنة ٥٨٥هـ/ ١١٨٩م (٣) . ومن المحتمل ان تكون الأعمال فيهما قد انتهت فى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٦ – ١١٩٧ م ، إذا قبلنا قصة صاحب القرطاس (٤).

(١) ج.مارسيه يقرر أن الخطة التى رسمها ج.هاينو لا تتفق أبدا مع تلك التى رسمها ديولافوا ، مجمل الفن الاسلامى (بالفرنسية) ، ص ٣٢٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٣٦ .

(٣) الاستبصار ، والترجمة، ١٨٢ .

(٤) النص ، ص ١٥٢ ، ١٧٩ ، والترجمة ٣٨٣ . وهنا يمكن ملاحظة – حسب أقوال مؤلف القرطاس=

أما عن رواية العمرى الذى ينقل رواية ابن سعيد ، فتسمى القصبة المراكشية « بمدينة تامرّاكش » ، إذ يقول انه يوجد بمراكش العاصمة القصور الكبيرة ، الواسعة ، وخاصة ذلك الذى بناه المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن ، وهى تقع وسط مدينة كان قد خططها خارج مراكش ، خاصة له ولحاشيته المقربة ، وكانت تسمى « تامراكش » (١).

والحقيقة ان المنصور كان قد جعل من القصبة وضواحيها ، مدينة ملكية تحوى القصور له ولحاشيته . وفى ذلك يقول ابن سعيد انه لا يعرف كيف يستطيع وصف تلك المدينة الجديدة ، الوصف الذى يعبر عن واقع الأمر . ففى نظره فقد كانت بجدرانها الضخمة ، وأبوابها المرتفعة ، واحدة من أعظم العجائب التى خطرت على فكر أمير من الأمراء . وهو يقدم لنا فى الصفحات التالية من روايته وصفا دقيقا للقصبة ، وهى القصر الخلافى ، وبيت البللور ، وبيت الريحان (الآس) . وكأن المدينة الأميرية محاطة بأسوار لها ٣ (ثلاثة) أبواب ، هى : باب الجنان ، وباب الغلمان المفتوح على مدينة مراكش ، وباب الرياض . وعلى ميدان فسيح يقوم الجامع الكبير(٢) . وأرض الصحن مسكوة بشباك من النحاس الأندلسى . والجامع وثيق البناء ، وفير الزخرفة ، ومما يستحق التنويه ان المنبر وكذلك المقصورة تظهران فى بنائهما براعة فائقة فى

= انه يمكن ان يكون يعقوب قد أمر ببناء القصبة والجامع قبل موقعة الاركوس مباشرة ، فى سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥ م ، وهو الأمر غير المحتمل ، من حيث ان الأمير كان ، من جهة مشغولا بالحرب المقدسة ، ومن جهة أخرى فإن رواية نفس المؤلف المتعلقة بطريقة الأعمال فى سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ - ١١٩٧ م، لا تسمح فى الاعتقاد بأن العمل الضخم يمكن ان يكون قد تمّ فى أقل من ٣ (ثلاث) سنوات.

(١) المسالك ، الترجمة ، ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

(٢) مسالك الابصار ، الترجمة ، ص ١٨٥ ؛ أ.فانيان ، مستخلصات لم تنشر (Exlraita inedits) .ص ١٥ وما بعدها ؛ وقارن ليون الافريقى ، ج١ص ١٩٨ وما بعدها .

البناء . فقد كان لهما آلية تسمح بإخفائهما خلال كل أيام الاسبوع عدا يوم الجمعة حيث كانت تلك الآلية تسمح بظهورها عندمايدخل الخليفة الجامع من أجل آداء الصلاة الجامعة . ولقد تغنى كل الشعراء بالمقصورة وبانيها المنصور (١) ، كما فعل ابن مجبر حيث يقول :

- تارة تحيط بأولئك الذين بداخلها ؛ فتصبح كأنها السوار
- وتارة تختفى عن انظارهم ، فكأنها سر من الأسرار
- كأن كل شيء فى علمها ، فهى تتوافق مع كل الظروف .
- فعندما تشعر مقدم الإمام لزيارتها مع حاشيته ، تقوم لاستقباله
- فعندما يظهر تظهر هى الأخرى ، وعندما يرحل تختفى ، كما تظهر الهالات وتختفى مع القمر .

وتخطيط المسجد الحالى ، بمصلاه المحدود السعة بالنسبة للصحن الرئيسى ، وبالنسبة للصحون الأربعة الجانبية ، لا يظهر بصدق شكل المعبد الموحدى(٢) وفى القرن السادس عشر عندما اختار السعديون القصبة فى مراكش كمقر ملكى لهم ، كان عليهم ان يرمموها فى أكثر من مرة خلال عهدهم . ورغم كل ذلك فقد بقيت المنارة عمل المنصور الأصلى . ولكننا هنا بعيد عن منارة اشبيلية حيث صومعة الرباط أقل حجما ، كما ان نواتها الوسطى لا تنفذ فيها الحجرات ، وحيث السلم بديلا للحدرات الدائرية(٣).

---

(١) المقرى ، النفح ،ج٢ ، ص ٨٠٤ ؛ السلاوى ، الاستقصا ، ج١ ص ١٨٠ ؛ ويظهر صاحب الحلل الموشية (ص١١٩ - ١٢٠) عبدالمؤمن كبانى تلك المقصورة العجيبة التى ينبغى ان تكون مخصصة لجامع الكتبية من غير شك . وهذا التأكيد لا يكون مقبولا من حيث انه لم يكن من المقبول أن يتم من هذا العمل المترف من جانب عبدالمؤمن فى وقتْ كانت الدولة الموحدية تميل الى البساطة والتقشف .

(٢) هـ . تيرّاس ، معابد وقلاع موحدية ، ص ٢٧١ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٢٩٤ ، وما بعدها .

العمارة المدنية والعسكرية:

لم يتوقف تذوق المنصور للانشاءات المعمارية على النوع الديني فقط ، بل انه تعداه إلى مجال العمارة المدنية وكذلك العسكرية . ومن بين المباني التي اشتهرت في العاصمة مراكش ، كان للبيمارستان (المستشفى) شهرة واسعة بين عامة الناس حيث اشتهر باسم « دار الفرج » ، وهو من المباني التي يحق للمنصور ان يزهو ببنائها حيث أنه أثار حماس كل من عبدالواحد (المراكشي) وصاحب الاستبصار (المجهول المراكشي أيضا) . فحسب الأول بدأ المنصور باختيار موضع متسع في المنطقة المستوية تماما من المدينة ، وأمر المهندسين ببناء ذلك المستشفى في هيئة فخمة . وعندئذ أظهر هؤلاء مهارة بالغة في كسوته بالزخرفة العظيمة ، من : الحفر الفاخر ، والزينة المبهرة بشكل زاد على ما كان متوقعا . وغرس المنصور فيه كل أنواع اشجار الزينة وأشجار الفاكهة . وأجرى فيه المياه الكثيرة التي كانت تجري حول جميع الغرف ، بالاضافة الى ٤ (أربعة) أحواض كبيرة انشئت في وسط المنشأة ، وكان أحدها من الرخام الأبيض ، وفرش المنصور المبنى بالبسط الثمينة ، وبسط الصوف والقطن والحرير والجلد .

وفي مجال العمارة المدنية ، نتذكر بما قام به يعقوب في العاصمة، من : القنوات والحدائق والصهاريج (١).

ولم تستثنى العاصمة الاندلسية ، اشبيلية ، من اهتمامات المنصور الخيرة ، من : القصور الأميرية وقنوات الماء ، والأسواق التي كانت تنشأ في كل مرة كان يزور الأندلس .

فعند عودته من حملة شلب ، أقام المنصور على ضفة الوادي الكبير ، قلعة حصينة تشتمل على القصور والقباب . وعندما انتهى العمل من بناء القصور

---

(١) انظر ما سبق ، ص ١٦١ .

كانت موضع رضاه ، بل ربما فاقت توقعاته ، وأعطيت تلك المجموعة من المبانى اسم« حصن الفرج » . وعند عودته من موقعة الأرك الكبيرة ، عقد مؤتمراً فى أحدى القباب (الفساطيط) المطل على النهر ، وسمح للناس بالدخول حيث تغنى الشعراء بأناشيد النصر (١).

وإذا لم يكن قد بقى لناشىء من قصور المنصور ، فقد بقيت لنا أجزاء هامة من المبانى العسكرية التى توضح نشاطه فى مجال الأعمال الدفاعية . فلقد كان يهتم بالبناء بشكل عام ، وببناء القصبات فى المدن الرئيسية فى كل الدولة بشكل خاص ، كما فى : مراكش وفاس والرباط واشبيلية . وبقايا التحصينات الموجودة فى الرباط دليل على نشاطه الخارق للعادة فى ذلك المجال . فالأسوار تمتد على طول ٥ (خمسة) كيلو مترات ونصف ، وهى تشكل زاوية كبيرة من البحر الى القصر الأميرى ، ومن هناك الى ضفة وادى بورجرج (أبو الرقراق) ، وهى مزودة بالأبراج المستطيلة(٢).

ولما كانت اشبيلية بمثابة القاعدة العامة للعمليات الحربية فى الأندلس فإنه كانت موضع عناية يعقوب . فالتحصينات والأسوار الممتدة حتى باب ماكارينا (Macarena) ، يجب ان تكون جزئيا من عمله إن لم تكن كليا كذلك . والحقيقة ان تلك التحصينات القديمة أصلا كانت موضع عناية الأمويين الذين أعادوا بناءها قبل ان يفعل ذلك الموحدون مرة أخرى . والحقيقة ان تلك التحصينات تظهر أصالة فى التخطيط . فالأسوار تمتد مستقيمة ، ولكن فى شكل منكر أو متعرج على هيئة زوايا بارزة وداخلة ، الأمر الذى كان يزيد فى صلابتها . وهى تتكون من ٣ (ثلاثة) عناصر ، هى : السور الرئيسى ، ويرتفع الى ٦ أمتار ، وتقويه الأبراج ، وخندق اتساعه متران ،

---

(١) عبدالواحد ، المعجب ، ص ٢٥٤ .

(٢) ج.مارسيه ، مجمل الفن الاسلامى ، ج١ ص ٣٥٣ .

تحميه ستارة ارتفاعها متران ونصف المتر ، تمنع المهاجمين وتصدهم . والأسوار والأبراج يتوجها نوع من الأفريز مكون من شريط من البناء يرتفع عليه مسننات هرمية الشكل وكتل البناء التى تتوج سور الستارة الخارجي الصغير تنفذ فيها فتحات يستخدمها المقاتلون فى الرمى .وهى مصنوعة فى القاعدة من الطابية أى "البِتُون" . والطوب أوالطابوق ، يستخدم عادة فى بناء الأبراج وفى الزوايا بخاصة ، وكذلك من أجل الافاريز أو الاشرطة التى تتفق مع الطوابق المتوالية . والابراج ترتفع الى ١٦ متراً . وهى عادة مربعة ، وان كان بعضها له شكل مستدير (من مثمن أو ذى ١٢ ضلعا) وعادة ما يكون برجاً ثلاثى الطبقات ، ويؤوى العدد الكبير من الرجال بأسلحتهم الوافية ، مشرعا فى مقدمة الأسوار . والنموذج لدينا لهذه الأبراج ، هو برج الذهب (Totre D´ro) على ضفة الوادى الكبير ، غير بعيد من القصر الموحدى الكبير ، وقريبا من المسجد الجامع . ونحن نفترض انه كان ذلك البرج يرتبط بسور أشبه ما يكون بذلك الذى يرتبط بسور أشبه بسور المكارينا (Macarena) بالقصر الموحدى .

وفى ضواحى اشبيلية ، ينسب الى ابى يوسف يعقوب تلك القلعة المسماة بقلعة الجواديرة ، والتى تُظهر تقريبا نفس الأساليب الدفاعية التى كانت لأسوار المكارينا.

مما تقدم نستخلص أنه إذا قارنا الحياة الفكرية ، بمجال الفن المعمارى يكون هذا الأخير ملموساً بشكل أوضح ، وخاصة فيما يتعلق بالعمارة الدينية . فالحقيقة انه اذا لم يكن المزج تاما بين المغرب والأندلس فى المجال الفكرى ، فإنه كان تاما كاملا فى الثاني ، حيث تولّد فن مغربى – أندلسى قلبا وقالبا . فمساجد ذلك العصر ، توضح فى نفس الوقت الخصائص الموحدية والتأثيرات الأندلسية ؛ وهذه الأخيرة كانت تمارس أولا وقبل كل شىء تحت تأثير جامع

قرطبة الكبير . ومع ذلك فقد كانت الغلبة للسمات الموحدية ، من : المساحات الفسيحة للمساجد ، مما يتوافق مع الأعداد الكبيرة للمعتقدين فى المذهب الموحدى . وتأتى بعد ذلك القوة التى تتمثل فى القوة السياسية والدينية ، ثم البساطة أخيرا والتقشف ، وهما الصفتان اللتان تتفقان مع نقاء المجتمع الاسلامى الأول ، الذى كان ينشده المهدى ابن تومرت وخلفاؤه من بنى عبدالمؤمن .

واذا كان العمل السياسى الذى قام به المنصور لم يقدر له البقاء طويلا ،فإن ذلك لم يكن مصير أعماله المعمارية . ففى الرباط واشبيلية ومراكش مازالت بقايا أعماله مبانيه تشهد الى الآن ما كان عليه عهده من العظمة . لقد طرد الموحدون من شبه الجزيرة الايبيرية ، ولكن نفوذهم سيستمر مؤثراً فى هذا المجال ليس فى اسبانيا المسيحية فقط ، بل وخارج حدودها أيضا .

الخـاتـمة

تتلخص أهمية عصر المنصور الموحدى فى أنها تعتبر بمثابة العصر الذهبى للمغرب . ففيها بلغ ذرورة العظمة . فمراكش العاصمة كانت تسود الغرب الاسلامى بعدوتيه من تخوم مصر حتى وادى تاجه . فالتهديد المسيحى الاسبانى كان قد دفع بعيداً بعد انتصار سنة ٥٩١هـ/ ١١٩٥م ، والمسألة الاندلسية ظهر وكأنها حلّت ، وظهر المغرب وكأنه حقق فترة طويلة من السعادة والازدهار والانتاج الوفير فى كل المجالات .

ومع ذلك فأمامنا مسألة تتلخص فى : الى أى حدّ يتفق مثل هذا الحكم على تلك الفترة مع توالى الأحداث فيما بعْد ؟ فهناك نقطتان تظهران لنا بالغتى الأهمية بالنسبة لدراسة تلك المسألة ، وهما : شخصية الأمير ، والمسألة الأندلسية ، فمن الأول استمدت الأمبراطورية قوتها ، ومن الثانية وجودها وكينونتها.

فالمنصور كان يشغل بجدارة وظيفته كأمير ، كما يظهر وكأنه نجح فى حلّ المشكلة الأندلسية . ولكنه كان حلاً مؤقتا . وإذا لم يكن لموته فى البداية ردّ فعل مباشر ، فكان علينا الانتظار مدة ١٣ (ثلاثة عشرة سنة فقط) لكى نشاهد كارثة العقاب (٦٠٩هـ / ١٢١٢ م) ، التى كانت حدثا فاصلاً هذه المرة ، فى تفكك واضمحلال الأمبراطورية الموحدية . والحقيقة انه ليس من العدالة إلقاء عبء كل ما ترتب على ذلك ،على عاتق الناصر وحده . فالمسألة تظهر أكثر تعقيداً ، فربما كان من الأفضل البحث عن عوامل الضعف التى غرست جذورها فى النظام منذ عهود سابقية ، وقبل ذلك على عهده بطبيعة الحال ، وفى الحقيقة فإن شخصية يعقوب تتحمل نصيبا من تلك المسئولية ، على أساس تركيز ادارة شئون الدولة حول شخص الأمير ، الأمر الذى أظهرته الدراسة . وادعاء الموحدين فى حقهم بلقب الخلافة ، والذى كان أمراً مبهما

غيردقيق ، ازداد قوة مع وصوله الى العرش ، حيث بدأ هو بالمطالبة بحقوق أكثر من قبل على العالم الاسلامى . ففى كل الأمور كان الأمير وحده صاحب القرار الأخير بصفته « أميراً للمؤمنين» . ففيمايتعلق بالأمور الداخلية وفى ادارة ممالكه كان يفرض سلطانه بقوة على كل عماله . فكل من يخرج على القانون السلطانى لم يكن يتعرض للعقاب الشديد فقط ، بل كان يغامر بحياته أيضا . وهذا الاستبداد كان يظهر فى تدخله فى كل شيء ، فى : العدالة ، وأمور الدين والشئون العسكرية . ولكن هذا النوع من الحكم المطلق كان يؤدى الى الخلط فيما بين الدواوين الادارية الى حدّ عدم التفرقة بين اختصاص المسئول أو الآخر ، والى عدم رسم خطوط واضحة بين الإختصاصات أو الأخرى.

ترتب على ذلك أن صارت ادارة الدولة من النوع الأكثر بدائية . وتلك كانت من نقاط الضعف فى امبراطورية المنصور . فرأى جماعة العشرة أو جماعة الخمسين لم يكن إلا استشاريا . وهكذا عندما كان الخليفة يتعرض للمرض ، أو لموقف حرج ما ، كانت الدولة تنزل نحو الانهيار ، وكان المطالبون بالسلطة العليا يظهرون فى كل الجهات .

ونقطة ضعف أخرى ينبغى الاشارة اليها . فالامبراطورية كانت تتكون من ثلاث بلاد ذات سمات متميزة ، هى : المغرب وافريقيا والأندلس . وقوة الدولة كانت تتمثل فى المغرب ، وهى لم تكن فى الحقيقة إلا قوة الأسرة الحاكمة ، وقبيلة الخليفة . وبناء على ذلك كان من الطبيعى أن تكون افريقية ، البعيدة عن مراكش العاصمة ، دائما قاب قوسين أو أدنى من الثورة أو من الدخول فى معسكر معادٍ، وهو الأمر الذى كان مواتيا بالنسبة لبني غانية ، وبالنسبة لتدخل خلافة بغداد غير المباشر ضد المنصور . وهكذا فبسبب رد الفعل غير الكافى ضد الميورقيين ، اتضح ان المنصور لم يكن قادرا على تهدين

أفريقية . حقيقة انه فضل مواصلة الصراع ضد المسيحيين فى الاندلس ، تاركا افريقية لمصيرها ، ولكنها كانت سياسة خرقاء ، مترددة وضعيفة . وهكذا قدر لافريقية ان تكون اقطاعا لأول حاكم يستطيع ان يكون قادرا على حفظ النظام والأمن فيها . وهكذا نجح أحد أبناء أسرة أبى حفص عمر ، رئيس قبيلة هنتاتة القوية ، ان يكون أسرة ملكية فى تلك المنطقة ، هى الأسرة الحفصية .

واذا كانت الآلة الحربية الموحدية قد ظهرت ضعيفة نسبيا فى افريقية ، فإن الوضع كان مختلفا بالأندلس حيث كانت الحرب هناك جهادا أى حربا مقدسة ، وليست فتنة بين المسلمين . فالمسلمون من الزنادقة أوالمعادين للموحدين كانوا على استعداد للمشاركة فى عمل موحد ضد الكفار . هذا ، ولكن حشد الجيوش من بين غير الموحدين كان يمثل نقطة ضعف إضافية أخرى – فالقبائل المصمودية لم يكن لديها القدرة على تقديم الرجال للقيام بعمليات عسكرية كبرى ولفترة زمنية لا حدود لها . ويضاف الى ذلك موقف مالي حرج ، ترتب على استنزاف موارد الخزانة العامه نتيجة للاعمال العمرانية الضخمة التى قام بها المنصور . فمدينة رباط الفتح (الرباط العاصمة) لم يمكن إنهاء بنائها على عهد الناصر فقط ، بل ان رواتب الرجال لم يمكن الوفاء بها بانتظام ، الأمر الذى تسبب فى التململ داخل الجيش .

وفوق ذلك هناك عمل يمكن ان يثبت ضعف الآلة الموحدية وقتئذ . فلقد كانت الظروف مواتية فى اسبانيا بالنسبة للمنصور ، فكلما كان الفونس القشتالى يزداد قوة ، الأمر الذى كان يهدد استقلال جيرانهم ، كلما كان يزداد حقدهم عليه . وكانت فرصة طيبة للمنصور لكى يطبق مبدأ سياسة « فرق تسد »« Divide utimperes » ، لو أنه فعل . ولكنه عندما تغيرت الأحوال ، وأتت جهود البابوية فى سبيل تحقيق سياسة منسجمة فى اسبانيا المسيحية بثمارها المرجوه ، لم تكن الجيوش الموحدية تستطيع مواجهة العدو .

وعندما انهزم الموحدون لأول مرة ، تفككت الامبراطورية ، وانهارت كقلعة من الورق ، كما يقال .

وكان أمراً عجيبا ، فقد كانت حياتها مرتبطة بالأندلس . فهي التي قدمت الفخار للمنصور ، كما كانت الأندلس هي التي أجهزت على الأمبراطورية الموحدية بطعنة الخلاص .

واذا نظرنا في خطة السياسة الدينية ، فإننا نجد ان سياسة المنصور لم تكن حسنة الحظ . فتعصبها لم يأت بشيء مفيد . فتعاليم ابن تومرت لم تنجح إلاّ الى حدّ ما ، والفساد لم تلبث ان ظهرت بوادره منذ البداية . فأبناء عبدالمؤمن كانوا يشربون الخمر الأمر الذى يعنى أنهم لم يحترموا تعاليم ابن تومرت ، ولم يعتقدوا في رسالتهم أنفسهم . والحقيقة ان الحماس الديني وحده ، كان يثير نشاط الموحدين . ولا شك ان اعلان الظاهرية كمذهب رسمي وحيد ، ومطاردة المالكية دون شفقة ، والاجراءات التعسفية ضد اليهود ، كل ذلك لم يكن له من ثمرة سوى التململ العام . وبدل تتابع الأحداث ، وانتصار المالكية النهائي على عهد المأمون ، ثامن امراء الموحدين ، يدعو الى التفكير حقا في ان تلك السياسة لم تنجح أبدا بشكل تام .

وفي المجالات الأخرى ، كانت الأندلس هي الملهمة لبلاد المغرب . فالمغرب البربرى اقتبس منها معظم منظماته . فعلى المستوى الفكرى كانت الأندلس هي المعلمة ، فقد قدمت له العديد من الأدباء والعلماء والمفكرين والشعراء .

وفي النهاية إذا كان المغرب قد هزم الأندلس بالسلاح ، فإن الأندلس قد سادته بالعلوم . وبذلك تكامل البلدان . ولكنه عندما ضاعت الأندلس ، كان ذلك نذير نهاية العصر الذهبي للمغرب.

الحمد لله رب العالمين

الفهـرس